شعراء الملحون السلويون (*)

محمد الفاسي

ان التحدث عن شعر الملحون من المواضيع التي يتذوقها المغاربة ويقبلون عليها وذلك لأنه التعبير الصادق من مشاعرهم وإحساساتهم وهو ديوان حياتهم وسجل عوائدهم وحضارتهم وهو يحتوي على روائع في كل فنون الشعر. ولا أريد في هذه المحاضرة أن أطيل في الكلام على الملحون عموما فإن كتابي معلمة الملحون الذي سيظهر إن شاء الله قريبا الجزء الأول منه والذي سيحتوي بفضل الله ومنته على عشرين جزءا تكفل بشرح كل ما يتعلق بهذا الفن البديع وإنما أجزئ بكلمة حول اشتقاق لفظة الملحون لأن الذي يظنه الكثيرون أنه من اللحن أي الخطأ في النحو ولكن ذلك جاء من تاوفق الحروف بين معنى الغلط ومعنى النغمة فالملحون هو الشعر الذي يلحن ويغنى وفي المعلمة الحجج من كلام ابن خلدون على هذا المفهوم.

والملحون بمعنى الشعر الذي ينظم في مختلف اللهجات العربية ويتغنى به لا تخلو منه ناحية من نواحي الوطن العربي إلا أن ما أنتجه المغاربة فيه

*) ألقيت هذه المحاضرة بقاعة الأفراح لعمالة سلا يوم 3 مارس 1984 بمناسبة الذكرى الرابعة والعشرين لجلوس صاحب الجلالة حفظه الله على عرش أسلافه المنعمين.

بلغ الغاية القصوى في الجودة والروعة وأنا أقول هذا بعد إطلاعي على أكثر ما نشر منه في البلاد العربية من الشعر النبطي كما يسمى بالمشرق ومن شعر الملزومة كما يدعي بتونس ومن غيرهما وبعد دراستي الطويلة العميقة للأدب الشعبي في المغرب وفي المشرق وفي الأدب الفرنسي.

وقد حاضرت مرارا في موضوع الملحون عموما وخصصت دراسة لشعراء الملحون الدكاليين ولشعراء الملحون المكناسيين واليوم سأتعرض لشعراء الملحون السلويين وذلك أن هذا الشعر وإن كان لايخلو بلد من إنجاب شعراء ولا قبيلة إلا أن بعض النواحي والمدن تعتبر مراكز هامة للملحون وإذا كانت مراكش وفاس برزتا في هذا الميدان فإن أزمور ومكناس وسلا من أخصب البقاع لظهور شعراء الملحون. ثم ان هناك ظاهرة عجيبة وهي أن أكثر فحول شعراء الملحون أصلهم من تافلالت وإن كانوا لم ينبغوا بها فالمغراوي والمصمودي والشيخ الجلالي مثيرد والسي التهامي المدغري وابن علي الشريف وأبو خريص وعبد الرحمن حمدوش والجبابي والعيساوي الفلوس وعدد كبير من الشعراء الذين ينتسبون إلى البيت العلوي كل هؤلاء وغيرهم كثير أصلهم من تافلالت وإن كانوا نبغوا بمراكش أو بفاس أو بمكناس أو بسلا أو بغير هذه المدن.

هذا وأن شعراء سلا الذين سأحدثكم عنهم ضاع الكثير من إنتاجهم وهم في هذا كأكثر الشعراء الآخرين باستثناء جماعة قليلة كان وقع عليهم الإقبال في زمنهم فحوفظ على كمية وافرة من إنتاجهم ومنهم سيدي عبد العزيز المغراوي وسيدي قدور العلمي والسي التهامي المدغري والشيخ الجلالي مثيرد وابن علي الشريف وابن سليمان ومريفق والشاوي والحاج ادريس الحنش والغرابلي والهادي بناني.

ثم ان أقــدم من بلغني خبره من الشعراء السلـويين كان يعيش أيــام سيدي محمد ابن عبد الله وأدرك أيام مولاي سليان وهو سيدي عبـد السلام الشرقاوي، ومدينة أبي الجعد موطن الشرقاويين أنجبت كـذلـك عـددا كبيرا من شعراء الملحون أغلبهم نبغ في بلده ولكن منهم من ظهر في ناحية أخرى من بلادنـا مثـل سيـدي عبـد السـلام هـذا ولكننـا لانعرف عنـه إلا الشيء القليل ولم يحفظ من كلامه شيء وعندمـا أقول لانعرف فعنـاه لم يبلغ علمي أنا رغم اشتغالي بهذا الفن الفريـد منـذ ستين سنـة تتم في الشهر المقبل حيث أنني كتبت أول قصيـدة في شهر أبريـل سنــة 1925 وهي قصيــدة ذابــل الأعيان لسيدي قدور العلمي. فإذن يمكن أن يكون عند أحـد الحفـاظـة أو الخزانة علم عن هذا الشاعر أو شيء من إنتاجه.

والذي رويته عن الشيخ عثان الزكي الربـاطي سنـة 1946 حول السي عبـد السلام الشرقاوي هو أنه كان معاصرا للشيخ الجلالي مثيرد وكان صـديقـا لـه وهو المعنى في قول الشيخ الجلالي في إحدى قصائده :

«رايس الفرسان سلوي».

وتنسب له قصيدة في أبي عبيد الشرقي يقول في حربتها :

أزاير العمري　　جل في أشماري

وتأمل في مديح سيد أسيادي

أبو عبيد الأفضل　　من عرب قريش فاض نيله

ولد الفاروق سيدنا عمر

☆ ☆ ☆

ومن الشعراء القدمـاء بسلا مـارويتـه عن الشيخ عمر الاغزاوي رحمـه الله من أنه صاحب قصيدة الورشان. حربتها :

سر اورشاني   بالعزم تدّى لي علوان

للظريفة ذابل الأعيان

سيف العثماني   لالة أبو سالف عايشة

ويقول فيها في القسم الأول :

واسباب اعياني   يوم جيت لحوز الكدان

ريت هيفا

تسحر الأذهان   بهواها فاني

حبها في ساكن الحشا

وتلتبس هذه القصيدة بورشان آخر لشاعر من أهل فاس كان يدعى محمد ابن عمرو. وحيث أن الشاعر السلوي ذكر في قصيدته حومة الكدان وهي بفاس يعتبره بعض الذين بلغهم خبره من أهل فاس. ولكن الشيخ عمر الاغزاوي ذكر لي أن هذا الشاعر لما زار مدينة فاس شاهد بالكدان امرأة جيلة علم أن اسمها عايشة أخذت بلبه ونظم هذه القصيدة وتخيل أنه يوجه لها رسالة مع طائر هو الورشان ليعبر لها عن غرامه. فارتفع الالتباس ويؤسف على ضياعها ولاشك أنه نظم غيرها ولكن لم يبق شيء من إنتاجه معروفا ولقد قيل لي أنها توجد بسلا ولكنني لم أقف على من يدلني عليها.

أما عن اسمه فقد ورد في قصيدته هذه قوله :

ابن عمرو غليوطي في بيان   عبد الاشراف بلا بهتان

كان هذا رواية عن الشيخ عمر الأغزاوي وما ذكرته هو كل ما علق بحافظته.

وأما لفظة الغليوطي فكأنها نسبة إلى السفن القرصانية المسماة غليوط.

وكان مثل سي ابن عمرو الفاسي أيام مولاي اليزيد أي سنة 1204 ـ 1206 (1790 ـ 1792).

أما ثالث هؤلاء الشعراء القدماء فهو المسمى الشيخ الكَعبوري رويت خبره عن الشيخ عثمان الزكي الرباطي رحمه الله ولم يبق من كلامه سوى قصيدة الذهبية التي يقول في حربتها وهو يعني غروب الشمس.

راحت الذهبية قبل البهيم هات المالي
ياعبوش لا ترثى لي كب وار واسقني بالكير قبل يروح الليل

وله قصيدة النجمة التي يقول في حربتها :
سلتك بالله يا النجمة باني بقدومك بان الفجر بضياه يتلالا
باني ياالنجمة الصباح في وقتك مابقى مهالة
متروك اللعب والمزاح
لحضرة الذكر والجلالة في بساط العز والأفراح

وتنسب له قصيدة طاموا وحربتها :
طاموا خيتي علم الفجر تاك من القبلة بعساكره وهجم جيش الليل
والي تحت أحكام الرجال الله وراه غير يمشي في حاله

كما تنسب له قصيدة أم الحسن.

واسم هذا الشاعر فيه خلاف لأنه ذكر في قصيدته النجمة ان اسمه أحمد ولكن الشيخ عثمان الزكي يقول ان اسمه محمد وما في القصيدة غلط ولا يستقيم الوزن بلفظة أحمد.

وكان الشيخ الكَعبوري أيام مولاي عبد الرحمن أي أواسط القرن الثاني عشر الهجري وهو عصر ابتداء نهضة الملحون التي ازدهرت أيام ولده سيدي محمد بن عبد الرحمن ويطلق على هذه الفترة عند رجال الملحون وقت صابة الأشياخ.

ويأتي بعد الكَعبوري عاشر لانعرفه سوى بقصيدة نشرها مترجمة إلى الفرنسية المستعرب الفرنسي سونيك في كتابه المعنون بالديوان من أقوال عرب إفريقية والمغرب المطبوع نصه العربي سنة 1903 والترجمة الفرنسية سنة 1904. تحت العدد 74 ص. 145.

وهذه القصيدة في هجوم السفن الحربية الفرنسية على مدينة سلا سنة 1851 أيام مولاي عبد الرحمن وهو يقول في حربتها :

أإبن حسون أفارس العناية سلطان سلا أنت وسيدي ابن عاشر
حاشى والله بلادكم لادخلوها كفار

ويقول في مطلعها :

يامولاي حرم النبي وحرم أصحابه تحيي الإسلام
واهزم الكافر
غلبنا يارب عليه واهزم جيش الكفار
جانا ومشى مهزوم ليس روح خصلة مر بعد ظل بالكور يشير،
واستغيظ بكفره وزادهم القاهر تغيار
حافت له الإسلام الرجال التياك غزاوا فيه بالطعن الباتر
هدوه بحرب شديد بعد جانا بشقوف النار
ولقاوه أهل الإيمان بالمدافع والكور حتى دهاوا الكريه الدامر
طاح عله وتشتتوا ألواحه معمي الأبصار

وسار على هذه الوثيرة في أقسامها الخمسة وهي في قياس الباقي (22) بنواعير أربع.

ونحن لا نعلم كما قلت عن هذا الشاعر سوى ما ورد في هذه القصيدة من أنه تلميذ الكَعبوري المتقدم كما صرح به في الناعورة الرابعة حيث يقول :

الكَعبوري فصيح لفظ   شيخي نبينه هزام الطغيان

ومن ان اسمه كما يقول : محمد والكنوة الواضحة ابن الحسن ولقد سألت عنه كل المهتمين بالملحون خصوصا من اهل العدوتين الشيخ عثمان الزكي والشيخ حمان النجار وسيدي ادريس المباركي وغيرهم فلم أجد عندهم خبرا عنه.

وهذه القصيدة لم يجعل لها ناشرها اسما فأسميتها : «الجهاد» أخذا من قوله :

فرحنا وسعدنا في مدينة سلوان على الجهاد ما كان في مصر

في مدن الشرق وناس الجزائر تعطي الخبرا

ثم أن هذه القصيدة كانت متداولة في الجزائر لأن سونيك نقلها عن حفاظ من مدينة قسنطينة رحم الله صاحبها وأثابه.

☆ ☆ ☆

ومن الشعراء السلويين المشهورين محمد الشليح. قد حُفِظَت نحو العشر من قصائده وكان هجا بليغا وكانت صنعته بناء وولد أيام مولاي عبد الرحمن وعمر إلى أن أدرك أيام مولاي الحسن.

وما بلغني خبره من شعره ينحصر في الهجاء والتغزل وفي قصيدتين في الصلاة على النبي ﷺ وفي مدح دار الضمانة وقصيدة اجتماعية وهذه القصائد يبلغ عددها ثلاث عشرة قصيدة هي :

أولا في الهجاء :

1 ـ الداعي ولعلها في هجاء عبد الرحمن حمدوش لأنني لم أقف عليها.

2 ـ الذيب حربته :

يا راوي صغ تراجم أشعاري

على حكاية الذيب إلى ربيته في الرياض نصيبه غدار

3 ـ باقي تفهم والكلام مع الأخر كيف قالت رهونة :

قوم النفاق كَاع يغببوا في الهم

4 ـ صفّ الخياطة ـ في هجاء السي العربي معنينو وحربتها :

صفّ الخياطة ـ يا اللي جيت بين النفاط

طابع الرهاطة   سكّتك رجّعها للبوط

5 ـ شاهدت اليوم شي مضايع وحربتها :

شاهدت اليوم شي مضايع شاخوا بقصايد الذراري

لاطيبة لامساق غير المقت والبسالة

6 ـ الشينية ـ في هجاء الشيخ عبد الرحمن حمدوش ـ لم أقف عليها.

ثانيا : في التغزل :

1 ـ رحمة وحربتها :

الراحم يرحم   يا الريم انعمي بوصولك

واجي على الرضى يا الغزال رحمة

2 ـ طاموا لا أعرف عنها إلا أول حربتها :

انصروا السالبة عقلي طاموا

3 ـ عباسة ـ حربتها :

بادريا عباسي ☆ بكتابي لعند أحبابي نرمي الباس

وقل لعباسة مملوكم للريام بقى حبيس)

ولم أقف عليها

4 ـ عراض الزين ـ وتسمى خدوج. حربتها :

زوري رسمي يالالة واجى أكامل المحاسن عراض الزين والبها

ألغزالة خدوج

5 ـ شامة ـ وحربتها :

يا الحضرة انصروا تاج البها غزالي قامة العلم الوجيبة بدر التام

دوحة انسامي ☆ بالمحاسن صالت والزين لالة شامة

لم أقف عليها.

أما قصيدته الاجتماعية فتسمى العينية وحربتها :

قلت للمعلم وافق الصانع أعرف الزمان انقلب مابيدك ماتدير

ساعف غرض الصناع

ويظهر أنه وقعت منازعة بين أهل الحرف وتداخل المعلم البناء ليوفق بين المعلمين ومساعديهم الذين يطلق عليهم لفظ صانع وهو الذي يلي المعلم فنظم هذه القصيدة التي يؤسف لضياعها ولعلها توجد عند أحد أشياخ سلا.

وقد رويت عن الشيخ عثمان الزكي أن الشيخ الشليح من أهل الرباط وأن السلطان مولاي الحسن بن محمد أعطاه دار لسكناه بسلا إجازة له على قصيدته العينية مما يدل على أنه كان له دور مهم في قضية خصام الصناع

مع معلميهم. وانتقل إلى سلا إلى أن توفي بعد عمر مديد رحمه الله وفي آخر عمره انقطع إلى نظم الشعر ومع ذلك لم يبق من كلامه إلا النزر القليل.

ومن شعراء سلا أيام مولاي سليمان أحمد حمدوش وقد ذكر له الرواة الذين رويت عنهم ثلاث قصائد هي عيشة والرياض والساقي إلا أن مولاي المهدي العلوي وكان يقطن سلا وكان من كبار الخزانة ومن الأدباء المتضلعين في أدب الملحون رحمه الله وقد أخذت عنه الكثير وفي آخر عمره رجع إلى مراكش حيث توفي يقول أن هذه القصائد الثلاث لعبد الرحمن حمدوش وأن اسم أحمد حمدوش في الحقيقة ابن حمدوش. ويؤيده في هذا النظر الشيخ الكحيل وقد كان رحمه الله أيضا من كبار أشياخ القريحة ومن الحفاظة المتفننين وهو كذلك من جملة أساطين المعرفة بالملحون وقد رويت عنه أخبارا مفيدة في هذا الموضوع وأيام المؤتمر الأول للملحون الذي كنت نظمته بمراكش سنة 1970 تعرفت بأحد العارفين بشؤون الملحون فخالفها في نسبة عيشة لعبد الرحمن حمدوش وأكد أنها لأحمد ابن حمدوش. ولا يمكن الفصل في هذا الخلاف وعلى كل فإن قصيدة عيشة هذه من أحلى قصائد التغزل وهي موجودة في الكنانيش ويحفظها الأشياخ وحربتها :

اعلاش ولاش وفاش ما نجني ورد أعراشي
من ورد خدودك يا أم النواجل
الغزال عبوش - يامولاتي عيشة

وفي الرواية التي تنسبها لعبد الرحمن حمدوش لباش عوض اعلاش ويقال أن أحمد ابن حمدوش كان يتهاجى مع الشاعر الكبير ابن سليمان الفاسي.

أما سميه وبلديه عبد الرحمن حمدوش فقد كان أسعد حظا منه لأن كلامه بقي متداولا معروفا وقد كان معاصرا في شبابه له الا أنه تأخر إلى أواخر أيام مولاي الحسن إن لم يكن أدرك أيام مولاي عبد العزيز لأن أكثر شعراء الملحون لايذكرهم مؤرخونا إلا إذا كانت لهم صفة أخرى تؤهلهم لذلك حسب رأي مؤلفي التواريخ والطبقات كأن يكونوا من العلماء أو من الأولياء أو من رجال الدولة.

وقد أحصيت لعبد الرحمن حمدوش عشر قصائد على ما بلغ إليه علمي وهي مرتبة على حروف المعجم.

1 ـ الحاجّة ـ وحربتها :

جادت تاج الريام قد علمْ الصنهاجي　　صردية الغناج

مصباح المولوعات حاجة

2 ـ دامي الأطلال ـ وتسمى فضيلة وحربتها :

ولفى طال الحال　　وعليَّ أمير هواك ماعدل

زوري رسمي أ الصايلة

أ دامي الأطلال　　أزينة الاسم باشة الريام فضيلة

3 ـ الداعي ـ في هجاء الشيخ العربي الرحوي الفاسي يقول في حربتها :

أبرع في شياخة اللغة بالوزن القرعي

أ الداعي　　ما تقوى بعراض حلتي باشطارك البشيعة

تَبْعْتِ رَيَّ الفزوع

4 ـ الرياض المنسوب لأحمد ابن حمدوش كما قدمنا وحربته :

صنت رياضي وغمت فرحتي بين أدواح أشجاره

غير أنا والي هواتني الغزال أم كلثوم

وقد أرخها بحروف الجمل «فرج» أي 1288 أي أواخر دولة سيدي محمد بن عبد الرحمان.

5 ـ الكاس ـ وحربته :

طال فرحي بين أوناسي   على وصول مراسم تاسي

ولا زهو دون رضيع الكاس

6 ـ الليلة وحربتها :

قالت غزالي : كب الكاس أساقي بان الحال

يقظ الطبايجبالماية   زِيَانْتْ الليلة

7 ـ من تقر الباب ـ في هجاء الحاج ادريس الخنس وقد رد عليه بقصيدة عصماء هي قصر العنان ـ وحربة من تقر الباب ويقال من دق الباب :

من تقر الباب ما يليه غير جوابه   وغربه من جابه

من حرقته الضرسة جا الكلاب

8 ـ عيشة ـ وقد تقدمت حربتها في ترجمة أحمد ابن حمدوش الذي تنسب له.

9 ـ الساقي ـ وهي القصيدة الثانية التي تنسب لأحمد حمدوش وحربتها :

حرمتك رادف العراق : خمرنا وشمعنا باقي : أنا ياساقي

كبه لاترئ على العشيق

10 ـ سيد الملاح ـ وهي القصيدة الوحيدة التي هي في غير العشاقي من تغزل وهجو وهي في مدح النبي ﷺ وحربتها.

سيد الملاح : صلى الله على الماحي : محمد شافع البرية

وعلاج الروح   بصلاته الاسلام رابحة

وأصل عبد الرحمن حمدوش من الغرفة بتافلالت وكانت صنعته خراطا وكان يحفظ القرآن وأكثر كلامه كا رأينا في التغزل وبرع في الهجاء أيضا وكان يتهاجى بالخصوص مع شعراء فاس.

☆ ☆ ☆

ويأتي بعده الشاعر المشهور البري وهو لا يزيد في تسميته في قصائده على قوله مثلا في المصباحية وفي العروة الوثقى، قال البرى «نظمته التوشاح» : وسلام الله على الأشياخ من عند البرى صاحب المعاني في أشعار

ولكنه قال في صلوا على طه المدني :

نسبي نبينه من آل الرسول ما خفيت لجمع العرفان

فهو هكذا من آل البيت ولكن لايعرف إلا بالبري ـ وهو لاشك أكبر شعراء سلا القدماء وكان ينظم في أكثر فنون الشعر وبالخصوص في ما يسمى عندهم بالمدح ويقصدون به ما سوى الشعر الغنائي وذلك كالتوسل والحكم والوصايا. وكان البري يعيش أيام سيدي محمد بن عبد الرحمن ويذكر في قصائده أنه تلميذ النجار شيخ الأشياخ بفاس والذي أصله من مراكش وقد خرج على يده جمهور من شعراء الملحون يعترفون كلهم بفضله عليهم حتى أن أحدهم وهو الحاج عبد الفضيل المرنيسي لا تخلو قصيدة من كلامه من تنويه بشيخه حيث يقول دائما بعد اسمه تلميذ النجار وهذه التلمذة تدل على أنه أقام مدة بفاس وقد كان كثير الترحال فقد زار كل نواحي شمال المغرب كالقصر الكبير والعرائش وطنجة ومولاي عبد السلام بن مشيش وتازروت ووازان وتطوان.

وقد أحصيت له أربع عشرة قصيدة وهي مرتبة على حروف المعجم :

من بغى يرادف يقصد مولاة الرديف المصباحية
بالسرب البيضا هما أولاد مصباح

8 ـ صلوا وسلموا عن جيّد العرب ـ وحربتها :

صلوا وسلموا عن جيد العرب والعجم والديام
وجميع ما في الأنساب

9 ـ صليوا على طه المدني ـ ولها شهرة ذائعة حتى أن الأشياخ يسمون بها كل القصائد التي نظمت من بعدها في قياسها أو كما يقول أشياخ سلا «في قدها» ـ وحربتها :

صليوا على طه المداني　　سلطان الآخرة والدنيا
هو إيامنا تاج بني عدنان

10 ـ عيشة ـ وحربتها :

أمبروم السالفين عيشة الهلال الضاوي　　والضو من ضيها ضوى
عابوا قومان فيه وإلى عابه ما صابه

11 ـ العروة الوثقى ـ وهي تصلية حربتها :

صلى الله على من سرى ليل المعراج وفضله المولى واختاره
يتسمى بلقاسم وبعد بلقاسم زين الزين

12 ـ القلب ـ وهي قصيدة في الحكم وحربتها :

من كرهك يالقلب كرهه　　واشبيك أنت مسيده
من بالك غير حيده　　خليه على هواه لا تدخل لاسواق المعاندة

13 ـ الشعبة ويقال لها شعبة الراس ـ وهي أيضا في الحكم ـ وحربتها :

كل شعبة تتقلب غير شعبة الراس　　هاكذا سولني وتصبني مجرّب

1 ـ أبو نجلات ـ وحربتها :

ـ أبو نجلات نجلاتك جرحوني في ذاتي ذراعك درلي وساده ☆ واحنا يالالـة أخَوت.

2 ـ التوبة ـ وحربتها :

توبة طلبتها من عند التواب من عليه اتْكالي ورجاي

بدل يا مولاي سيّتي بالحَسَنة

3 ـ التوسل ـ وحربته :

يامن لا يسهى ولا ينام في ملكه وجّهنا للخير

واغفر لي يامولاي زلتي بنبيك الصادق الأمين مع آله

4 ـ الجلانية ـ وحربتها :

أزاير زور بالأقدام الأمير البغدادي مولاي البغدادي عبد القادر من ضيافة لالة خيرة.

5 ـ الحجّام ـ وحربتـه :

ما احتجت لولد صنعة واشمة ولا يتكشف عن بهاها حجّام

ولا يتكلف عن خزين كنزي حجام

6 ـ زهرة ـ وحربتها :

أدام الله الحسَن والبها والزين المكول والعيون النحارة

يا سلطانة الاريام لالة أبو سالف زهرا

7 ـ المصباحية ـ نظمها عند زيارته لضريح لالة منانة المصباحية مولاة العرائش وهي شريفة من أوليـاء أولاد مصبـاح الإدريسيين أهل تازورت ـ وذكر في هذه القصيدة جلة من الأولياء لذلك تسمى أيضا جمهور الأوليـاء وهي مشهورة محفوظة وتوجد في عدة كنـانيش وحربتها :

14 ـ الوصاية ـ الحربة :

ياراسي نوصيك بالزايد عنوة مابي

رويت خبرها عن شيخ اسمه أبو جمعة كان بالرباط ولم يعلق بفكره سوى فراش هذه الحربة والقطاعات عنه.

ولا ندري بالضبط تاريخ وفاة البرى رحمه الله وهو في هذا ككل شعراء الملحون كا قدمنا وكانت صنعته درازا وكثر من هؤلاء الأشياخ كانوا يحترفون هذه المهنة.

☆ ☆ ☆

والآن نتعرض لشاعر عمر عمرا طويلا بلغ خمسا ومائة سنة فعاصر سبعة من ملوك الدولية العلوية من محمد بن عبد الرحمن إلى محمد الخامس تغمدهم الله برحمته ونعرف بالضبط تاريخ ولادته وهو سنة 1260 هـ وتوفى سنة 1365 هـ واسمه الحاج ابراهيم الطبرابلسي ورغم بقائه إلى هذا العصر فلم يبلغني من خبر شعره سوى قصيدتين أولاهما الفصادة في السوسي المزلوك وحربتها :

ما أعظم يوم نواوا الخوضات للفصادة

وأولها :

جمهور من الريام انشالوا وعلى الزهو فى حين احتالوا

ولم أقف عليها وله ربيعة. ولا شك أن أشياخ سلا يعرفونه ولعلهم يحفظون شيئا من شعره أو عندهم كنانيش تحتوي عليه.

☆ ☆ ☆

وفي أيام مولاي الحسن الأول ظهر بسلا شعراء أذكر من بلغني خبر عنهم أولهم الحاج أحمد بن علي الدكالي السلوي وهو عم المؤرخ ابن علي الدكالي - بلغني من أخباره أنه كان عدلا بمرسى الرباط وتوفي في آخر أيام مولاي الحسن. وكان ينظم في العشاقي وكان الشيخ قدور البهلول السلاوي والحاج إبراهيم الطرابلسي يحفظان كلاماه ولم يبلغني سوى خبر تسع قصائد عندى منها ثلاث وهذه القصائد التسع هي :

1 - زينة اللبة - وحربتها :

يازينة اللبه حزت من الغزال الرقبة

ياتوقة البها الرقابة نسل القراهب زينك ورانا عجايب

واستولى بالاحكام على القلوب

2 - الكاس - وحربته :

ناوليني خمر الكاس واعتقْ ياساقي مهجتي بكل كْياس

على الصدر ترشبها تنكيس تحت عيون النرجيس

3 - المرسم - لا أعرف عنه إلا اسمه ولكن حقق لي الشيخ حمان النجار أنها لشيخه السي العربي معنينو وسنذكره في ترجمته

4 - نطلب ربنا يتلاءم جمعي ويروى طالب ربنا إلخ - وحربتها :

نطلب ربنا يتلاءم جمعي مع الحبيب إلى نهوى في مقام مرفوع.

وتنسب هذه القصيدة أيضا للشاعر الحبابي الفاسي.

5 - عويشة - لاحربة لها في النسخة التي وقعت عليها وأولها :

هب علي ريح الهوى وحرك غصني من النوم باس

ولا اسم لها كذلك فسميتها عويشة لقوله في آخرها

مولاة الدواح والمقايس الغزال عويشة بانت قدامى بارزة

ويدها تهدى لي الكاس

6 ـ الفجر ـ وحربته :

تيقظ يا نديم برد لي ناري		بالوصال من خناري

قم تغنم فرجه في عساكر الفجر		راه ارسل الافراق والخيم

7 ـ الساقي ـ وحربته :

صبها حمرة من بلارها عراق		وإلى سكران عالجه ياساقي

شي رحيق وشي منك ريق

ولما ينظم شعراء الملحون خمريات فاما أن يقصدوا بذلك الخمرة الإلهية كسيدي قدور العلمي وغيره من الصوفيّة والأولياء وإما ليظهروا براعتهم في هذا النوع من الشعر الغنائي ـ وقد عارض بها الساقي لسيدي التهامي المدغري وزاد فيها النواعير وقصيدة السي التهامي خالية منها :

8 ـ 9 ـ قصيدتان كان ذكرهما لي مولاي المهدي العلوي نزيل سلا رحمه الله وليستا من التي ذكرت وأسجل اسمها ولا شك أن أشياخ سلا عندهم من خبره ومن كلامه أكثر مما حصلت عليه.

وكان مولعا بالتزويق في شعره والاتيان بالجناسات المتنوعة ولكن بدون تصنُّع رحمه الله وأثابه.

☆ ☆ ☆

ومن شعراء هذه الحقبة السي العربي معنينو وكان في أول أمره نجارا ثم صار مؤذنا بضريح سيدي ابراهيم معنينو وتقدمت له دراسة في صغره لكنه انقطع عنها واشتغل بقرض الشعر وتخرج على يده بعض أشياخ الملحون من جملتهم الشيخ حمان النجار الذي أروى عنه أخباره. وفي آخر عمره صار مدررا بكتاب سيدي سعيد وهنا أيضا تخرج على يده عدة طلبة

وتوفي وهو مؤذن ومـذرر عن سن تنـاهـز الثانين سنـة 1348 هـ (1930) كما أرخ وفاته سيدي ادريس المبارك في قصيدة يرثيه فيها.

وكان تلميـذا للشيخ عبـد الرحمن حـمدوش وكان ينضم في سـائر فنـون شعر الملحون وقد بلغني من أخبار كلامه عشر قصائد ولا شـك كما قلت عن الشعراء الآخرين أن أشياخ وحفاظ سلا حـافظوا على شيء من كلامـه أمـا القصائد العشر المذكورة فهي :

1 ـ الحـاجـة ـ لا أعرف حربتهـا وهي في قيـاس الغـاليـة للسي التهـامي المدغري.

2 ـ خدوج الأولى ـ في قياس سيدي محمد للسي التهامي المدغري.

3 ـ خدوج الثانيـة ـ في السوسي المزلوكَ في قيـاس الزضـة للشيخ الجلالي مثرد.

4 ـ لالة الزهرا ـ وحربتها :

أ لالة الزهرا في الزين ماتشبهك زهرة وادواحك أ الريم زهاروا

كل غصن زاهر حسنك منعوت في المزاهر

زوريني يا أم الثبوث زهور

5 ـ زهور وحربتها :

ما درى يا الأيام واش تلاكيني بالخنار

مصباح المولوعات عارمي أبو سالف زهرا

من لا تنساها راية النصر أبو دواح زهور

6 ـ المرسم وحربتها جيتك يارسم الماجدين صبتك ساطع بالنور

نسالك على البدور فيدني بالله واين ساروا

7 ـ من عشقي في مديح النبي راغب وحربتها :

من عشقي في مديح النبي راغب

أسامعين قولي زيدوا في صلاة النبي والآل والاصحاب

8 ـ الفجر ـ أول حربته :

راح البهيم غدر يا ساقي

9 ـ فرحة نهاري ـ حربتها :

فرحة نهاري فرحة بوجود المختار من صال بالحسن والتبختيرة

ـ وتنسب للشيخ أبي بكر حركات.

10 ـ الساقي ـ وحربته :

قالوا جمع العشاق غدر المدام أساقي

وقظ ناس الحال بالعزم واسق من ابريق للعاشق والمعشوق

☆ ☆ ☆

ومن ذكروا كشعراء في الملحون المؤرخ الكبير أبو العباس أحمد الناصري صاحب كتاب الاستقصا ولكنني لم أقف على شيء من كلامه ويقال إنه كان رفيقا للشيخ الشليح رحمها الله.

☆ ☆ ☆

وكانت بسلا امرأة تسمى منانة حضرية وكانت تنظم في الذكر والمديح وتلقى إنتاجها في مجامع النساء ولكنني أيضا لم أقف على شيء من كلامها رحمها الله.

☆ ☆ ☆

ومن شعراء هذا العصر الشيخ أبو بكر حركات وتأخر إلىأيام مولاي يوسف وهو تلميذ اللشيخ عبد الرحمن حمدوش وكان ينسخ كلامه وتنسب له فرحة نهاري ويقال أنه لما نظم شيخه عبد الرحمن حمدوش الليلة نظم هو

فرحة نهاري وقال له إنني زوجت لك ليلتك بنهاري، ولكن حقق لي الشيخ عثمان الزكي أن فرحة نهاري هي للشيخ العربي معنينو.

ولم يبلغني عن إنتاجه سوى قصيدتين إحداهما المطموس نظمها في هجاء الشليح ردا على قصيدته الذيب وحربتها :

واش المطموس يشابه القارى   أُمن بغى يعارضني بالجبهة

مصنصلة ما باقي تقار.

والتاينة عنوانها حَجّبة ولا أعرف عنها شيئا.

وكان الشيخ أبو بكر حركات عدلا وانتقل في آخر عمره إلى الدار البيضاء حيث توفي رحمه الله.

☆ ☆ ☆

ومن شعراء الملحون بسلا أيام مولاي عبد العزيز الشيخ ابن عبود وكان من شيوخ الطريقة الدرقاوية وهو والد صديقنا الدكتور المهدي ابن عبود وهو ناظم القصيدة الجفرية اللامية المنسوبة للفقيه العميري المكناسي وقد حقق لي مولاي المهدي العلوي والشيخ العربي الزهروي المكناسي أنها لابن عبود وأن هذا الأخير هو الذي نسبها للفقيه العميري وذكر أنها جاءته من مكناس وذلك لأسباب سياسية وقد ذكرت في باب موضوعات الملحون من المعلة أن الشعراء، كانوا يتخذون وسيلة النظم في الجفريات وهي قصائد التنبؤ بالمستقبل لنقد الحكم ومحاولة إصلاح الأحوال الاجتماعية وحيث أن الفقيه العميري هو أشهر الناظمين في هذا الموضوع فإن الشيخ ابن عبود نسب قصيدته له ولم يبلغني سوى حربتها وكان نصها عند الشيخ

العربي الزهروي وتوفي رحمه الله قبل أن ينسخها لي وقد أخذت عنه عشرات القصائد وأما هذه الحربة فهي :

يا أهل الله عارى راني منزله   ارغبوا فينا شوفوا من ضيق الحالة
أسيدنا   يفك العزيز من راهم وحلوا

وذكر لي الشيخ العربي الزهروي أن مما يدل على أنها ليست للعميري أنه عادة نظمه لا يستعمل الشرح والرواح وهي طريقة في عروض الملحون ليس هنا محل شرحها وقد تكفلت بذلك في معلمة الملحون وابن عبود يستعمل الشرح.

ولم يبلغني شيء من كلامه رحمه الله.

☆ ☆ ☆

وهنا نصل إلى شاعر كبير من فحول شعراء الملحون وهو الشيخ محمد بن علي الدمناتي المسفيوي نسبة إلى أسفي نزيل سلا واعتبره من شعرائها لأنه قضى بها اكثر أيام عمره وبها نظم أكثر شعره الكثير.

وقد ولد بأسفي أيام مولاي الحسن الأول وبدأ يتعاطى نظم الشعر وهو لا يزال بالمسيد ثم سافر إلى الحجاز يقصد الحج ورجع إلى المغرب وحج مرة ثانية وذهب إلى أسطنبول واستخدم في الجيش التركي ولما رجع إلى المغرب احتمى بالدولة العثمانية لذلك لما قامت الحرب العالمية الأولى ألقى عليه القبض الفرنسيون وسجن بحبس عين مومن وبقي سجينا أربعة أعوام ولما أطلق سراحه جاء إلى مدينة سلا واستوطنها. وكان يلازم الشيخ ابراهيم الطرابلسي وبقي بها مشتغلا بنظم الشعر إلى أن لقي ربه بعد مرض

دخل من أجله مستشفى مولاي يوسف حيث توفي سنة 1353 هـ 1945م ودفن رحمه الله بشالة وكان عزبا لم يتزوج قط.

وهو من الشعراء المكثرين وقد أخبرني مولاي المهدي العلوي أن عدد قصائده يفوق الألف ولا شك أنه أكثر شعراء الملحون المغاربة إنتاجا.

وقد أحصيت له سبعا وثلاثين ومائة قصيدة عندي منها ثمان وثمانون وكان له حفاظان أي راويتان هما ابن عيسى الشنتوي الفاسي والشيخ محمد ابن غانم وكان يحفظ كلامه أيضا الشيخ أحمد العمري.

وكان الشيخ المسفيوي عيسوي الطريقة وينظم ذكرات في هذه الطريقة وكلامه محفوظ بفاس وبمكناس عند رجال الطريقة العيسوية.

وكان ينظم في كل الشؤون من عشاقي ومدح وامتاز شعره بقصائد في المخترعات العصرية من كهرباء وغاز وسيارات وغواصات وسفن حربية وغيرها وطرق كل مواضيع الملحون المعروفة فله قصائد في ترحيل الشمس وفي التصليات وفي التوسل والحراز وله خمس قصائد فيه والحجام وجمهور البنات والجفريات وفي أكثر أسماء النساء وفي الخلخال وفي الخلق أي مولد النبي ﷺ وفي اللطيف وفي الرحلات وفي المرسول وله خمس قصائد فيه وفي النشأة أي بدء الخلق وفي الفقيه وفي القاضي وفي الفرصان وفي الساقي وله فيه أربع قصائد وفي الغزوات أي الشعر الملحمي وفي الشمعة وفي شعبانة وغير هذه المواضيع مما لا يمكن أن أستعرضه في هذه المحاضرة إذ الشاعر المسفيوي يحتاج إلى دراسة خاصة وعندما يتنبه أساتذة الأدب بجامعاتنا إلى هذا التراث الأدبي يجد طلابهم فيه مرتعا خصبا لتحضير الأطروحات فيه.

فاكتفى بهذا القدر وفي معلمة الملحون تفاصيل عن هذا الإنتاج الضخم رحم الله صاحبه وأثابه.

☆ ☆ ☆

ومن هؤلاء الشعراء المتأخرين سيدي حمادي المكناسي وهو شريف إدريسي من أهل مكناس وسكن مدينة سلا حيث كان يكتب التائم وتوفي مسنا حوالي سنة 1936 وكان ينظم في العشاقي وفي المدح ونسب له مولاي المهدي العلوي القصيدة التي حربتها :

أنا هربت لك أرسول الله من عدياني   يبليس والهوى والدنيا
والنفس زلغوا بي جاروا مارتاوا علي

ووجدت نسبتها للولي الصالح سيدي الحاج محمد بن علال من أولياء مراكش.

وتنسب له قصيدة في قصة سيد فضلون. ولعل عند أشياخ سلا معلومات عنه أكثر من هذا.

☆ ☆ ☆

وحوالي سنة 1936 توفي أيضا شاعر عرفته بوقوفي على ديوان صغير له يحتوي على إحدى عشرة قصيدة كاملة وقسمين من أخرى وأول حراز. وقصائده باستثناء الحراز وقصيدة في الطوموبيل (ولم تكن لفظة السيارة معروفة إذاك) وقصيدة الباتول كلها في التشوق إلى النبي ﷺ، واسمه سيدي محمد بن الحاج العلوي وهو يتسمى في كل قصائده ويذكر أن الكنوة ابن الحاج ويفخر بنسبه الشريفة وينص على أنه في سلا بجسمه أما قلبه ففي المدينة المنورة وكثيرا ما يجعل زربا لقصائده.

أما قصائده في موضوع التشوق إلى النبي ﷺ، فإنها تعبر عن حرارة وشوق عميق إلى طيبة الطيبة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

وتاريخ وفاته أرويه عن سيدي إدريس المباركي رحمها الله.

☆ ☆ ☆

ومنهم أيضا الشريف سيدي الحاج المامون العلوي المكناسي نزيل سلا وقد ضاع كلامه وذكر لي سيدي إدريس المباركي أنه يوجد عند ولده سيدي محمد بن المامون وهو ينظم أيضا ولاكن لم يبلغني منه شيء وهكذا فإن الميدان فسيح لمن يريد أن يبحث وتوفي سيدي الحاج المامون رواية عن المباركي سنة 1926 رحمه الله.

ومنهم شاعر كان يعرف بدريهم واسمه محمد بن الهاشمي السلوي وأصله من دكالة وعرف بقصيدتين هزليتين هما الراديو والشانطة وله قصيدة الشطرنج.

وحربة الشانطة :

إلي بغى يسافر يمشي حتى لمانطة ☆ يحضي الشانطة ☆
بالك لا يكون مغفل ويصير له بحالي.

ومنهم الحاج أحمد الطرابلسي ولا أدري هل له علاقة مع الحاج إبراهيم الطرابلسي المتقدم الذكر. وهو من الشعراء المتأخرين وكان حيا سنة 1971 حيث كان مؤدنا بمسجد الحيحي بتابريكت عندما اطلعت على ثلاثة دواوين صغيرة له تحتوي على اثنتين وأربعين قصيدة عندي كلها. وهو أيضا من المكثرين وإن كان لم يبلغ درجة المسفيوي ولا سيدي إدريس المباركي

في كثرة النظم وشعره يمتاز بوطنياته فله في ذلك عدة قصائد منها «الخائن» في التشهير بالخونة ومنها «المقاومة» في جهاد الملك والشعب إلى أن نال المغرب استقلاله ومنها «الغيبة» في نفي بطل المغرب محمد الخامس تغمده الله برحمته مع عائلته الكريمة وله في شفائه قصيدتان «الراحة» و«الشفاء» وله قصيدة في عيد العرش وله الرحلة في زيارة محمد الخامس لأقاليم الشمال.

ونظم كذلك في العشاقي عدة قصائد وفي الصلاة على النبي ﷺ كذلك. وفي غير ذلك من المواضيع الحية.

ومنهم السي محمد بن الحاج الهركَوي نزيل سلا وأصله من مراكش توفي سنة 1946 رواية عن سيدي إدريس المباركي وأعرف له تصلية حربتها : يا رسول الله جد ياضي اللاحي في قياس احميدوا لابن سليمان الفاسي وكان يبيع الملابس القديمة رحمه الله.

☆ ☆ ☆

ومن المتأخرين أيضا الحاج حمان النجار وهو من المكثرين وقد تعرفت به ما بين سنة 1938 وسنة 1941 وأهدى لي ديوانه بخط يده وهو يحتوي على خمس وخمسين قصيدة وهو يكثر من استعمال المحسنات البديعية ومن تضمين الحرفين أي لزوم ما لا يلزم ومن القصائد الغير المنقوطة والقصائد المنشوبة وهو اصطلاح يطول شرحه ويقلد كبار الشعراء في المواضيع التي طرقوها وفي بحورهم وأسماء قصائدهم، فلا أطيل عليكم بذكرها ولكنني في معلمة الملحون أتيت بأسمائها وفاء له ولجهوده في هذا الفن الفريد رحمه الله وأثابه.

☆ ☆ ☆

ولسيدي إدريس المباركي آخر الشعراء السلويين القدماء وقد ولد سنة 1889م بسلا وحفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة وأخذ بعد ذلك من علماء المدوتين مثل سيدي عبد الله ابن خضراء الحاج محمد الصبيحي والجراري وكان حزابا في ضريح العربي الصالح القطب سيدي عبد الله بن حسون وكان والده إماما بهذا المسجد.

وتوفي يوم 19 مايه 1983م عن سن يتقارب المائة سنة ودفن رحمه الله بالزاوية المباركية بسلا.

وقد عرفته سنة 1976 وأطلعني على ديوانه وأخذت منه نسخة مصورة وهو يحتوي على تسع وأربعين ومائة قصيدة من أول اشتغاله بالنظم إلى سنة 1932م وفي أيام الحركة الوطنية نظم قصيدة في المقاومة يحث فيها المغاربة على مساندتها والتشبت براعيها الملك محمد الخامس رحمه الله وقد أطلعني عليها الشريف الأستاذ عبد المجيد الحسوني مطلعها :

ماا خلا كاس المنيا اعلى لوطان   كافحوا يا شبان اعلى وطانكم

أما كلامه فيدور حول كل مواضيع الملحون ويكثر من التصليات والدعوات وهو يرثي كل الأشياخ الراحلين وقد اقتبست من ذلك ما أشرت إليه في تراجمهم السابقة، ونظرا لكثرة كلامه فلا يمكن أن أذكر هنا تفاصيله واكتفى بالإشارة إلى بعض قصائده منها في العشاقي بحر الغرام والحراز والعرصة وهنو وملكة وله قصيدة على شاكلة كلام الشيخ المفيوي في نظم المخترعات الحديثة وعنوانها خصام الكهرباء والبرق وله غير ذلك رحمه.

ومن شعراء السلويين أيضا سيدي عبد الحميد العلوي وهو من المجيدين وقد توفي في السنين الأخيرة وله ديوان وقفت عليه يحتوي على إحدى وأربعين قصيدة وجلها في الصلاة على النبي ﷺ، وفي التشوق إلى قبره الكريم وله عدة قصائد في مدح بطل المغرب والاستقلال محمد الخامس رحمه الله ووارث سره الملك الحسن الثاني نصره الله وله في العشاق قصائد طريفة منها الغالية وغيتة والساقي والربيعية ولالة نجيبة واللحظ الصردي واستئناف الحب وحب الزين صعيب، وله قصيدة في نصح سواقي السيارات سماها وصاية، وقد شارك في المباراة التي كنت نظمتها بمناسبة عيد الأربعين لصاحب الجلالة الحسن الثاني ونال الجائزة الأولى رحمه الله.

أما الشعراء المعاصرون الأحياء أطال الله عمرهم فلي عودة إلى الكلام عليهم في مناسبة أخرى وعلى كل فقد ذكرتهم كغيرهم من شعراء الملحون المغاربة في معلمة الملحون التي أشرت إليها سابقا.

هذه محاولة لتسجيل ماضي هذه العاصمة الثقافية في ميدان الملحون تعرضت فيها لخمسة وعشرين شاعرا من أبنائها وأظن أنني لم أغفل أحدا وفوق كل ذي علم عليم ومن المولى تعالى نستمد العون والتوفيق.

الرباط — محمد الفاسي

من المعربات في القرآن

محمد ابن تاويت

نريد بالمعربات، الكلمات الغير عربية، التي دخلت اللغة العربية، وخضعت لقوانينها، غالبا، فهي أخص من الدخيل الذي يقتحم العربية، ويظل غريبا فيها، هجينا دخيلا أجنبيا عليها.

ونقول «غالبا» لأنه من غير الغالب، قد يبقى على سمة فيه، لاتتفق مع السمات العامة، التي يعترف بها التصريف، أو الاشتقاق المألوف لهذه العربية.

ومن القوالب التي تخضع لها المعربات، التصغير، الذي نجده في نحو «عزير» الواقع في القرآن، ونحو «جريج» الذي عرفته العربية، في المرحلة الأولية بالإسلام.

ومن الغريب أن نجد في غير العربية، هذا التبني للكلمات الأجنبية، بعد إخضاعها للتصغير، ففي الاسبانية نجد كلمة Male الفرنسية، وكان في

الإمكان، أن تصير هذه Mala إسبانية، بدون تصغير[1] ولكن الكلمة Mala تستنكف، في هذا الإلحاق، لأن معناها في الإسبانية، قبيحة أو سقيمة، ومن الغريب كذلك، أن هذه اللغة لما تبنت الكلمة مصغرة، واحتاجت إلى تصغيرها، ظانة أنها غير مصغرة بالفعل، صغرتها هكذا Maleten.

كما أن كلمة Carpeta ماهي إلا تصغير لكلمة Cartable الموجودة في الفرنسية كتلك، فحذفت بعض حروفها لما صغرت، والكلمة في أصلها يونانية، كذلك صغرت في الإيطالية Cartella، والغالب أنها معا أخذتا الكلمة من الفرنسية، وهذا ما يقع في بعض الكلمات بالعربية، عند تصغيرها، ومنه المسمى بترخيم التصغير.

وإلى جانب التصغير، يقع التعريب، بأداة التعريف، كما نجد في كلمة «المسيح»، بل نجد ذلك بمجرد التحويل بها مثلا، كلمة «ألكسندر» تحولت إلى «الاسكندر» بتقديم السين على الكاف، وباعتبار «ال» للتعريف، داخلة على «سكندر» فجاء هذا مجردا منها في الفارسية، التي لا تعرف هذه الأداة[2].

وقد عرفت المعركة التي انتصر فيها الإسلام على المسيحية، أيام الموحدين، بمعركة الأرك، تعريبا لكلمة «ألاركوس» أي الأقواس سوى هذا، فإن الجمع على صيغة معروفة بالعربية، يصير الكلمة الأجنبية عربية، مثل «كنوز» وقناطيره وقد تضاف إليها الأداة، كما في القرآن، ولكن التعريب

1) كما نجد نحوها في البرتغالية.

2) والأصل اليوناني «ألِكْسَنْدَرُوسْ».

حصل بدونها، وهو صيغة الجمع العربية، كما في «كنوز»، وقوله : «وآتيناه من الكنوز ومن الجموع»، قوله :

«وشروه بثمن بخس دراهم»

أما الاشتقاق منها، فهو عملية عربية صرف، لا دخل لغيرها فيها، إلا من حيث المادة الأولى المشتق منها، كما في القرآن كذلك **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة﴾** فقد اشتق اسم المفعول بعد الجموع، من كلمة «كنطال» اللاتينية، نسبة إلى «كنط» أي المائة، وتحولت اللام إلى راء، كما في «الخير» الواردة، في سورة العاديات، وكما هو مطرد بالبرتغالية.

وفي القرآن كذلك **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾**. ومنه **﴿وإذا قيل انشزوا فانشجزوا﴾**. وكذلك «نُشوزَهُنَّ» ومن «نُنْشِزُها» للارتفاع المراعي فيه لزوما؛ كما قال الراغب، مشتقا من «ناسازاه».

ومن وسائل التعريب، إضافة الكلمة غير العربية، إلى العربية، كما في قوله : **﴿ويستخرجا كنزهما﴾** وتقدم أن هذا عومل كأنه عربي، وفي قوله : **﴿لولا أنزل عليه كنز﴾** وقوله : **﴿أو يلقى إليه كنز﴾**.

وقد عاملت العربية قنطار وكنز ودينار ودرهم، معاملة العربية أصلا، كما في قوله : **﴿ومن أهل الكتاب من أن تامَنه بقنطار يوده إليك﴾** ومنه **﴿وآتيتم إحداهن قنطارا﴾**.

وهكذا نجد العربية عرف فيه المُعَرَّبَ، كما عرف الدخيل، وأذْعَن لهذا النحو والتصريف، خصوصا في الممنوع من الصرف، فكان هذا الاستعمال لا يخرج عن العربية، ما تضمنته هذه، والمسألة في غير البساطة، فاستعمال كلمات أجنبية، معاصرة، في نص من النصوص العربية، لا يخرجه عنها، تدخلت فيه هذه العربية أم لم تتدخل، خصوصا في الأسماء، وأخص منه الاعلام فيها.

إنما الشيء الوحيد، الذي لم تقبله العربية على علاته، ويجب أن لا تقبل، هي الحروف نفسها التي لاعهد للعربية بها، مثل الزاي الفارسية التي تنطق بثلاث نقط، فقد تحولت هذه إلى زاي، كما أن الكاف الفارسية كذلك، تحول إلى كاف أو إلى قاف. وكذلك الجيم الفارسية تحولت إلى صاد، غالبا؛ كما أن كلمات «صين» و«صبخ» و«صك»، أو إلى سين؛ كما في كلمة «سراج»...

وهكذا يجب أن تعامل هذه الحروف ومثلها، مما يوجد في اللغات العربية، معاملة عربية في النطق والكتابة، وهي ما تستعمله اللغات الأوربية نفسها، بعضها مع بعض، أو مع غيرها، فكلمة «أويل» الانجليزية، تنطق «وال» في الفرنسية، وكلمة «بنج أب» تنطق في الاسپانية «بنخاب» كما أن الحروف W, V, F, J, Z, G, C, المفردة يختلف بعضها عن بعض في النطق، الإسباني والإيطالي والألماني والإنجليزي والفرنسي، (زيادة عن الحركات المختلفة مثل A, E, I, U) أو المركبة، مثل CH, SH, SCH. أما الروسية التي قلبت بعض الحروف عن وضعها المتعارف في غيرها، كما تحررت في نطق بعضها، فمعروف عنها.

لقد أطلنا في هذا التنظير، وان لم نوفه حق قدره، وربما اعتبر خروجا عن الموضوع، ولكنه على كل حال يزيده توضيحا وتمحيصا وعلى كل فالأصل في كلمة المعرّب، أن الكلمة، استعملت في العربية، بعدما كانت مستعملة في لغة أُخرى، فتقبلتها اللغة العربية، كما تقبلت الأُمة العربية، من يهاجر إليها، من الشعوب، فيساكنها، ويلبس لباسها، ويتقلد تقاليدها، ويأكل أكلها ويشرب شرابها، وان احتفظ بالنسب الأول، احتفاظ العرب بأنسابها، فإن أحفاده مع السنين، ربما تخلوا عن هذا النسب، أو نسوه بالمرة وكذلك يقال في الكلمة التي تدخل إلى العربية، فإنها تساكنها وتصاغ حسب صياغتها، أو قريبا منها، ومع السنين تصبح عربية وربما تنجب، بعدما كانت عقيما في بيئتها الأُولى، فيعتقد الناس أنها أصيلة في هذه البيئة الثانية، كما سنجد لذلك أمثلة...

فاللغة كائن حي نشيط، ولا أمة على الأرض، يمكن أن نحكم بخلوصها، من شائبة الاختلاط بغيرها، وكذلك اللغة، لا يمكن أن نحكم بخلوها من غيرها، تماما أو غير تمام، انما الفصائل اللغوية يحكم على أُصولها المختلفة، بحسب الكثرة، وبحسب التصريف والإعراب وغيره، وحتى في هذه يحتاط، لأن اللغة قد تتدخل في شؤون غيرها وفي تصرفها الخاص، كما حصل للعربية في الفارسية مثلا، بعيدا كان ذلك أم قريبا، بالجوار أو بالانتقال، سجل التاريخ هذا أم لم يسجله، بالغزو أو التجارة أو الهجرة الجماعية وغيرها.

ولا أفهم مطلقا وجه النظر، عند من ينفي وجود المعرب في القرآن، كالشافعي وأضرابه من الفقهاء ونحوهم، خصوصا أصحاب الأُصول الملتزمين

المتحكمين، بلا هوادة فيا وضعوه للناس، وأخذوهم به، أخذ عزيز مقتدر، وكل ما هنالك أن بعض كلمات عاشت في العربية واندمجت فيها، منذ عهد سحيق، فاعتقدت عربيتها الأولى، وأن أخرى جديدة، ما زالت تعيش بغيرها من اللغات أمهاتها، أو أخواتها، فقال العارف المعن أو البسيط، بتعرب هذه، وبأصل تلك فيها، ولا شك أن مثل الشافعي قال بعدم المعرب بالقرآن، قاصدا بذلك أخذ القرآن له وانتزاعه من بيئته مباشرة، دون سبق وجوده في العربية، من ذي قبل، فإن كان ذلك كذلك، فالحق جله أو بعضه معه، باستثناء الأعلام، استعملها القرآن اثر استعمالها في الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل، وهذان من ذلك القبيل ولا وجود لأية معارضة بين وجود المعربات في القرآن، وقد استعملتها العربية قبله، وبين كونه بلسان عربية مبين، فهذه أصبحت في حكم العربي المبين.

كما أن كلمات توجد بالعربية وجودها في غير العربية، فيقال : إنها معربة، لا لشيء إلا لكون، غيرها أقدم منها زمنا، وأخرى أحدث تاريخا. فهذه الأقدمية، قد يقول بها العلم الآن، مؤيدا بالاكتشاف الأخير، ولكن الكلمة حتى الآن، ليست نهائية؛ فكم من اكتشاف اعترف بقدم محصوله، وسرعان ماتلاه آخر، أبطل ما كان مسلما به، بناء على اعتبار كونه أخير.

مثلا، قالوا : إن كلمة «موتان» أصلها آرامي، كما قرر ذلك الأستاذ الضليع، الدكتور فؤاد حسنين، فهو فيها «موتنا» الوباء وبذلك يكون الموت أصله آرامي...

وقد سايرت هذه الكلمة، فوجدتها، في عدة لغات، غير الأصل السامي منها؛ فهي الفارسية، من (مردن ـ مير) وهي كذلك بالراء في

اللاتينية وما اشتق منها وهكذا فإن الكلمة Mort تعني الموت، كا تعني الميت أحيانا، والواقع أنها كانت تعني هذا الأخير، أول الأمر، ثم تطورت حسب الرقي فصارت، تعني الموت، تجردا إلى المصدرية أو الاسم، الذي انتقل من الصفة إلى الاسمية هذه فكلمة MORT أسبق من المصدر Morir؛ (وسنعود إلى الكلمة) هذا هو الذي تقتضيه طبيعة النشؤ والارتقاء، في اللغة، التي ترتبط بصاحبها، حسب المراحل للنشئة والمنطق وهذا ما يعاكس، الصرفيين، في قواعدهم التي ادعوها، فجعلوا المصدر، المنبع الأول للاشتقاق، ولهذا سموه مصدرا، وهذه متأخرة في المراحل التي اجتازتها قافلة اللغة، أو مسيرتها، عبر الأزمان الساحقة، التي واكبت الإنسان، منذ السكن في الكهوف والمغارات.

فكلمة «Muerto» الإسبانية، وكلمة «Morto» الإيطالية، وكلمة «mort» الفرنسية، السالفة، هي السابقة على غيرها، مصدرا مجردا من صاحبه، ومن زمنه، والقتل غير الموت، كا في الإنجليزية، والإسبانية مثلا.

وهذا الفصل بينهما، لم يكن ماثلا في المبدأ الأول للغة، أو في مراحلها الأولى مثل : كلمة موتان، التي تعني الطاعون، كان المعتبر فيها القتل، لهذا سميت بعد بالطاعون، من الطعن، وكثيرا ما سمعنا عن «الموت» الذي حدث في المغرب، وفي الشمال خاصة، وعاصره الجيل الذي سبقنا مباشرة، حيث كانوا يعتقدون في تطوان مثلا، أن أرواحا خفية، شيطانية أو جنية أو غيرها، كانت تطعن الناس، وتستل أرواحهم وسمعت أن سيدة طعنت فعلا منهم، ولكن الشخصين، الموكل بها الطعن، اختلفا في هذا، فطعنها أحدهما، ولم يطعن الآخر، وسالت منها الدماء، التي جرت من الطابق العلوي إلى

الطابق السفلي، وكانت المطعونة، رحمها تجد راحة في إراقة دمها، وعاشت فيما بعد، حتى توفيت في الأربعينيات، من هذا القرن الميلادي.
وسمعت حكاية، من سيد أقدسه، لصدقه في الجد والهزل، مفادها أن الولي ابن عجيبة، أراد أن يصحب معه، في فراره من طاعون تطوان ابنه، ولكن الأم لم توافقه، فتركه معها، قائلا : عظم الله أجرك فيه، فما ابتعد من تطوان، حتى سمعت جلبة، نصح ابن عجيبة، أصحابه بتنكب الطريق، وإذا به يلبب بشخص الطاعن، قائلا له : أنت عدوي، فلما وصلت الحلة لتطوان، كان الإبن ضحيتها.

والأصل في حدوث الموت بين البشر، كان القتل، كما في قصة ابني آدم «قابيل وهابيل» التي قصت بالقرآن الكريم ﴿**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر... فسولت له نفسه قتل أخيه فقتله...**﴾ إلخ.

ومع هذا كله، فلم لا تكون كلمة موت، عربية، ؟

نعم؛ قد يكون للاشتقاق، دخل في استبعادها، فالمتصف بالموت، مائت، كقائم، وميّت، كأنه في أصله، مصدر مات يميت[3]، ثم استعمل وصفا، كما حصل لكلمة موت في الفرنسية، مثلا، فصارت تطلق على الموت وعلى الميت. أما الإسبانية، ففرقت بينهما بالحركة الأخيرة، التي لا وجود لها بالفرنسية، مطلاقا، فجعلت الإسبانية، الموت Morir، والميت Muerte كما سيأتي وأقدم نقش عثر عليه في العربية يرجع إلى القرن الثالث، ورد فيه ذكر «هلك» بدل مات وهو المعروف بنقش نمارة، بشرق جبل الدروز.

---

3) مما يستأنس به في عدم التفرقة بينهما الاستعمال المصري لموت يموت.

ومهما يكن فإننا لو تتبعنا رواج الكلمات، التي أصلها غير عربي. في «القرآن» لوجدناها تفوق ألف كلمة بإدخال الأعلام في هذا العدد، حيث إنه في كل حزب من أحزاب القرآن، تتردد المعربات، بما يفوق المتوسط في ذلك، عشرين مرة؛ بداية من فاتحة الكتاب، التي نجد فيها كلمة الله السريانية الأصل، وكلمة «الصراط» اليونانية التي ذكرت مرتين، بالتعريف بال، ثم بالإضافة أما الله فأصله «إلاها» السريانية وحذفت ألفه الأخيرة وأدخلت أل عليه[4] وأما «صراط» فهي التي في اللاتينية «Strata» من اليونانية والتي انتقلت إلى الإنجليزية «Street» وإلى الألمانية «Strasse» والسين هذه الأخيرة في الكلمة الألمانية، لا تخالف الطاء الموجودة في الإنجليزية بعد اللاتينية والعربية. كا هو الحال في كلمة الماء بها وبالأنجلزية وقد عرفت في القواميس الإنجليزية بأنها، طريق في القرية أو المدينة، على جانب منه، أو على كلا الجانبين بيوت أو دور، فهو المحج أو الشارع الآن.

وقد تردد ذكره في القرآن، موصوفا بالاستقامة ومرضافا إلى الله وإلى غيره مما يحمد، إلا في قوله : ﴿صراط الجحيم﴾ استعارة تهكية ربما.

تطوان　　　　　　　　　　　　　　　　**محمد ابن تاويت**

---

4) نجد هذا في شرح المرشد لابن كيران عن البلخي.

الطب الإسلامي والعلم الحديث

عبد العزيز ابن عبد الله

إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وبين الطب كعلم يبرره اهتمام الإسلام خاصة بهذا اللون من المعرفة الإنسانية ذات التطبيقات العلمية التي تتلاءم مع ما جاء به الإسلام من توجيهات وتخطيطات في الحقل الحضاري وخاصة الاجتماعي. وهذا هو ما فسح المجال لرجالات العلم من متكلمين وأصوليين ومحدثين للاسهام في هذا المجال الذي يعتبره البعض خاصا. موغلا في التخصص في حين أن الإسلام يعتبره أشد علاقة من كل المؤثرات الاجتماعية لأنه يكيف المجتمع ويسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة إلى علماء الدين بل أن المنهج الرئيس الذي سار عليه الإسلام وطبع تعاليمه بكثير من اليسر والمرونة هو المبدأ القائل بأن «حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان». ولهذا نجد الكثير ممن تخصص في العلوم الدينية عززها بالمشاركةفي الطب وما يتصل به من نفسانيات وصيدلانيات وإن تاريخ الفكر الإسلامي ليحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة

المعرفة الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح الذين يشكلان الشقين المتناسقين في الهيكل البشري والعاملين الأساسيين في ضمان ذلك الكيان المتلاحم الكفيل بحفظ النوع في مثالية مزدوجة اعتبرها الإسلام القوام الأول في تعاليه الإنسانية التي فرضت بذلك صلاحيتها لكل عصر ومصر وكل زمان ومكان.

إن الإسلام قد عني بمفهوم الإنسان وأهدافه وأبعاده في خضم الحياة ومصايرها المستقبلية دون أن يغفل ذلك الشق الآخر الذي يتصل بمآله الأبدي وكل ما يحقق هذين الهدفين يتدرج في تعاليم الإسلام التي جاءت مجملة دعما لمرونتها وانطباقها على حاجات العصر ومقتضيات التطور.

ومنطقية ما يأمر به الإسلام أو ينهى عنه تحقق بإمكان إخضاع كل هذه المأمورات أو المنهيات لتجربة علمية برهنت مع الزمان على مثاليتها، فقد بدأنا نلمس فعلا صحة ما كنا نؤمن به غيبا حول ما ورد من تعاليم حول نظام التغذية في الإسلام والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات والمخدرات مع العمل الموازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة الأمراض العصبية التي دلت الإحصائيات على أنها تمثل أكثر من تسعة أعشار الإصابات البشرية.

ولا يمكن التعرف على فعالية وجدوى هذه التعليم إلا في نطاق منهج استقرائي يحلل تطور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يكتمل وينمو ويترعرع ثم يهرم وينهار مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث وكل ذلك يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها وقد يتجلى جانب من ذلك في تحليلنا العلمي الدقيق لمحتويات القرآن

والحديث في نطاق نقد لغوي دقيق ودون ضغط على المفهوم القرآني إخضاعا له للمدلولات العلمية التي تؤكد التجارب المتوالية ضعف الكثير منها.

فإذا درسنا علوم الطب من خلال تعاليم الإسلام فإنما ندرس معطيات عارضة جاءت عفوا في مضامين قرآنية أو حديثية، وفي ثنايا ما يعلق بالإنسان أو يطرأ على سلوكه أو يكيف مجرى حياته ككائن حي متطور.

ويمكن أن نضيف إلى هذه العطاءات القرآنية والحديثية معطيات تجددت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام.

وسنضرب للنوعين أمثلة حية لنتعرف على مدى إمكان ملء مجال واسع من مناهج كليات الطب الإسلامية بتلك العطاءات وهذه المعطيات ولعل الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوربا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار CLAUDE BERNARD الذي وضع أسس منهجية الطب التجريبي في العصور الحديثة مع أن الفكر الديني الذي دعم تسلسل السند في الحديث من خلال شروط دقيقة سار عليها المحدثون أمثال الإمام البخاري ـ هو الذي فسح المجال للملاحظة والتجربة في مختلف العلوم وخاصة الطب إلى حد أن هنالك مثلا جاريا في العالم العربي منذ حقب يقول : «سل المجرب قبل أن تسأل الطبيب» اللهم إلا إذا كان الطبيب هو نفسه مجربا.

وقد لاحظ الدكتور (موريس بوكاي)[1] ان العلم اتسم لأول مرة بطابع دولي في الجامعات الإسلامية في العصور الوسطى حيث كان العلماء

1) في كتابه «التوراة والقرآن والعلم» (الطبعة الفرنسية ص 119).

أكثر تشبعا بالروح الدينية منهم في عصرنا ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا في المجتمع الإسلامي مومنين وعلماء في آن واحد ذلك أن العلم والدين توأمان.

وقد لاحظ ابن القيم الجوزية في (الطب النبوي) أن المرض نوعان مرض الأرواح ومرض الأشباح أي الأجسام وكلاهما منصوص في القرآن وتنقسم أمراض الروح إلى نوعين : مرض الشك والريبة ومرض النزوات والشهوات.

قال تعالى : **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾.**

وقال : **﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون﴾.**

وقال : **﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾.**

والرسول ﷺ تعد أحاديثه المتعلقة بالأدواء والأدوية بثلاثمائة وقد ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ستة مؤلفات في الطب النبوي وكتب عنه كثير من الأوربيين مثل كانبي وريسك وبيرون ولنور الدين أبي الحسن علي ابن الجزار المصري (السر المصطفوي في الطب النبوي) ولجلال الدين أبي سليمان داود كتاب في الطب النبوي[2] كذلك وقد ترجمه م. بيرون إلى الفرنسية وهو ينقل عن ابن البيطار وتوجد رسالتان في الطب النبوي لمؤلفين مجهولين حلل إحداهما ريسك في «رسائله الطبية»

2) للسيوطي كذلك مصنف في الطب النبوي.

والثانية كانبي في «حياة محمد» وقد أعطت هذه الرسالة لكانبي هذا فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام[3] (لوكلير ج 2 ص 315).

كما لأحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى عام 651 هـ / 1253م.

(الشفا في الطب عن المصطفى).

(الديباج ص 74 / بروكلمان ج 1 ص 495 وملحقه ج 1 ص 904.

وقد كان من المقرر في حضارة العرب أنه لا تستوطن إلا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عدل وسوق قائم (زهرة الآس ص 24) واكتسى علم الطب في مختلف العصور الإسلامية أهمية كبرى جعلت منه فرضا كفائيا وقد ذكر ابن فرحون في الديباج «أن محمدا المازري كان يفزع إليه في الفتوى في الطب في بلده كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه ويحكي أن سبب قراءته الطب ونظره فيه أنه مرض فكان يطبه يهودي فقال له اليهودي يوما يا سيدي مثلي يطب مثلكم وأي قربة أجدها أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين فمن حينئذ نظر في الطب»[4](ص 253).

---

3) قال عليه السلام كما في مسلم (ج 7 ص 27) طبعة محمد علي صبيح) إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه وإذا كان بأرض فلا تدخلوها وعلل بعضهم ذلك بعدم نقل جرثومة الطاعون إلى الأرض الخالية منه.

أما قوله ﷺ (مسلم ص 30) : لاعدوى ولا طيرة الخ... فيقابلها قوله عليه السلام : «فر من المجذوم فرارك من الأسد» وورد في (مسلم ص 31) أن أبا هريرة كان يحدث عن رسول ﷺ قوله لايورد ممرض على مصح وكان يحدث كلتيهما ثم صمت عن قوله لا عدوى وأقام على أن لا يورد ممرض على مصح قال أبو سلمة لا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر.

4) كان الشافعي يقول : «لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا وكان يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول : «ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى» وكان يقول : «شيآن أغفلهما الناس : العربية والطب» (آداب الشافعي ومناقبه) 321.

وقد كلفت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات في الأمانة العامة بوضع كتاب عن مصادر تاريخ الطب المخطوطة وقد انتهى الدكتور المنجد من عمله وجمع ألف مخطوط عربي يبحث في الطب في مختلف أقسامه وفي مختلف العصور العربية[5].

إن قدسية الأحاديث النبوية حدت علماء الإسلام إلى ضبط المنهجية العلمية في البحث والتنقيب حتى لا تقع في الخطأ وانصبت هذه القدسية على الحقيقة العلمية حيث كانت وكيفما كانت ولعل الشروط التي وضعها المحدثون لذلك قد سبقوا بها ما وضعه العالم الفرنسي (ديكارت) بعد عدة قرون في قواعده الأربع[6] وقد تبلور هذا التمازج خاصة في المشاركة بين علمي الأصول الحديثية والفقهية والكلامية من جهة وعلوم الطب والصيدلة من ناحية أخرى.

وتتبلور أسس الأدواء حسب الفكر الإسلامي في ثلاثة محاور هي حفظ الصحة والحمية وتنحية المواد الضارة من الجسم.

وهي كلها في قوله تعالى :

---

5) راجع مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الخامس ج 2 ـ نونبر 1959).

6) (في كتابه : خطاب حول المنهجية ـ القسم الثاني).

وهي عدم الارتجال والاستعجال والارتكاز على الظن وتجزئه المصاعب لدراسة كل واحد على حدة والانتقال ـ في مسار تعني رصين ـ من الأبسط والأسهل للتدرج إلى المعقد ثم الأكثر تعقيدا.

وكذلك المحدثون يحللون الأحاديث حسب مراتب الرجال للتعرف بكيفية منفصلة عن بعض صفات الرواة ثم التأكيد من معاصرة هؤلاء الرواة لتصحيح الحديث.

1) ﴿**فمن كان منكم مريضـا أو على سفر فعـدة من أيـام أخر**﴾ (معناها الدعوة إلى الحفاظ على الصحة والطاقة).

2) ﴿**فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾ (وفيه دعوة إلى تطهير الجسم مما يتعلق به من جراثيم وذلك بحلق الشعر خلال الاحرام للمريض وبذلك تتفتح مسام الجلد وتخرج الخبائث من الجسم).

3) ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جـاء أحـد منكم من الغائط أولا مستم النسـاء فلم تجدوا مـاء فتيمموا صعيـدا طيبـا**﴾ (العدول عن الماء إلى التراب لتلافي كل ضرر يحصل للجسم).

كل ذلك يبرز تفاعل العنصر الديني وعنصر العلاج الطبي.

وقـد عني الإسـلام بحفـظ الصحـة (Rygiène) فحض على الطهـارة (وثيابك فطهر) والغسل والوضوء والاستنجاء والاستبراء والسواك بدل غسل الأسنان ببول البقر في أوربا[7 - 8 - 9] ولوازم الفطرة (وهي غسل ما برز في الجسم لحمايته كالأظافر وشعر الابط والأنف والعـانـة والختـان (الخ) وذلـك بالإضافة إلى تطهير الثياب (وثيابك فطهر الآيـة) كل ذلـك تمهيـدا لتصفية الفكر وتطهير العقل من الوساوس والهواجس المثيرة للأعصاب.

---

7) راجع الكتب الآتية :

8) (تاريخ الطب) ـ لافاستيني.

9) موجز الإسلام والطب للشطي الذي ذكر أن لوران جوبير طبيب ملك فرنسا هنري الثالث كان يفتخر باستعمال البول لتحسين حالة الأسنان.

9) الإسلام والثقافة الطبية للدكتور أمل العلمي (أطروحة)

وهكذا اهتم الإسلام بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح معا كما دعا إلى الالتجاء إلى الله تعوذا من الخوف والقلق واليأس مع الابتعاد عن الخمور والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب هذا القلق[10]. وقد أبرز الأستاذ ارنيست إذ ولف الطبيب الجراح في جامعة سان جوهن الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبي الحقيقي[11].

وبخصوص الصيام أبرز الدكتور ماك مادان وهو من أمهر الأطباء الأمريكان في كتاب أفرده للصيام ـ النتائج الباهرة التي يسفر عنها الصيام وأثره الحاسم على الأمراض المستعصية مؤكدا أن كل إنسان في حاجة إلى الصوم حتى ولو لم يكن مريضا لأن السميات (أو الذيفانات) الغذائية والعلاجية تتراكم في الجسم مسببة التوعك مع تثاقل وتناقص في النشاط فإذا تم الصيام خف وزن الصائم وانحسرت الذيفانات عن جسمه فتصفى ويتنقى كليا مع انبثاق شعور لديه بعد مرور أيام على صومه بحيوية وقوة لم يعهدهما من قبل فالصوم يعالج كل أمراض المعدة والأدوار الدموية وأوعية الدم كالرثية (الروماتيزم). وهذا مصداق قوله عليه السلام «صوموا تصحوا».

فالكشف عن الداء ووصف الدواء من أسس الشعائر الدينية في الدين الحنيف.

فالإسلام اعتبر أن لكل داء دواء وأن المريض يجب أن يبحث لمرضه عن علاج وإلا عوقب بسبب إلقاء نفسه إلى التهلكة كما يجب أن لا ينساق

---

10) أشار الدكتور أمل العلمي إلى شهادات الأستاذ تورنير حول الإسلام والطب.

11) حيث أوضح أن ■ ٪ من الأمراض المحصاة في المدن الأمريكية ترجع لأسباب نفسانية ونصف هذه النسبة من الأمراض غير عضوية.

مع المفهوم المخطئ للقضاء والقدر لأن محاولة العلاج أيضا داخلة في مفهوم القدر.

وفي الوقت الذي اعتبر الإسلام المتطبب ضامنا إذا غلط في نوعية العلاج فإنه سهل ماموريته بإباحة ما لا يباح لغيره كالنظر إلى الأعضاء المحرمة من جسمه إذا اقتضى الحال.

على أن الإسلام قد حلل أصول الخليقة في آيات وأحاديث برهن تطور العلم في العصور الحديثة على عمق تحليلاتها والله قد خلق الإنسان من صلصال من ماء مسنون أو صلصال كالفخار أو من سلالة من طين أي خلاصة من مركبات جيرية على إثر تفاعلات فيزيائية كيماوية أحيائية في مزيج مائي أدت إلى تكوين عضوي لزب متلائم الأجزاء على غرار الفخار المتماسك.

وقد تأيد هذا الوضع[12] بأدلة علمية منها :

1) توافر العناصر الكيماوية الموجودة في الطين جزئيا داخل الجسم البشري وهذه «الجزئية» مضمنة في كلمة سلالة وقد تأكد من جهة أخرى في تجارب حديثة قام بها الكيماوي جيمس لاولس تشهد بأن «الحياة نشأت في الطين» وهذا يجف فتتولد عنه جزيئات تتكون منها نويات يجب أن تقارن مع ما وصفه القرآن باللزوب أو الصلصال ومعنى ذلك أن التجفف يسبق تكوين الجزئيات ما قبل الاحيائية في مستنقعات كالتي توجد في (وادي الريفت) بالبحر الأحمر.

---

12) راجع أطروحة الدكتور أمل العلمي حول الطب الإسلامي (جامعة الرباط ـ 1980).

تلك بعض الجوانب الدينية التي تشكل أساس الفكر الطبي في الإسلام والتي يمكن استثمار أبعادها العلمية في تحليلات تقنية دقيقة ضمن الأبحاث الجامعية الحديثة التي يجب أن تستهدف بالدرجة الأولى وصل برامج كليات الطب مع تعاليم الإسلام وعلينا لدعم هذا الرصيد الثري أن نستعرض عطاءات الفكر الإسلامي في التجارب الطبية الرصينة التي أغنت المكتبة العلمية الإنسانية.

وبودنا أن نضرب لهذا العطاء أمثلة مستقاة خاصة من إسهامات المغرب العربي كامتداد لإبداعات الشرق الإسلامي.

ويتجلى للباحث أن أبا بكر محمد بن زكرياء الرازي هو في الحقيقة أبو الطب العربي وقد ألف ما يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها إلى اللاتينية وقد وصف الجدرى والحصبة وهو أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية وكذلك الأنابيب التي يمر منها الصديد والقيح والافرازات السامة وكان طبيبا إخصائيا حيث ألف كتاب «أمراض الأطفال» وكتاب «تجارب المارستان» فلا شك إذن أن الرازي يمكن أن يسجل في طليعة أطباء العرب.

وقد أكد لوكلير أنه إذا كان الكندي هو أول فيلسوف ظهر عند العرب فإن الرازي هو أول طبيب عند العرب (ج 1 ص 337).

وقد شعر العرب منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلية وقد أكد برتيلو في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى» أن كتب جابر بن

حيان في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار وأن كل المشتغلين بهذا العلم من بعده كانوا عالة عليه.

وقد سبق العرب الأوربيين إلى وضع الأواني الزجاجية الكبيرة التي تحتوي على السوائل الملونة.

ثم جاء الأستاذ ابن سينا فكان أعظم مصنفاته الطبية بعد القانون هو أرجوزته المعروفة عند الأوربيين بـ «كانتيكوم».

وأهم شرح لها هو الذي ألفه ابن رشد وقد ترجم إلى اللاتينية وكان ابن زهر الأوسط يفضلها على القانون لأنها جامعة لمبادئ العلم.

ويعتبر كتاب القانون لابن سينا والحاوي للرازي وكتاب علي ابن عباس أعظم الموسوعات الطبية التي انتجها العرب (لوكلير ج 1 ص 470).

ويوجد قرار جامعي مؤرخ ب 1617 يدل على أن كتب الرازي وابن سينا كانت أساس التعليم الطبي في جامعة لوفان في القرن السابع عشر وابن سينا كان أساس الدراسات في جامعات أوربا طوال ستة قرون (أعراف المسلمين وعاداتهم (كوتي ص 245).

وأول من نظم صناعة الطب وقيدها حرصا على مصلحة الجمهور المقتدر الذي تولى الخلافة عام 295 ففرض تأدية امتحان وبلغ عدد المتخرجين في جانبي بغداد عام 319 هـ ـ 860 رجلا سوى من استغني عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة (القفطي ص 130).

وأجري أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام 221 هـ. وقد جاء في (نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشيزري (مخطوط) أن المحتسب

كان يحلف الأطبـاء أن لا يعطوا أحـدا دواء مرا ولا يركبوا لـه سما ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل والغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار (أو السر المهني) والتوفر على جميع الآلات.

ومن انجع الوسائل التي كان العرب يقاومون بها الأمراض بجانب المصحات حسن التغذية وتناسب الملبوس مع الفصول[13] والأساليب الوقائية وفي مقدمتها الطهارة.

لهذا نرى أن الحمامات كانت متوافرة بصورة غريبة وقد ألفت في حمامات دمشق كتب مثل (عدة الملمات في تعداد الحمامات) ليوسف عبد الهادي من رجال القرن العاشر ويقولون إن حمامات بغداد بلغت بضعة آلاف منذ القرن الثالث وفي القاهرة بلغت ثمانين فقط في القرن السابع وفي نفس الوقت كان بالفسطاط أكثر من ألف حمام.

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه أن عدد الحمامات في عهد الرشيد والأمين بلغ ستين ألفا وذكر ابن جبير أن في بغداد ألفين من الحمامات قد طليت سطوحها بالقار.

وقد نوه رينو بحكمة المسلمين في اختيار أزيائهم مثل الثياب الصوفية البيضاء التي توافق الصحة في البلاد الحارة والتي لا تخزن أشعة الشمس أكثر من الحاجة وتحفظ حرارة الجسم إبان البرد زد على ذلك أن الثوب

13) عندما تحدث صاحب كنوز الصحة عن القبعات التي تحجز أشعة الشمس عن الأعين عند الأفرنج قال : «وقد استحسن ذلك أهل بادية المغرب وكذا بعض المغاربة فإنهم يلبسون على رؤوسهم مظلات من خوص لها دائرة ولسعة تقيهم من قوة ضوء الشمس... (ص 37 ـ 38).

الفضفاض يساعد على تسرب الهواء الضروري للتنفس الجلدي ولا يضغط على بعض الأجهزة مثل الكبد والمعدة (الصحة في المغرب ص 14).

وأبرز طبيب عربي ظهر في الأندلس في القرن الرابع هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب «التعريف لمن عجز التأليف» وقد قال فيه أحد الجراحين الغربيين «لاشك أن الزهراوي أعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمده واستند إلى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية.

وذكر لوكلير من جهته أن الزهراوي أعظم ممثل لعلم الجراحة في المدرسة العربية (ج 1 ص 334).

والظاهرة الطريفة التي امتاز بها كتاب التعريف للزهراوي هو إدراجه بإزاء النصوص لصور الآلات.

وقد عرف البرابر في المغرب العربي منذ عهود سحيقة حقن جراثيم الجدرى وكانوا يستعملونها لتحصين المصاب (كودار ـ وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239).

ونقل الكانوني في «شهيرات المغرب» (مخطوط) عن كتاب «فن الأسنان بالمغرب الأقصى «أنه كان بفاس في القرن الرابع الهجري مدرسة طبية» وذلك أيام كان المغرب تحت نفوذ الأمويين.

نعم في العهد الذي كانت الأندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت ـ كما يقول لوكلير (ج 2 ص 240) ـ جماعة من الأطباء التفت حول ملوك

المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك إلى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب ـ فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الأندلس.

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوسف ابن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية.

وكانت له آراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج 2 ص 64 ـ 66).

وقد تمخضت تجارب أبي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة.

وبعدما توفي أبو العلاء أمر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية أخرى كان أبو العلاء سجلها في أوراق وهي «المجربات» التي جمعت بمراكش عام 526 هـ والتي يوجد مخطوط منها في الاسكوريال (رقم 844).

وقد ترجم جان دوكابو التذكرة من العبرانية إلى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و1554).

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى 1531 وهي تحتوي أيضا على كليات ابن رشد.

وهنالك رسالة في أمراض الكلى كتبها أبو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات.

ولأبي العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن إسحق الكندي حول تركيب الأدوية.

وولده هو أبو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل أبيه وألف كتاب (الاقتصاد) لإبراهيم بن يوسف أخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب (رينو) محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام 515 هـ.

وقد أوضح بكيفية عملية الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى بل أفرد لذلك رسالة لم تصلنا ويذكرون أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق.

وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن أطباء عصره فذكر أنهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى وأن الناس يجهلون الطب لأن الطبيب الذي يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الأدوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصها ثم ذكر أنه استدعي يوما من الأيام لدى أمير مرابطي فوجد جماعة من الأطباء شبابا وشيوخا لم يسبق له أن تذاكر معهم ولكنه تأثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الداء الذي يشكو منه الأمير فبادر الأطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق في نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه

أطباء عصره الأقدمين أنه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللأطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فأدهش معاصريه وكان والده أبو العلاء يوصى ببطيخ فلسطين أي الدلاح في عرف المغاربة في أمراض الكبد ويعالج بجس النبض والنظر إلى قوارير البول.

وكتاب (التيسير) قد كتبه أبو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه (الكليات).

وقد أكد ابن عبد الملك في (الذيل والتكلة) أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره.

وقد نهج ابن زهر في كتاب (التيسير) أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول في «التيسير» أما في الميدان العملي فقد لاحظ ابن زهر أنه يأنف من إجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لأن رؤية الجروح تثير في نفسه ضعفا يوشك أن يسفر عن إغماء ولكنه لا يكره تحضير الأدوية غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده أبي العلاء حتى ولو أوصى بذلك جالينوس على خلاف الرازي.

وتحدث عن الأعمال اليدوية في الطب فلاحظ أنها موكولة لا عوان الطبيب مثل الفصد والكي وفتح الشرايين أما مهمة الطبيب فهي تقرير نظام الأكل عند المريض ووصف الأدوية له فهو لا يتناول شيئا بيده ولا يركب دواء وحكى أن والده لم يباشر شيئا من هذا القبيل بيده طوال حياته وحتى لو أراد ذلك لما وفق لعدم الاستيناس وتحدث عبد الملك عن

نفسه فذكر أنه كان هو نفسه ولوعا بالمباشرة اليدوية في الصيدلة وتجربة الأدوية والتوصل إلى قيمها وتركيباتها.

ولعل أبا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالأمراض الرئوية وأجريت له عملية القصبة المؤدية إلى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض الذبحة فعولج المريض.

وقد اختص ابن زهر في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل انبوية مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة - إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري - تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأدواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية).

وكان أبو مروان إذا عالج مريضا نسي نفسه واستهلك في مريضه وهذا هو سر عبقريته فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها

واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب أطباء القرون الوسطى على دراسة كتابه التيسير الذي ترجم أولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول (مخطوط بمكتبة ليد) ثم إلى الإيطالية عام 1260.

وقد تحدث ابن زهر في كتاب التيسير عن يمين ابقراط الذي كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضي منهم إلزام تلاميذهم بها.

والحفيد أبو بكر بن أبي مروان كان طبيبا شاعرا متين الدين خدم

الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفي عام 596 هـ بمراكش ألف (الترياق الحسيني) ليعقوب المنصور.

وكان أبو بكر يحفظ صحيح البخاري بأسانيده (الأنيس المطرب ج 2 ص 180) ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر (ذى الرمة) وهو ثلث لغة العرب (المطرب لابن دحية).

ومنهم أيضا أبو الوليد بن رشد الذي تميز في الطب وله كتاب (الكليات) الذي ترجم إلى اللاتينية وطبع ولما ألف كتابه هذا قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب.

ولابن رشد تلخيص كتاب العلل والأعراض والتصرف والحيات والأدوية المفردة وحيلة البرء.

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية).

وابن رشد هو أول[14] من أشار إلى الدورة الدموية وعللها في كتابه (الكليات) الذي استمد منه ويليام هار في معظم نظرياته.

---

14) ابن النفيس المصري اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 ـ بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس إلى ذلك في «الكتاب الشامل في الطب» الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا.

أحمد بن محمد أبو جعفر الذهبي المتوفى بتلمسان عام 601 هـ / 1202م كان عالما بصناعة الطب فيلسوف الأندلس مع تبريز في الفقه والقراءات والنحو واللغة عينه المنصور الموحدي نقيب الطلبة والأطباء بمراكش وطبيبه الخاص وكذلك لولده الناصر الموحدي.

وله شرح على صحيح مسلم.

(عيون الأبناء) ج 3 ص 132 / ج 2 ص 81.

أبو يحي هانئ بن الحسن اللخمي الغرناطي له مشاركة في الحديث والأصول والطب تتلمذ لابن فرتون بفاس توفى عام 614 هـ (الجذوة ص 335).

وقد رحل إلى المشرق أطباء مغاربة منهم علي بن يقظان السبتي الطبيب الشاعر الأديب الذي توجه إلى مصر عام 544 ثم إلى اليمن والعراق (القفطي ص 160) وكذلك يوسف بن يحي بن اسحق السبتي ابو الحجاج نزيل حلب ويعرف في سبتة بابن سمعون كان طبيبا من أهل فاس «وقرأ يوسف الحكمة بيلاده (أي سبتة) فساد فيها (القفطي ص 206) وذكر لوكلير أنه كان طبيب ميمون أمير حلب وطبيب الملك الظاهر وصديقا للقفطي (ج 2 ص 193).

أبو جعفر عمر بن علي القلعي المغربي طبيب ماهر في الأدوية والأمراض وعلاجها كتب ملاحظات على كتب ابن سينا ولد بالمغرب وعاش في دمشق حيث كان له دكان للعيادة توفى عام 576 هـ (لوكلير ج 2 ص 40).

أما المستشفيات فما أنشأه أبو يوسف (دار الفرج) في شرقي الجامع

المكرم وهو مارستان المرضى يدخل العليل فيه فيعاين ما أعد فيه من المنازل والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه (الاستبصار في عجائب الأمصار).

ووصف عبد الواحد المراكشي المستشفى الموحدي بمراكش فقال : «وبنى بمراكش بيارستان ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة مازاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط احداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت. وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه الصيادلة[15] لعمل الأشربة والأدهان والاكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنيا دفع له ماله... ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى... ولم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات (المعجب ص 177).

15) ذكر البيروني Aliboron في مقدمة كتاب الصيدلة في الطب أن لفظة الصيدنة بالنون أكثر اشتهارا من الصيدلة باللام (ماكس مايرهوف ـ نشرة المعهد المصري ج 22 عام 1940).

وذكر في (كتابه الموحدون) المؤلف عام 1923 ص 129 أن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس.

ولا بدع إذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لأوربا فقد قال ولتر في مختصر التاريخ : «ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الأوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه إذ أن الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقى التي كان يبيعها رجال الدين «إلى أن قال : وكان الأوربيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين».

وأبو يوسف المريني هو الذي صنع المارستانات في جنوب المغرب للغرباء والمجانين وأجرى عليها النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية وما يشتهونه من الفواكه وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم في أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم (الذخيرة السنية ص 100) ولم تكد تخلو مدينة من مارستان.

على أن الطب كان في إفريقية ـ كما كان في المغرب ـ مشاعا بين طبقة وافرة من الفقهاء والمحدثين والأدباء.

فهذا مثلا الإمام السنوسي شارح البخاري له شرح على رجز ابن سينا في الطب وله شرح كبير على الحوفية في الفرائض والحساب ألفه وهو ابن تسعة عشر عاما (النيل ص 353).

وقد أكد رينو أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس المعربة إلا أن كتب خزانة القرويين اندرس بعضها على يد الإسبان عام 1161م ولم تعد تدرس العلوم والطب رسميا اللهم إلا ما كان من دروس يلقيها (أطباء) في جوامع العاصمة أو بعض زوايا المدن الأخرى[16] حيث يعلقون على المصنفات العربية المخطوطة أو المطبوعة الموجودة في الطب بالمغرب محافظين بذلك على ما يعرفونه من الطب التطبيقي وقد ازدهر في هذا الإبان بالشرق والأندلس خاصة علم النبات وطب العيون وظهر أمثال النبطي وتلميذه ابن البيطار وهما أندلسيان ورشيد الدين الصوري المتوفى عام 639 وهو أكبر نباتي العرب طرافة وأصالة وقد عرف الشرق نوعا من الاختصاص في المستشفيات فأضيفت مثلا إلى مارستانات دمشق أجنحة للكحالة أو طب العيون.

والنبطي هذا هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية[17] ولد في إشبيلية عام 561 هـ (وفي رواية أخرى 567 هـ) ودرس الأعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع وقد رحل إلى الشرق عام

---

16) وورد في الجزء الأول من سلسلة «مدن المغرب وقبائله» المتعلق بالرباط وناحيته (ص 32 و 225) أن البوعنانية بسلا كانت مدرسة للطب ونقل ذلك عن الاستقصاء غير أن الاستقصاء لم يتعرض لهذا عندما أشار إلى هذه المدرسة (ج II ص 151) كما أشار نفس المصدر إلى عمر بن عربية أستاذ الطب في العهد العلوي.

17) ذكر ابن الخطيب في الإحاطة أن ابن الرومية ويقال له ابن العشاب كان إماما في الحديث حافظا ناقدا... قام على الصناعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات إذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول.

613 هـ (أو 614) بعدما درس أعشاب الأندلس ومر بالمغرب حيث أشار في كتابه إلى أعشاب ومدن مغربية ودعاه الملك الأفضل للاستيطان بالقاهرة.

وقد صنف كتابا حسنا كثير الفائدة، في الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم وفاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان لبيعه توفي باشبيلية عام 638 هـ (النفح ج 1 ص 635).

أما ابن البيطار فقد ذكر لوكلير (ج 2 ص 225) أنه أعظم نباتي العرب وأنه لا يضاهيه من أطباء العرب سوى الغافقي والشريف الإدريسي وأبي العباس النبطي ورشيد الدين الصوري الذين درسوا كلهم الطبيعة ووسعوا دائرة المعلومات البشرية وقد استفاد ابن البيطار مما كتبه الصوري كا تنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الأعشاب وخلف لناأعظم مجموعة في العلوم الطبيعية الطبية عند العرب. وقد رحل إلى الشرق عام 1216 أو 1217م ومر بالمغرب وسجل ملاحظات شتى حول الأعشاب وبعض الأسماء البربرية التي اندرجت منذ ذاك في القاموس العربي.

وكان ابن البيطار يتجول مع تلميذه ابن أبي أصيبعة للبحث عن الأعشاب وقد مات في دمشق عام 1248م خلافا لما زعمه الحسن الوزان من أنه مات بالأندلس وذكر المقري أن ابن البيطار حشر في كتابه ماسمع به وقرأه في تصانيف الأدوية المفردة، ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي السبتي وغيرها وضبطه على حروف المعجم كان أوحد زمانه في معرفة النباتات سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب وخدم الكامل بن العادل الذي عينه رئيس العشابين بمصر (النفح

ج 2 ص 683) (ويسمى علماء النبات في الشرق بالعشابين والشجارين والنباتيين والحشائشيين كما في التذكرة التيمورية).

وكتابه (جامع المفردات) أكمل وأوسع ماصنفه العرب في الطب وقد ترجمه لوكلير إلى الفرنسية وهو يتضمن الفي وصفة من أوصاف العقاقير.

وقد ذكر ابن البيطار عبد الله بن صالح الكتامي مع النبطي وأبي الحجاج الإشبيلي كأساتذة له ونقل عنه ابن البيطار عند تعرضه للأعشاب التي شاهدها باسبانيا والمغرب وبالأخص أرباض فاس (ص 248).

وكتاب الأدوية للشريف الإدريسي الذي أشار إليه إبن أبي أصيبعة والذي هو مليء بالملاحظات الشخصية قد اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب (لوكلير ج 2 ص 8) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص 68) وتحدث عن أعشاب المغرب وعرف أحيانا بأسمائها البربرية.

ولكن مرت فترة عصيبة بالشرق فتت في عضد الفنون والفلسفة والتعاليم بسبب غارات المغول الذين ما لبثوا أن اعتنوا بالعلماء بعد إسلامهم بفضل جهود الطبيب قطب الدين الشيرازي تلميذ الفخر الرازي (لوكلير ج 2 ص 121).

وتخرج عند ذاك أمثال القزويني العالم في الطبيعة الذي يشبهه الغربيون بالعالم بلين وبالأندلس ورث بنو الأحمر حضارة العرب من أوربا المسلمة وأصبحت غرناطة التي ظلت تابعة لبني مرين فترة من الزمن ملجأ العلم والفن في أوربا المسلمة إلى سقوطها في يد الإسبان عام 886 هـ. ومن أبرز مؤرخي هذا العصر الذين عنوا بتاريخ الطب ابن الخطيب.

«ودراسة عصر ابن الخطيب مفيدة ـ كما يقول رينو ـ للطبيب لأنها عصر الطاعون الأسود الأكبر الذي هلك فيه حسب المؤرخين ثلث سكان المعمور وقد صنف بعض الأطباء المغاربة مؤلفات في علل هذا الداء وطرق علاجه» (الطب القديم بالمغرب ص 47).

ثم تعاقب في العصور التالية أطباء واصلوا إثراء التراث العربي الإسلامي من بينهم :

ابن ثابت علي بن سعيد التلمساني المتوفى (عام 829 هـ / 1426م) له 28 كتابا خاصة في أصول الدين والطب (تعريف الخلف ج 2 ص 259 / الاعلام للزركلي ج 5 ص 75).

عبد الرحمن سقين القصري ثم الفاسي المحدث كان مشاركا في الأدب والتصوف والطب يقرئ ابن سينا توفي عام 956 هـ (النيل ص 153).

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة في الأدب والأصلين والطب والتفسير والحديث والنحو ولي القضاء والفتوى بفاس (توفي عام 961 هـ).

وقد نصح المنصور السعدي ولده في رسالة وجهها إليه باستعمال الدواء إبان الطاعون الذي طرأ في عهده في وصفات تدل على براعة المنصور في الطب ومن جملة ما أوصاه به عدم فتح الرسائل إلا بعد غمسها في الخل القوي ثم تنشيفها وهذا يدل ـ كما يقول رينو ص 79 ـ على أن المغرب كان يعرف إذ ذاك ان عزل المرضى أصلح وسيلة لدرء المرض.

ولا ينبغي الخلط بين الطاعون والوباء فالفرق بينهما كما يقول محمد بن أبي العاص الأندلسي صاحب الرسالة في تحقيق الوباء أن الطاعون مصحوب

دائمًا بذبيلة أي عقدة عصبية ملتهبة في حين أن الوباء قد لايتمخض عن أي التهاب من هذا النوع ولكن كلاهما قاتل.

وبالرغم عن انخفاض المستوى الاجتماعي العام كانت الوفيات قليلة إذا استثنينا الظروف الخاصة فقد ذكر الحسن الوزان أن في مجموع بلاد البربر

بلغ معدل العمر مابين 65 و 70 سنة ويرتفع هذا المعدل أحيانا إلى 80 بل 100 سنة في المغرب بيما ينخفض إلى 60 في ليبيا وأقل من ذلك في السودان (ماسينيون ص 83).

وقد أقام المغرب محاجر صحية لفصل المرضى عن الأصحاء مسهما بذلك في محاربة التلوث المجتمعي.

وكان الجذمى يعيشون في الكهوف القريبة من فاس (جذوة الاقتباس ص 17) وكانت في أرباض كثير من المدن حارات للجذمى.

ورغم ما استظهره رينو من أن التعليم الرسمي للطب والعلوم أندرس بجامعة القرويين أواخر القرن الماضي (الطب القديم بالمغرب ص 77) فإن دلفان أشار في كتابه حول فاس وجامعتها (المطبوع عام 1889) إلى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي والقانون والمنظومة لابن سينا وزبدة الطب للجرجاني والتذكرة للسويدي وتذكرة الأنطاكي وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري ابن حمادوش وهو عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش الجزائري حج عام 1130 هـ. وأهم مؤلفاته «كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب» مرتبة على الحروف (تحتوي على نحو الألف عشبة) وهو ينقل عن ابن سينا وابن

البيطار والأنطاكي وله أيضا «تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج» (نحو العشرين صحيفة)

وقد تحدث رينو عن اهتمام الأطباء عندنا بالتشريح والعمليات الجراحية فلاحظ أن هذه العمليات لاتتمخض في الغالب عن ذيول مخطرة لندرة الاستعصاءات الناتجة عن التعفن أو الاصداد والتقييح ويستعمل الأطباء المغاربة في تضميد القروح الزيت الغليان أو القطران الساخن والحناء والفحم وصمغ الصنوبر لاستئصال جراثيم التعفن (ص 132) وعند حدوث نزيف يستعملون لإيقاف الدم الصوفان والمساحيق المستخلصة من اليقطين (القرع الصغيرة) ودقيق الفول واللفافات للضغط فإذا أعياهم الأمر حاولوا الالتئام بخياطة حافتي الجرح في شكل منحرف ويلجأون كذلك إلى كي العرق إما بقضيب محمى وإما بقطعة من خشب محماة ثم يضمد الجرح بالجاوي ويحكى أن القروح تلتئم في حاحا والسوس لا بالخياطة ولكن عن طريق عضة النمل الكبير لحافتي الجرح بحيث يقطع صدر البعوضة ويبقى الفكان عالقين بالقرح.

أما في جبر الأعضاء المنكسرة فإن الأطباء المغاربة يعمدون إلى طريقة الدلك الذي سبق به المغاربة - كما يقول رينو - اكتشاف لوكاس شامبيونيير، وكثيرا ما يعطي الطبيب لمن كسرت عظامه ايلان وهو حب يكثر في ناحية مراكش غني بمادتي الفوسفاط وكاربونات الجير ويوقف داء الفتق بآلات من جلد أو ثوب محشو بالصوف أما الكي فإنه مستعمل في جميع الأمراض الباطنة وفي كثير من العمليات الجراحية (ص 134).

وتقطع الأسنان المسوسة بأدوات خاصة ذكر رينو منها مجموعة بعضها مصنوع في المغرب وبعضها مجلوب من أوربا ومن الأطباء من يضمخ السن

بمركب من الثوم والملح والحريف (وهو الفجل الوحشي أو الحرف) ثم يملأون السن المسوسة بجذر جوز ريان بعد غمسه في اللبن ويغطى الكل بالصمغ (135).

وتداوى أمراض الأذن بالجاوي والزعفران والزيت وعصير ناب الذيب أما القروح فإنها كثيرا ما تداوى بالعمليات الجراحية في الأذن وهي عمليات خطيرة تكلل بالنجاح بسبب قلة القيوح.

أما العيون فإن أمراضها تشكل مع الزهري ثلثي أمراض إفريقيا الشمالية فما أكثر العميان بالمغرب غير أن للكحالين أي أطباء العيون المغاربة أساليب مفيدة لمعجالة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة وكذلك في الجزائر (ص 136) ويستطيعون أن يزيلوا بحذق غشاوة العين المانعة من الإبصار بل يتقنون عمليات أصعب من هذه (ص 136).

وذكر كودار في «وصف المغرب وتاريخه» (ج 1 ص 238) أي الكي هو أعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وأن هذه العملية أسفرت غالبا عن نتائج عجيبة.

أما تبنيج المريض أثناء العمليات الجراحية فقد أكد رينو أن الأطباء المغاربة كانوا يستعملون السيكران وهو عشب مخدر وكذلك جوز الطيب في عملية الختان وقد حكى له الطبيب الجراح الحسن أنه توصل إلى تركيب دواء من السيكران والكبريت وغيرهما يكون البخار المتصاعد من طبخه بمثابة مخدر يستمر تأثيره أربعا وعشرين ساعة وذكر الدكتور ميكيريز في كتابه (الأخبار) الصادر عام 1859 بالجزائر أن الأطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الإيحاء والتنويم في معالجة مرضاهم وإجراء عمليات

جراحيـة لهم بحيث يتوصلون إلى درجـات شتى من التنويم ولا تختلف هـذه المناهج عن الأساليب المستعملة عند الأوربيين ومنها تعليق زجاجـة لامعـة مثلا أمـام المريض فينـام بينمـا المبـاخر ترسـل روائـح العطر والعـود (رينوص 131).

وقد وصف كودار كذلك في تـاريخ المغرب (ج 1 ص 240) عمليـات التنويم التي أشار إليها الدكتور ميكيريز منهـا وضع زجـاجـة فوق طـاولـة مغطـاة بخـوان أبيض يتـلألأ وراءهـا مصبـاح فيجلس المريض على مسـافـة قريبـة مصوبـا نظره نحو الضوء فيشعر بتثـاقـل وبعـد بضـع دقـائـق ينـام وتتسارع دقات قلبه ويحرق البخور في الغرفة فيفقد النائم إحساسه.

وذكر رينـو أن بعض الأطبـاء المغـاربـة كانـوا متخصصين بعضهم في الأوجاع وبعضهم في أمراض العيون وبعضهم في الحميات أما أطبـاء الأسنـان فإنهم يمارسون هذا الفن - في نظر رينو - بمهارة كبرى (ص 122).

وكثيرا مـا تستعمل أعضـاء بعض الحيوانـات لمعـالجـة الأمراض وهـذه الطريقة تستعمل كثيرا في أوربا (رينو ص 155) ولا يجهل المغاربة جدوى اللحوم غير المطبوخة وقد أشار الشيخ عبـد الرزاق صـاحب (كشف الرموز) إلى خواص بعض أعضاء الحيوانات منها معالجة داء الكلب بمثقال (غرام) من كلية الكلب العقور بمجرد قتله ويؤيد هـذا النوع من العلاج مـاذكره رينو (ص 157) من أن الـدكتـور فرانتزان نشر بحثـا في «الأسبـوع الطبي» (14 مـايـه 1898) ذكر فيـه أن مرارة الكلب العقـور تحتـوي على مـادة مضـادة لجراثيم داء الكلب.

ويستعمل الكحالون المغاربة أعضاء حيوانية خاصة في أمراض العيون

من ذلك مستخلص الكبد والأكياس التي توجد فوق الكليتين والتي استعملها أيضا باطيس في نيويورك ضد التهاب القرنية والملتحمة وكذلك ضور في ليون ودرابي في باريس (رينو ص 160).

ونشر بنسيون بحثا حول الطب والأطباء بالمغرب قبل الحماية في مجلة المغرب الطبي (شتنبر 1951) ذكر فيه أنه يجب أن نلاحظ أن الطب البدائي التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع في جدواها فمن ذلك أن المريض المصاب بالحصبة أي الحميرة (بوحمرون) كان يجعل في غرفة يكسى فراشها وجدرانها وأغطيتها بلون أحمر وهذه الطريقة في العلاج لايزال يستعملها الدكتور شاطينيير الذي لاحظ أن لها يرجع الفضل في تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستعصاءات.

ولا يوجد عمليا بيطريون في المغرب ولكن إذا مرضت دابة يلتجأ إلى الطبيب أو الحداد على أنه يوجد في جميع المدن بياطرة لهم معرفة ببعض الأمراض بل لهم اختصاص في أدواء الأفراس والبغال والحمير والجمال ويستعمل بالأخص الكي والفصد والخصاء.

ومن المربين للخيول من يساعد على التوليد إذا صعب الوضع وقد لاحظ رينو بمزيد الدهشة استعمال المغاربة للتلقيح ضد مرض منتشر عند المعز يعرف بالبيور وهنالك أمراض مجهولة في المغرب مثل الكزاز (تيتانوس).

وقد ساق رينو (ص 171) 36 نوعا من أنواع الأمراض التي تصاب بها الأفراس والبغال والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز مع الأدوية المستعملة لعلاجها.

ومن العوائد البيطرية بالمغرب ما ذكره أركان في «المغرب الحديث» من أنه عندما يلاحظ هزال عند الافراس بالرغم عن حسن تغذيتها دون أن يكون لذلك سبب معلوم يعمد سائسها فيعطيها نصف رطل من الزبد النامس المذاب (أي مايسمى عندما بسمن الترياق) خلال ثلاثة أيام متوالية مع إخلاد للراحة.

وكثير من الأمراض المنتشرة في أوربا غير معروفة بالمغرب ولا في الجزائر منها الحمى الوبائية المصحوبة بحبوب صغيرة والحمى الحصبية بينما تقل جدا الإصابات بالدفترية أو التيفويد (رينو ص 140).

وبقدر ما كان يكثر السل في الصغار بقدر ما يقل عند الكبار أما الوباء فإنه لم يظهر في المغرب منذ 1818 وظهرت الكوليرا لآخر مرة عام 1895 (ص 141).

وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعمد بعض الناس إلى التلقيح ضد الجدري بحقن جراثيم بثور ودماميل العجل أو الناقة بينما يستعمل آخرون الكبريت والملح ويخلدون إلى الراحة في مكان مظلم.

وكان داء البواسير كثير الانتشار لكثرة استعمال التوابل وكذلك أمراض المعدة والأمعاء بصورة عامة.

والحياة في الهواء الطلق مع قلة وسائل الدفء من شأنها أن تثير السعال وداء العصب (الروماتيزم) ولكن المغاربة كانوا يستعملون كثيرا من المعاجين والأدهان التي لم تكن تخلو من جدوى وأصالة (ص 142).

أما الزهري (النوار أو حب الأفرنج) فقد لاحظ الحسن بن محمد

الوزان (ليون الإفريقي) انتشاره في المغرب في القرن العاشر الهجري بحيث كان عشر السكان مصابين به تقريبا والكبريت الموجود في حمة مولاي يعقوب نافع لهذا الداء.

ومن الأمراض الجلدية سلاط ـ وهو انتفاخ الجلد ـ الذي كان منتشرا بالمغرب لاسيا في سلا بقدر ما انتشر داء الفتق بالرباط وكلا المرضين كان ناتجا عن وجود عناصر دخيلة في مياه الشرب.

وكذلك الجذام المنتشر بالمغرب وكانت بفاس حارة الجذمى بباب الخوخة ثم نقلت إلى الكهوف بعيدا عن المدينة عندما جددت الأسوار وقد لاحظ رينو أول هذا القرن عدم وجود حارات من هذا النوع بفاس غير أنه يوجد حي بمراكش قرب باب دكالة خاص بالجذمى وكذلك على بعد ساعة من الجديدة وكان يوجد قبل سنة 1899 «دوار الجاذمة» يحتوي على 200 من المرضى ولكنهم تشتتوا (ص 147).

وقد أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ظهيرا خاصا في 10 رجب 1283 موافق 18 نونبر 1866 جعلت بمقتضاه جزيرة الصويرة محجرا صحيا للحجاج.

وكان المخزن يتخذ الإجراءات اللازمة للحيلولة دون انتشار الوباء من الخارج بفضل الحصار الدقيق الذي يضرب أيام الخطر ففي عام 1089 هـ عندما ظهر الطاعون بمكناس والقصر وقف الحراس من العبيد على مشرع سبو وغيره لايتركون من يرد على فاس ومكناسة وعلى دائرة الملك وقد ظهر بفاس فأمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس (نشر المثاني ج 2 ص 44).

وقد أشار رينو إلى اجتماع عقده أربعة من علماء فاس في 8 شوال 1310 لامتحان طبيب مغربي فشهدوا بعد استفساره بتضلعه في الطب وقوانينه وتطبيقاته ومعرفته بتركيب الأدوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وخواصها وأسمائها وطرق إذابتها في الوقت الصالح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب إجازة (ص 121).

تلك معالم ومراسم تعطينا صورة مكبرة عن عطاءات الفكر الإسلامي في دعم معطيات الفكر الإنساني مما يجعل أن يتخذ أساسا للدراسات الطبية في الجامعة الإسلامية.

الرباط **عبد العزيز ابن عبد الله**

نشاط الدراسات الرياضية
في مغرب العصر الوسيط الرابع
(عصر بني مرين)(*)

محمد المنوني

مقدمة :

تستوعب الرياضيات العلوم العددية والهندسة والموسيقى، ثم تتفرع المادة الأولى إلى الأرتماطيقي، والحساب، والجبر والمقابلة، وحساب الفرائض، وحساب المعاملات : حسب تقسيم ابن خلدون[1] للعلوم.

وبين المؤلفات التي كانت تستخدم في دراسة العلوم العددية خلال الفترة التي نعرضها : نشير إلى «أرجوزة ابن الياسمين» في الجبر[2]، و«مختصر الجبر» لابن بدر الإشبيلي[3]، و«تلخيص أعمال الحساب» لابن البنا، ومن

---

*) أعد برسم الندوة التي نظمها اتحاد كتاب المغرب (فرع مراكش) يومي 9 ـ 10 مارس 1985، تكريما للأستاذ الجليل الصديق بن العربي محافظ خزانة ابن يوسف سابقاً، شفاه الله سبحانه، مع تعديل في عنوان التدخل، اعتبارا بالإضافات التي ألحقت به من بعد.

1) «المقدمة» المطبعة البهية المصرية : ص 418.

2) مخطوطة ضمن شروحها بالخزائن المغربية.

3) منشور في مدريد من سنة 1916 مع ترجمته الإسبانية : عن مخطوطة كتبها عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد بسجانة القصر من داخل مدينة فاس، وفرغ منها في 4 شوال 764 هـ، حلله قدري حافظ طوقان في «تراث العرب العلمي» ص 367 ـ 372، ثم في «مجلة المجمع العلمي العربي» : بالمجلد 32 ج 2 ص 282 ـ 288.

المبسوطات «كتاب الحصار الصغير»[4]، و«رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب» لابن البنا.

وفي حساب الفرائض : «مختصر الحوفي»[5]، و«القصيدة التلمسانية»[6].

☆ ☆ ☆

أما الطريقة التي يسير عليها المدرسون للمواد العددية : فكانت تعتمد الكتابة في اللوح أو الورق لإثبات التارين الحسابية.

وهناك طريقة لا تستخدم فيها آلات الكتابة، وتعتمد على **الحساب الذهني وهو الحساب الهوائي**، فتعرف به كيفية حساب الأموال العظيمة في الخيال بلا كتابة، وكان هذا الحساب عظيم النفع للتجار في الأسفار،

---

4) منه مخطوط في الظاهرية رقم 9760 ـ عام، منسوب لأبي بكر محمد بن عبد الله بن عياش الحصار، ولنفس المؤلف «البيان والتذكار في علم مسائل الغبار» : من مخطوطات خ،ع،ق 917، ونسخة أخرى في مكتبة ابن يوسف بمراكش 397، وثالثة في مكتبة الزاوية الحمزية 149 : ضمن مجموع.

5) أضيف عنوانه لمؤلفه الحوفي : أحمد بن محمد بن خلف الكلاعي الإشبيلي ت 588 هـ، قال عنه ابن عبد الملك : «وله في الفرائض تصانيف : كبير ومتوسط ومختصر، وكل ذلك مما بلغ في إجادته الغاية...» : «الذيل والتكلة» : دار الثقافة في بيروت رقم 608، لا يزال مختصر الحوفي مخطوطا : خ،ع،د 3203.
خ،ع،ك 1252.
خزانة القرويين 497 : مبتور الأوائل.

6) اسمها «تبصرة البادي وتذكرة الشادي»، نظم أبي إسحاق التلمساني : إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري نزيل سبتة ت 697 هـ، وهي منشورة على حدة، وضمن بعض شروحها المطبوعة.

ولأهل الأسواق الذين لا يعرفون الكتابة، وللخواص إذا عجزوا عن إحضار آلات الكتابة[7].

وقد ألف في قوانين هذه الطريقة ابن الهائم : أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المصري ثم المقدسي، ت 815 / 1412، وسمى موضوعه بـ«المعونة»[8]، ثم وضع لها مختصرا أول باسم «الوسيلة»[9]، وثانيا باسم «المبدع»[10]، وعلى الوسيلة شرح باسم «إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب»، تأليف سبط المارديني : محمد بن محمد بن أحمد الدمشقي، ت 907 / 1501[11].

ويهمنا من هذه الطريقة أنها كانت معروفة بالمغرب خلال الفترة التي نعرضها، وكان يسير عليها أحد شيوخ الرياضيين بفاس : يعقوب بن موسى السيتاني آتي الذكر، فيرد في ترجمته[12] أنه كان ـ في تدريسه للفرائض والحساب ـ يصور المسائل في الهواء خاصة، ويشتد على من يحاول ـ من طلبته ـ رسم العمليات بالكتابة، إمعانا في تدريب المتعلمين على هذه الطريقة.

---

7) «مفتاح السعادة» لطاش كبري زاده، مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة 393/1 ـ 394، مع «كشف الظنون» تصوير مكتبة المثنى في بغداد بالأوفسيت ع 664.

8) منها مخطوطة في دار الكتب الوطنية بتونس 4081، وفي دار الكتب الظاهرية خمس نسخ منها موصوفة في «فهرس الرياضيات» ص 41 ـ 44.

9) منها مخطوطة بالظاهرية 4280 ـ عام، وأخرى بمكتبة الأوقاف العامة في بغداد 12241.

10) أشار له السخاوي عند ترجمة ابن الهائم من «الضوء اللامع»، نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 1354 هـ ـ 157/2 ـ 158.

11) من مخطوطات الظاهرية 9218 ـ عام.

12) «جذوة الاقتباس» لابن القاضي : «دار المنصور للطباعة والوراقة» بالرباط 1974 ـ رقم 650، مع نيل الابتهاج ص 349.

ونتنقل ـ الآن ـ إلى عرض أصناف الأرقام التي كانت معروفة في هذا العصر، وتأتي في مقدمتها الأرقام الغبارية المغربية، وهي المتداولة في الترقيم المغربي.

ثم الأرقام الغبارية الهندية المستعملة في الترقيم المشرقي، وهي الغالبة في تعمير جداول الأوفاق[13] بالمغرب.

الثالث : حساب الجمل : بالحروف الأبجدية، وبه ترسم الحسابات الفلكية، وأحيانا يستعمل في الرياضيات.

الرابع : الأرقام الرومانية التي تطورت إلى القلم الفاسي أو الزمامي، وتستخدم في حسابات الوثائق العدلية : بالتركات وتقدير النفقات... ومرات في تاريخ المنتسخات وترقيم صفحاتها[14].

الخامس : «حساب العقود» : (عقود الأصابع)، ويسمى ـ أيضا ـ «حساب اليد»، و«حساب الأصابع»، وكان في الأصل اصطلاحا للعرب

---

13) لابن الياسمين «تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار»، مخطوط خ،ع،ك 222، حلله وترجم لمؤلفه الأستاذ الكبير عبد الله كنون : في مجلة «البحث العلمي» بالعدد الأول ص 181 ـ 190 سنة 1383 / 1964، ومنه مخطوطة أخرى خ،ع،د 3193.

14) من الدراسات في رسوم هذا الحساب وقواعده : «1» رسالة ابن البنا آتية الذكر عند رقم 8، و«2» رسالة الصباغ : خ، س 12032 : ضمن مجموع، ثم «3» أرجوزة أبي السعود عبد القادر الفاسي، و«4» شرحها باسم «إرشاد المتعلم والناسي، في صفة أشكال القلم الفاسي»، تأليف القاضي أحمد سكيرج، منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية دون تاريخ، و«5» له ترجمة فرنسية من عمل المستعرب ڤيالا، نشرت في مطبعة الجزائر سنة 1917، و«6» للمرحوم محمد السراج بحث بعنوان «الطابع العربي في الأرقام الرياضية»، منشور في مجلة «اللسان العربي» بالعدد 3 ص 64 ـ 70 سنة 1385 / 1965، ولرشوم هذا الحساب إشارة عند الونشريسي في «المعيار» ط،ف 142/10.

تواضعوه بينهم في معاملاتهم، وانتقل استعماله إلى بعض الأحاديث والأشعار، للتعبير عن أعداد تؤدى بهذا الحساب، ومن ذلك حديث «عقد ثلاثة وخمسين» عند مسلم : في كيفية وضع اليد عند التشهد، وفي حديث ياجوج وما جوج عند البخاري : «وعقد سفيان تسعين أو مائة»، وعند مسلم : و«عقد سفيان عشرة»[15]، ومن هنا صار هذا الحساب يتدخل في بعض الدراسات الحديثية والأدبية بالمشرق والمغرب على السواء.

وذلك ما حفز المختصين إلى تدوين قواعده، فوضعوا بإزاء كل من عقود الأصابع عددا مخصوصا، ثم رتبوا ذلك آحادا وعشرات ومئات وألوفا وعشرات الألوف، حتى يمكن تأدية ذلك كله باليد الواحدة، ومما يشير لنفاق هذا الحساب بالمغرب : وجود أرجوزتين في قواعده ببعض الخزانات المغربية :

- «أرجوزة لوح الضبط...» نظم على بن محمد المغربي :[16] في خزانة القرويين 2/1198 : 53 بيتا.

(نسخة أخرى منها : خ.ع،ك 3/1070.

- «أرجوزة» لمشرف بن قظرف خ،ع،د 1588 : ضمن مجموع : 36 بيتا.

ومن الجدير بالملاحظة أن الوضع الأول للحساب الروماني كان على حساب اليد في معظم أعداده، فالواحد يرمز له بأصبع واحد I، والأثنان بأصبعين II، والثلاثة بثلاثة أصابع III، والخمسة بيد واحدة V...

---

15) «مفتاح السعادة» 394/1 ـ 395، مع «كشف الظنون» ع 664 ـ 665، وانظر ابن حجر في «فتح الباري» : المطبعة الخيرية 88/13، مع البغدادي في «خزانة الأدب» 147/3.

16) تصحف اسمه بابن الحربي في كل من «مفتاح السعادة» و«كشف الظنون».

ويـذكر الصـولي عن الكتـاب في عصره أنهم اخترعوا حسـاب العقـود، فاستخدموه بدلا عن الحساب المتدي، ورأوا أن مـا قلت «التـه»، وانفرد فيـه الإنسان بثالة من جسمه، كان أذهب في السر، وأليق بشأن الرياسة... «أدب الكتاب» : المطبعة السلفية بمصر ص 239، حيث يوجد بهذه الصفحة تعليق مهم.

☆ ☆ ☆

بعـد هـذا التقـديم ينتهي بنـا المطـاف إلى عرض مـلامـح من نشـاط الرياضيات في مغرب العصر الوسيط الرابع، ويمتد مع أيام الدولة المرينيـة، حيث تنقسم هذه الفترة إلى ثلاثة عصور فرعية :

العصر الأول من بدايـة الـدولـة : 668 / 1269، إلى وفـاة أبي سعيـد المريني الأول : 731 / 1331.

ومن هذا التاريخ يبتدي العصر الثاني لينتهي عند 759 / 1358.

العصر المريني الثالث من التـاريخ الأخير، إلى نهـايـة الـدولـة 869 / 1465، وعلى هذا الترتيب تسير عروض الدراسة.

☆ ☆ ☆

العصر المريني الأول 668 - 731 / 1269 - 1331

أولا : العلوم العددية :

أ ـ الحساب والجبر :

1 ـ «تلخيص أعمال الحسـاب» لابن البنـا : أحمـد بن محمـد بن عثمان الأزدي المراكشي، ت 721 / 1321.

والكتـاب يتنـاول أكثر المسائل العـددية : من أعمـال الصحيـح، إلى

الكسور، إلى الجذور، وفي جزءه الثاني : قوانين استخراج الأعداد المجهولة بواسطة العمل بالنسبة وبالكفات، ثم الجبر والمقابلة، وهو منشور كما سنتبين.

2 ـ ومن شروحه تعليق المؤلف باسم «رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب»، ويقول عنه ابن خلدون :[17] «وهو كتاب جليل القدر، أدركنا المشيخة تعظمه، وهو كتاب جدير بذلك»، ثم يقول عنه ابن هيدور : «وهو سفر صغير كثير المنفعة».

ومن نسخه مخطوطة خ،س 2186 : أول مجموع.

وأخرى في خزانة الجامع الكبير بوزان 1188 : أول مجموع.

وعلى تلخيص أعمال الحساب تتركز ـ أكثر ـ دراسات الحساب والجبر، وقد صار معتمد الدارسين لهذه المادة بالمغرب وخارجه، وسيطر على الحلقات التعليمية، والمؤلفات الشارحة لمسائله في هذا العصر وبعده.

ومن الواضح أن هذه المؤلفات ـ في غالبيتها ـ تنبثق عن مذكرات الشيوخ التي يعدونها لإلقائها على طلابهم، ولذلك فهي تعبر عن مركز تلخيص ابن البنا في ميداني التعليم والتأليف، ونستعرض ـ الآن ـ 28 من الدراسات حوله :

أ ـ «اللباب في شرح تلخيص أعمال الحساب»، تأليف السراقي : عبد العزيز بن علي بن داود الهواري، ت حدود 745 /[18] 44 ـ 1345.

17) «المقدمة» ص 422.

18) «هدية العارفين...» تأليف اسماعيل باشا البغدادي، تصوير مكتبة المثنى في بغداد بالأوفسيت 1/ع 582، ونقل عن السراقي ابن غازي في شرح المنية ـ آتي الذكر ـ ص 7 من الملزمة 21.

وهو من تلاميذ ابن البنا، ويبدو من بعض فقرات الشرح أنه مغربي، وقد يكون منسوبا إلى بني مسرت : فخذ من قبيل مديونة قبلة فاس[19].

منه مخطوطة خ،ع،ق 846.

وأخرى خ،س 2186 ضمن مجموع، وخالية من اسم المؤلف.

وثالثة في مكتبة الزاوية الحمزية ثانية مجموع رقم 145.

إلى نسخ أخرى في تونس والظاهرية والإسكوريال وأكسفورد.

ب ـ «تحصيل المنى في شرح تلخيص ابن البناء، تأليف المواحدي : يعقوب بن أيوب بن عبد الواحد الجزولي، كان حيا عام 784 / 1382.

يشير في افتتاحيته إلى أنه أخذ تلخيص ابن البنا في حاحة سنة 755 هـ، ثم اضطلع بتدريسه سنة 761 هـ، ويذكر في طالعة كتابه الآخر : «نزهة العقول الذكية» ـ آتي الذكر ـ أنه جمعه ببلد فشتالة (من تادلا) سنة 784 هـ.

من مخطوطات خ،ع،د 2807.

ح،ع،ق 1081 : أول مجموع.

مكتبة الزاوية الحمزية : أول مجموع رقم 145.

الخزانة الناصرية بتمكروت : أول مجموع رقم 3046 : مبتور الأول.

---

19) انظر عبد الله كنون في كراسة ترجمة عثمان السلالجي، رقم 11 من سلسلة «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، مطبعة كريماديس بتطوان : ص 6.

ج ـ «التمحيص في شرح التلخيص» لابن هيدور : علي بن عبد الله بن محمد التادلي ثم الفاسي، ت 816 / «1413»[20].

خ،ع،ج 112.

خ،ع،ج 862.

خ،س 252 : في سفرين.

خ،س 2425 : مبتور ـ يسيرا ـ من أوله وآخره.

خزانة الجامع الكبير بوزان 1188 : ثاني مجموع.

د ـ ولابن هيدور «تقييد على رفع الحجاب» لابن البنا باسم «إيضاح سر الحساب»، ولا يعرف ـ الآن ـ إلا من خلال إشارة المؤلف له في شرحه «التمحيص»، ثم من جهة ذكره عند ابن القاضي[21].

☆ ☆ ☆

هـ ـ ومن الشروح على تلخيص ابن البنا خارج المغرب : «شرح ابن زكرياء» : محمد بن زكرياء الغرناطي، كان بقيد الحياة بعد 773 / «71 ـ 1372»[22]، ثم توفي سنة 03/806 ـ 1404.

---

20) ترجمته عند الكتاني في «سلوة الأنفاس...» ط.ف ـ 311/3، وسنكتفي بهذا المصدر في هذه الترجمة وأشباهها، حيث يذيل التراجم بتحديد مصادرها.

21) «درة الحجال...» نشر دار التراث بالقاهرة رقم 1280، مع «جذوة الاقتباس» رقم 528.

22) «ألف سنة من الوفيات» «دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر» ص 92، والقصد إلى شرف الطالب لابن قنفود، حيث أشار إلى مرور ابن زكرياء بفاس بعد سنة 773 هـ، ثم ذكره ابن القاضي في «لقط الفرائد»، مسميا له بأبي بكر يحي بن عبد الله بن زكرياء القاضي، وأرخ وفاته بعام 806هـ، حسب «نفس المصدر»، ص 233، غير أن تسميته بمحمد هي الواردة في مخطوط عتيق من شرحه للتلخيص.

مخطوط في اكسفورد، ومنه نسخة عتيقة مبتورة الطرفين : في خزانة خاصة بالرباط.

و ـ «حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب» لابن قنفذ : أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب القسطيني، ت 810 / 1407 ـ 1408[23].

من مخطوطات خ،ع،د أول مجموع رقم 423، ونسب ـ غلطا ـ لابن هيدور في فهرس بروفنسال.

خ،ع،د : أول مجموع رقم 1678.

خ،ع،د : رقم 2955.

خ،ع،ك : ثاني مجموع رقم 1070.

ز ـ واختصر ابن قنفد من حط النقاب شرحا وجيزا باسم «التخليص في شرح التلخيص».

خ،ع،ق : خامس مجموع رقم 939.

الخزانة الناصرية بتمكروت : رابع مجموع رقم 1753.

حـ ـ «شرح تلخيص أعمال الحساب» تأليف العقباني : سعيد بن محمد بن محمد التلمساني، ت 811 / 1408.

ولا يعرف ـ الآن ـ إلا من خلال ذكره في ترجمة مؤلفه[24].

---

23) مصادر ومراجع ترجمته عند عادل نويهض في معجم أعلام الجزائر، نشر مؤسسة نويهض الثقافية في بيروت ـ ص 268 ـ 269.

24) المصدر ص 236 ـ 237، على أن البعض يشير إلى نسخة منه بالاسكوريال رقم 935.

ط ـ «حاوي اللباب شرح تلخيص ابن البنا في الحساب» لابن المجدي : أحمد بن رجب بن طيبغا القاهري، ت 850 / 1446 :[25] من مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في بغداد رقم 5505[26].

ي ـ «شرح تلخيص أعمال الحساب» تأليف الحباك : محمد بن أحمد بن أبي يحي التلمساني، ت 867 / 1463.

مذكور عند ترجمة مؤلفه[27]، ومنه مخطوطة في خزانة خاصة بفاس.

ك ـ «شرح تلخيص أعمال الحساب» للغربي : محمد بن أحمد بن حسن[28] ؟

خ،ع،د : رابع مجموع رقم 328.

ل وم ـ شرحان مطول ومختصر على تلخيص أعمال الحساب : كلاهما من تأليف القلصادي : علي بن محمد بن محمد القرشي، الأندلسي البسطي، ت 891 / 1486[29].

ويجمعهما ـ معا ـ مجلد من مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس رقم 2464، ويحمل ثانيهما اسم «تقريب الأقصا من مسائل ابن البنا».

---

25) ترجمته عند السخاوي في «الضوء اللامع» 300/1 ـ 302.

26) «الكشاف عن مخطوطات الأوقاف» ص 210، مع «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد» 102/4 ـ 103.

27) «معجم أعلام الجزائر» ص 119 ـ 120.

28) عند الونشريسي في «المعيار» ط.ف 31/4 : «وسئل الفقيه الغربي شارح تلخيص ابن البنا...»، ولا نعرف له ترجمة.

29) له ترجمة موسعة عند التنبكتي في «نيل الابتهاج» ط. القاهرة على هامش الديباج ص 209 ـ 210.

ومن الشرح المختصر وحده : مخطوطة خ،ع،ك : أول مجموع رقم 1070.

ن ـ ونختم هذه اللائحة بالإحالة على شرح لم يذكر مؤلفه، ويحمل اسم «تخصيص أولي الألباب في شرح تلخيص أعمال الحساب».

من مخطوطات المكتبة العامة بتطوان رقم 844.

☆ ☆ ☆

تنتقل ـ الآن ـ إلى لون آخر من اهتمامات المختصين بتلخيص ابن البنا، ويأتي ذلك عن طريق نظم مسائله في أرجوزات، قصدا لتسهيل تحصيله بواسطة ترجيزه.

ص ـ وكان أول ما ظهر من ذلك «نظم تلخيص أعمال الحساب» لابن مرزوق الحفيد : محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني، ت 842 / 1438.

ولا يعرف ـ الآن ـ إلا من خلال ذكره عند ترجمة ناظمه[30].

ع ـ ثم «منية الحساب» لابن غازي : محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي نزيل فاس، ت 919 / 1513[31].

ف ـ «نظم تلخيص أعمال الحساب» للونشريسي : عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الفاسي، ت 955 / 1549[32].

---

30) «معجم أعلام الجزائر» ص 290 ـ 292.

31) «سلوة الأنفاس» 73/2 ـ 74.

32) «المصدر» 146/2 ـ 148.

أشار لـه ابن القـاضي[33]، وذكره الصبـاغ، واقتبس منـه ستـة أبيـات أثناء باب جمع العدد الصحيح من شرحه لمنيـة الحسـاب آتي الـذكر عنـد رقم 19.

غير أن الباقي من هذه المنظومات هي أرجوزة «منيـة الحسـاب» لابن غازي : 439 بيتا، وإلى جانب أصلها : استمرت عمدة الدارسين للرياضيـات من عصر نـاظمهـا حتى مطـالـع القرن العشرين، ويعرف ـ الآن ـ من التعليقات عليها أربعة :

ض ـ شرح المؤلف بـاسم «بغيـة الطـلاب في شرح منيـة الحسـاب» : منشور بالمطبعـة الحجريـة الفـاسيـة من عـام 1317 هـ : 248 ص في قطع متوسط، ومن مخطوطـاتـه واحـدة خ،س 9966 بخـط محمـد العربي بن أحمـد بنيس، أخ محمد بنيس مؤلف نزهة ذوي الألباب، آتية الذكر عند رقم 20.

ق ـ «إدراك البغيـة لحـل ألفـاظ المنيـة» : اسم شرح منيـة الطـلاب للصباغ : محمد بن أحمد العقيلي، المكناسي ثم الفاسي، ت 1076 / 1666[34].

من مخطوطات خ،ع،د 114.
خ،ع،د 2290 / 1.
خ،ع،د 2943.
خ،ع،ج 118.
خ،س 3214 : متلاشية.
مكتبة الزاوية الحمزية 194 : مبتورة الآخر.

---

3) «درة الحجال» رقم 1094، ومثله في «سلوة الأنفاس» 147/2.

3) «سلوة الأنفاس» 239/1.

ر ـ «نزهة ذوي الألباب، وتحفة نجباء الأنجاب» : اسم حاشية على بغية الطلاب لابن غازي ؛ تأليف بنيس : محمد بن أحمد بن محمد الفاسي، ت 1314 / 1899[35].

منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية على هامش بغية الطلاب، سابقة الذكر.

س ـ حاشية على بغية الطلاب» لابن غازي : تأليف أقصبي : محمد بن الحاج عبد المجيد بن عبد الرحمن الفيلالي ثم الفاسي، ت 1364 / 1945[36].

من مخطوطات خ.س 7041 : مسودة المؤلف، وغير تامة التأليف.

☆ ☆ ☆

ت ـ وإلى ما تقدم نضيف مختصر تلخيص أعمال الحساب باسم «الحاوي»[37]: تأليف ابن الهائم : أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المصري ثم المقدسي سابق الذكر.

ث ـ نظم الحاوي[38] لابن الصيرفي : أحمد بن صدقة بن أحمد العسقلاني المكي ثم القاهري، ت 905 / 1500.

---

35) «المصدر» 204/1 ـ 205.

36) له ترجمة في جريدة «السعادة» بالعدد 6499 : السنة 42 : بتاريخ الخميس 28 رمضان 6/1364 شتنبر 1945.

37) جاء ذكره خلال ترجمة مؤلفه من «الضوء اللامع» 157/2، ثم في كشف الظنون ع 629.

38) في ترجمة مؤلفه من «الضوء اللامع» 316/1 ـ 319، مع «كشف الظنون» ع 629.

خ ـ شرح الحاوي[39] لابن الصيرفي.

☆ ☆ ☆

هذا إلى إشارتين لتلخيص أعمال الحساب ومنية الحساب، وهما بين الكتب التعليمية خارج المغرب.

ذ ـ فمن تونس الرصاع : محمد بن قاسم الأنصاري، ت 894 / 1489.

وكان بين أساتذته عالم مغربي استوطن تونس، فيذكر من مقروءاته على شيخه محمد بن أبي بكر : كتاب ابن البنا مرتين بشرح مؤلفه[40].

ظ ـ ويترجم المحبي[41] لأبي بكر بن علي بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي المكي، ت 1006 / 1598.

فيشير إلى محفوظاته التعليمية في طور الطلب، ويذكر بينها منظومة ابن غازي في الحساب.

☆ ☆ ☆

غ ـ وخلال القرن التاسع عشر بدأ في أوربا الالتفات لتلخيص أعمال الحساب، وكان من أوائل المهتمين به المستشرق الفرنسي أريستيد مار، فنشره ـ في روما ـ نصا عربيا وترجمة فرنسية سنة 1865[42].

---

39) «الضوء اللامع» عند ترجمة مؤلفه المشار لها.

40) «فهرسة الرصاع» مطبعة 20 مارس بتونس ـ ص 114.

41) «خلاصة الأثر...» المطبعة المصرية الوهبية 1284 هـ 88/1.

42) نجيب العقيقي : «المستشرقون» نشر دار المعارف بمصر 1964 : 219/1.

ش ـ غير أن الدكتور التونسي محمد سويسي أبدى حول هذه الترجمة ملاحظات، فكانت المبرر لإعادة ترجمة تلخيص أعمال الحساب إلى الفرنسية، ثم نشر النص والترجمة مع تقديم وتحقيق، وصدر ذلك عن المطبعة الرسمية بتونس 1969 : النص العربي 86 ص، والترجمة 112 ص.

☆ ☆ ☆

وقد أكملت هذه الترجمة 28 من المؤلفات حول تلخيص أعمال الحساب، وهذا مع رفع الحجاب : كلاهما من تأليف ابن البنا كما تبينا، ويضاف لهما من مؤلفاته الحسابية :

3 ـ «كتاب الجبر والمقابلة»، ويعرف بـ«الأصول والمقدمات»، لخصه من كتاب القرشي.

4 ـ «المقالات الأربع» في العدد، من مخطوطات دار الكتب الظاهرية رقم 3077 ـ عام.

5 ـ «القوانين» في العدد.

6 ـ «القوانين» في العدد : في كراس واحد حسب تقدير ابن قنفذ، وفي دار الكتب الوطنية بتونس مخطوط آخر مجموع رقم 345، ويحمل اسم «مسائل في الأعداد»، وقد يكون أحد رسالتي القوانين في العدد.

7 ـ «رسالة في ذوات الأسماء والمنفصلات».

8 ـ «رسالة في العمل بالعدد الرومي»[43]، من مخطوطات خ،ع،ك 1061 : أول مجموع، ونسخة أخرى خ،س 12032 : في مجموع.

ب ـ حساب الفرائض :

وقد سار المؤلفون في الفرائض على أن يجعلوا هذه المادة هي القسم الثاني بعد فقه الفرائض، وفي هذا الاتجاه نشير ـ أولا ـ إلى ثلاثة أوضاع من تأليف جمال الدين الصودي : عبد الله بن أبي بكر بن يحيى السوسي الجزولي الجذميوي، كان بقيد الحياة عام 699 /[44] 1299 ـ 1300.

9 ـ أما مؤلفاته المشار لها فهي : «نهاية الرائض في خلاصة علم الفرائض»، مطول نوه به أبو القاسم التجيبي[45] قائلا : «وهو كتاب جليل مفيد في بابه، شكره أهل المعرفة بهذا الشأن».

10 ـ مختصر نهاية الرائض باسم «كفاية المرتاض في تعاليل الفراض».

---

43) ـ جاء ذكر هذه المؤلفات ـ كلا أو بعضا ـ بالمصادر التالية :
- مقدمة «حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب» لابن قنفذ : خ،ع،د 423.
- مقدمة «التمحيص في شرح التلخيص» لابن هيدور : خ،ع،ج 862.
- «درة الحجال» لابن القاضي : الترجمة رقم 17.
- «جذوة الاقتباس» لابن القاضي : الترجمة رقم 99.
- «نيل الابتهاج» للتنبكتي ص 66.

44) ترجمته في نيل الابتهاج ص 140 ـ 141.

45) برنامج التجيبي الدار العربية للكتاب : ص 275.

11 ـ «مفتاح الغوامض في أصول الفرائض» : مختصر وجيز. وهذا وسابقاه يضم ثلاثتها مجموع ضمن مخطوطات الخزانة الناصرية بتمكروت رقم 1647، انظر التعريف بها وبمؤلفها عند الملحق 1.

12 ـ وللصودي أيضا : «شرح مختصر الحوفي»، ولا يعرف إلا من خلال إشارة لابن القاضي[46].

13 ـ وهذه خمس مؤلفات لابن البنا، انطلاقا من «كتاب عمل الفرائض».

14 ـ ثم «الفصول في الفرائض» : كراسة من 12 فصلا من مخطوطات خ،ع،ج 249 : في ثمان ورقات أثناء مجموع.

خ،س 188 : رابعة مجموع : ص 197 ـ 206.

ومخطوطة ـ أيضا ـ ضمن شرحها آتي الذكر باسم «نزهة العقول الذكية في شرح الفصول الفرضية» ليعقوب الجزولي المواحدي.

15 ـ «شرح بعض مسائل الحوفي».

16 ـ «مقالة في الإقرار والإنكار».

17 ـ «تلخيص في أحوال المدبر في سائر التركات»[47].

---

46) القصد إلى أول شرحيه لأرجوزة ابن داود التلمساني في عمل كسور الفرائض، مخطوط خ،س 8840.

47) جاء ذكر هذه المؤلفات في «جذوة الاقتباس» : الترجمة رقم 99، مع «نيل الابتهاج» ص 66، وإثنان منها عند ابن قنفذ في «حط النقاب».

18 ـ «غنية الرائض في علم الفرائض» تأليف ابن الشاط : القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري السبتي، ت 723 / 1323.

مخطوطة ضمن شرحها للقلصادي في خزانة القرويين رقم 1198 / 1[48].

☆ ☆ ☆

20 ـ ومن الفرضيين الحسابيين الذين لم يؤلفوا : الطنجي : علي بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني المكناسي اللقب، الفاسي البلد، ت 734 /[49] 33 ـ 1334.

إمام الفرائض والحساب في عصره، وبرز في تدريس مختصر الحوفي بفاس، حتى ختمه عليه السطي ثمان مرات[50].

☆ ☆ ☆

ونختم عروض حساب الفرائض بإشارة لأبي القاسم التجيبي[51]، وهو يلاحظ فيها تخصص الجزوليين في الفرائض وتحصيلها وما يتعلق بها.

ج ـ **حساب المعاملات :**

21 ـ ألف فيه ابن البنا «مقالة في مقادير المكاييل الشرعية»[52].

---

48) «فهرس مخطوطات خزانة القرويين» 275/3 ـ 277، ولابن علاق عالم غرناطة شرح على نهاية الرائض، أشار له المجاري في «برنامجه» ص 122.

49) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1267، مع «نيل الابتهاج» ص 204.

50) «درة الحجال» 134/2، مع «جذوة الاقتباس» ص 228، ثم «نيل الابتهاج» ص 243.

51) نقلها عن «رحلة» أبي القاسم التجيبي في «نيل الابتهاج» ص 141.

52) مقدمة «حط النقاب» لابن قنفذ، مع مقدمة «التمحيص» لابن هيدور، ثم «جذوة الاقتباس» رقم 99، «ونيل الابتهاج» ص 66.

ثانيا : **الهندسة :**

22 ـ القاضي الشريف شهرة لا نسبا : **محمد** بن علي بن يحيى المراكشي، ت 682 /[53] 83 ـ 1284.

ذاكره ابن البنا في مسائل من كتاب الأركان لأوقليدس...[54].

23 ـ ولابن البنا في هذه المادة ثلاث مؤلفات : أولها : رسالة في المساحة مختصرة.

24 ـ ثم كتاب في المساحة **مطول**[55].

25 ـ وثالثا : **مقدمة** على كتاب أو قليدس[56].

ومن الرسالة المختصرة في المساحة نسختان ضمن مجموعتين خ،س 4748 و 5415[57].

ونذيل على مؤلفات ابن البنا في الهندسة بفقرة لابن قنفد[58] يقول فيها : «سمعت أن الشيخ أبا عبد الله الأبلي ـ رحمه الله ـ قصده (ابن البنا)

---

53) ترجمته عند السيوطي في «بغية الوعاة» مطبعة السعادة بمصر ص 82.

54) «جذوة الاقتباس» : الترجمة رقم 99. مع «نيل الابتهاج» ص 66.

55) المؤلفان مما أشار لها في مقدمة «التمحيص»، واقتصر مؤلفا كل من «جذوة الاقتباس» «ونيل الابتهاج» على ذكر جزء في المساحات.

56) المصادر الثلاثة، مع «حط النقاب».

57) هذه الرسالة هي التي نظمها ابن ليون في «أرجوزته في التكسير»، منها مخطوطة خ،ع،د 1588 ضمن مجموع، وللأرجوزة شرحان مغربيان : تأليف أحمد ابن القاضي، ثم محمد بن أبي القاسم بن القاضي، انظر التفاصيل عند محمد المنوني : «أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي»، مجلة دعوة الحق : العدد الثاني من السنة التاسعة ص 102 ـ 104.

58) مقدمة «حط النقاب».

ليقرأ عليه، فلما اجتمع به قال له يا سيدي : ما جئتك حتى حصلت على المنطق وعلم الهندسة لأفهم بها ما عندك، قال : ووجدته يقرأ علم المخروطات، كذا حدثني بعض أصحاب الأبلي رحمه الله، وعلم المخروطات أعلى المراتب من علم الهندسة، ولهذا كانت القدماء تسمي أشكاله الأشكال العجيبة».

☆ ☆ ☆

26 ـ يضاف لهذه اللائحة اليهودي خلوف المغيلي شيخ التعاليم بفاس، حيث أخذ عنه الأبلي فنونها حتى استوفاها وحذق[59].

☆ ☆ ☆

العصر المريني الثاني

731 759

1331 1358

تابعت الرياضيات نشاطها في مغرب العصر المريني الثاني، وطغى عليها ـ أكثر ـ مادة حساب الفرائض حسب النموذجين التاليين :

27 ـ المسراتي : محمد بن علي بن داود الهواري، كان حيا عام 748 / 1347، وهو أخ عبد العزيز سابق الذكر عند رقم أمن شراح تلخيص أعمال الحساب لابن البنا.

59) «التعريف بابن خلدون» ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ص 36.

ألف «نزهة الرائض في علم الفرائض»، ورتبه على خمسة كتب تساير أبواب الفرائض، بعد ما كان درس هذه المادة على شيخه الطنجي : علي بن عبد الرحمن اليفرني، سابق الذكر عند رقم 20، فقرأ عليه مختصر الحوفي حتى فهمه بين يديه، ثم فرغ من تأليف نزهة الرائض آخر ربيع الثاني 748 هـ[60].

من مخطوطات خ،س 8389.

28 ـ السطي : محمد بن علي بن سليمان الفاسي، ت 750 / 1349.

كان ـ حسب الونشريسي[61] ـ «له اليد الطولى في فهم مختصر الحوفي وإقرائه وحل عقده»، وقد أخذه الناس عنه بالمغرب والجزائر وتونس، وهكذا يقول المجاري[62] عند ترجمة القاضي سعيد العقباني :

«أخبرني أنه قرأ عليه (السطي) جميع كتاب الحوفي : قراءة تفقه وتحقيق لأحكامه الفقهية، وتصوير لأعماله الجزئية، وذلك في شهر.

قال : وكان رفيقي السيد أبا عبد الله الشريف التلمساني، وكان شيخنا السطي لم يشتغل بالهندسة إلا قليلا، فكان يسألنا عن براهين بعض المسائل، ومن أي شكل تخرج من أوقليدس، فكان رفيقي أبو عبد الله الشريف يسبقني تارة، وأسبقه أخرى، وفي بعض السؤالات أنطق أنا وهو بالجواب في وقت واحد».

---

60) لا تعرف للمؤلف ترجمة، والمعلومات المذكورة عنه مقتبسة من شرحه الذي نعلق عليه.

61) «ألف سنة من الوفيات» ص 117.

62) «برنامج المجاري» نشر دار الغرب الإسلامي في بيروت سنة 1982 ؛ ص 130.

وكانت قراءة العقباني على السطي في المنصورة التلمسانية أيام حصار تلمسان[63].

وعن ابن عرفة يقول المجاري[64] وهو يترجم له : «ومن شيوخه الشيخ الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، قرأ عليه جملة من كتاب التهذيب قراءة بحث ونظر، وجميع كتاب القاضي أبي القاسم الحوفي قراءة بحث وتحقيق لأحكامه الفقهية، وتصوير لأعماله الجزئية، بأنواع أعماله الثلاثة : العدد والكفات والجبر والمقابلة، إلا يسيرا من آخر باب الولاء».

وفي تعبير الرصاع[65] عن ابن عرفة : «ثم لما قدم الشيخ السطي - رحمه الله - مع السلطان أبي الحسن : اجتمع (ابن عرفة) به، وطلب منه أن يقرأ عليه الحوفي، فقال له : إني لا أجد محلا للإقراء إلا في ساعة بين الظهر والعصر في باب جامع القصبة العلية، فكان الشيخ - رحمه الله - يبكر ويجلس هنالك ينتظره، فإذا قدم فتح عليه الكتاب وقرأ عليه...».

وإلى الرصاع نعقب بفقرة عن ابن عرفة والعقباني وتلميذ ثالث للسطي، فيقول عنهم ابن غازي :[66] «من تلامذة السطي الشيخ ابن عرفة : قرأ عليه الحوفية عند باب دار أبي الحسن المريني من حضرة تونس المحروسة، في خلال ما ينتظر الشيخ خروجه في وقت معلوم من كل يوم كان يلقاه فيه.

63) من «تقييد» كتبه أحمد بن الحسين بن أطاع الله على الصفحة الأولى من شرح مختصر الحوفي للعقباني : مخطوط في خزانة خاصة بفاس.

64) «برنامج المجاري» ص 145.

65) شرح حدود ابن عرفة : المطبعة التونسية سنة 1350 هـ : ص 534.

66) «الجامع المستوفي بجداول الحوفي» : مخطوط خ.س 10136 ورقة 3/ب - 4/أ.

ومنهم أبو عثمان العقباني : قرأها عليه بالمنصورة حين كان بها مع أبي الحسن المريني.

ومنهم حمامة النفزي : كان يأتي الشيخ السطي بما يتضمنه مجلسه مما يحتاج إلى تفسير من الحوفية مكتوبا في لوح، فينطلق به حمامة فينقله، حتى كمل منه الشرح الذي بأيدي الناس....».

والشرح المشار له هو الذي علق به السطي على مختصر الحوفي، وهو شرح جليل نوه به ابن خلدون[67]، ومنه مخطوطة خ،ع،ق 635 : في مجلد - من 359 ص - يشتمل على جزءين : الأول ينتهي آخر باب قسمة التركات عند ص 186، والثاني : يبتدي من باب المدبر إلى آخر الكتاب عند نهاية باب الولاء : عند ص 359.

ومنه مخطوطة أخرى خ،س 12100 : في سفر مبتور الآخر.

ومن الجدير بالذكر أن البعض يضيف لآثار السطي جدولا شاملا للوارثين على اختلاف درجاتهم، وهو منشور[68]، انظر الملحق 2.

☆ ☆ ☆

وإلى نشاط حساب الفرائض في هذا العصر : نشير إلى مؤلف في مادة الحساب والجبر لعبد العزيز المسراتي : «اللباب في شرح تلخيص أعمال الحساب»، وهو الذي سلف ذكره في هذا العرض بين شروح تلخيص أعمال الحساب لابن البنا عند رقم أ.

---

67) «المقدمة» ص 423.

68) مجلة «دعوة الحق» العدد الأول من السنة الرابعة : جمادى الأولى 1380 / أكتوبر 1960 : ص 19.

هذا إلى أن كتاب «الأصول» لأوقليدس أقرأه بفاس ـ في الفترة ذاتها ـ الشريف التلمساني : محمد بن أحمد بن علي العلواني : برسم ولده عبد الله[69].

☆ ☆ ☆

العصر المريني الثالث

759 869

1358 1465

لمع في هذا العصر زمرة من أعلام الرياضيين، كمعطيات لنشاط هذه المادة في العصرين قبله.

أولا : العلوم العددية :

أ ـ الحساب والجبر :

29 ـ ابن نبيل السبتي[70].

30 ـ تلميذه ابن الشماع : أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي المراكشي، ت 779 / 1377، وصفه السراج بالإمامة في الفرائض والحساب[71].

31 ـ تلميذ ابن الشماع : أبو يحي أبو بكر الشريف الحسني الإدريسي قاضي سبتة، ت 809 / 1407.

---

69) نيل الابتهاج ص 151.

70) «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب...» لمؤلف غير مذكور، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت التطواني، مجلة تطوان : العدد 9 سنة 1964 : ص 178.

71) «الإعلام» المراكشي عند ترجمة ابن الشماع : المطبعة الملكية، 218/2 ـ 220.

وهو أستاذ مؤلف بلغة الأمنية ومقصد اللبيب... فيذكر بين ما أقراه بسبتة الحصار، والتلخيص لابن البناء، والجبر والمقابلة لابن بدر[72].

32 ـ محمد بن أبي بكر الفاسي، استوطن تونس، وكان من الآخذين عنه بها محمد بن قاسم الرصاع، فيقول عنه في فهرسه :[73] «وقرأت عليه بلفظي كتاب ابن البنا ـ مرتين ـ بشرحه... وحضرت عليه الحصار حتى ختم مرارا... وقرأت عليه ابن بدر، والياسمينية في الجبر والمقابلة، ولازمته سنين في هذه العلوم، وكانت بين يديه مشايخ في هذه العلوم».

☆ ☆ ☆

وبين الحسابيين المؤلفين في هذا العصر نشير إلى أربعة : ثلاثة منهم سبق ذكرهم عند استعراض الشارحين لتلخيص ابن البناء، وهم :

33 ـ عبد العزيز بن علي المسراتي، مؤلف «اللباب في شرح تلخيص أعمال الحساب» : رقم أ.

34 ـ يعقوب بن أيوب المواحدي، مؤلف «تحصيل المنى في شرح تلخيص ابن البناء» : رقم ب.

35 ـ علي بن عبد الله : ابن هيدور : مؤلف «التمحيص في شرح التلخيص» : رقم ج.

وألف في الأوفاق العددية «بهجة الإشراق في صنعة الأوفاق»[73.ك].

72) «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب»، مجلة «تطوان» بالعدد [illegible] ص 185، 193.

73) ص 114.

73) ك أشار له في «التمحيص» قبل قول المتن : «والفرد على نوعين».

36 ـ والرابع هو المكناسي شهرة : محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليفرني الفاسي، ت 817 / 14 ـ 1415.

اشتهر بأرجوزته التي ذيل بها على أرجوزة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، غير أنها لا تعرف ـ الآن ـ سوى من خلال إشارات لها عند السيتاني[74]. وابن غازي[75] والمنجور[76].

ب ـ **حساب الفرائض :**

ـ يعقوب بن أيوب المواحدي، سابق الذكر عند رقم ب.

ألف «نزهة العقول الذكية في شرح الفصول الفرضية»، شرح بها رسالة الفصول لابن البنا، سالفة الذكر عند رقم 14.

من مخطوطات خ،ع،د 493 : ثالثة مجموع.

خ،ع،ق 1081 : قطعة منها ثانية مجموع.

37 ـ الونشريسي : الحسن بن عطية التجاني ثم المكناسي، كان حيا قرب 790 / 1388[77].

---

74) أواخر شرحه للقصيدة التلسانية آتي الذكر عند رقم 40.

75) بغية الطلاب في شرح منية الحساب ط.ف : ص 1 من الملزمة 24، فيقول عن المترجم : «الشيخ أبو عبد الله المكناسي، المتزيد عام خمسة وثلاثين وسبعمائة، المتوفى عام سبعة عشر وثمانمائة، وهو تلميذ الإمام العقباني، وجد صاحبنا قاضي الجماعة بفاس لوقتنا»، ونحوه ـ مع بعض مخالفة ـ في «درة الحجال» رقم 801، ثم في «جذوة الاقتباس» رقم 219.

76) «فهرس أحمد المنجور» نشر «دار المغرب» 1396 / 1976 : ص 43، وهذا المصدر هو الذي يشير إلى أن أرجوزة المكناسي ذيل بها على أرجوزة ابن الياسمين.

77) له ترجمة موسعة في «اتحاف أعلام الناس» 3/3 ـ 4.

نظم «أرجوزة» في المادة ذاتها، حيث لا تزال مخطوطة خ،ع،ق 1081 آخر مجموع، إلى نسخ أخرى بالخزائن المغربية.

38 - وهي التي شرحها علي بن الحسن بن علي التازي الدار، الأورائي النسب.

من مخطوطات خ،ع،ق 930 : في مجموع ص 533 ـ 718، إلى نسخ أخرى بالخزائن المغربية.

39 - الرجراجي : عمر بن موسى بن محمد الفاسي، ت 810 / 1408.

امام في الفرائض والحساب، وأستاذ مختصر الحوفي، قال ابن القاضي :[78] «وإليه تنسب شجرة دين الأجنبي من كتاب أبي القاسم الحوفي»، ولحسن الحظ فإن السيتاني ـ آتي الذكر ـ احتفظ برسم هذه الشجرة أواخر شرحه للقصيدة التلمسانية[79]، ثم إبن غازي في الجامع المستوفي بجد اول الحوفي[80].

وهؤلاء ثلاثة من شراح القصيدة الفرضية التلمسانية، نظم التلمساني : إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري مستوطن سبتة[81]، وسبقت الإشارة له عند التعليق رقم 6.

---

78) «جذوة الاقتباس» عند ترجمة الرجراجي رقم 563، وبشكل أوضح في «درة الحجال» رقم 1197.

79) سيرد التعريف بهذا المصدر عند ذكر مؤلفه بالترجمة رقم 40.

80) مخطوط خ،س 10136 : ورقة 5/أ.

81) ترجمته في «الإحاطة» نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 326/1 ـ 329.

40 ـ وأولهم هو السيتاني : يعقوب بن موسى بن يعقوب بن عبد الرحمان الفاسي، كان حيا عام 815 / 1413[82].

ويحمل شرحه اسم «منتهى الباني ومرتقى المعاني...».

مخطوطة خ،ع،ك 702.
خ،س 1569.
خ،س 1750.
خ،س 2123.

41 ـ ثم ابن جابر : محمد بن يحي بن محمد الغساني المكناسي، ت 827 / 23 ـ 1424.

وقف ابن زيدان على الجزء الأول من شرحه للتلمسانية، وأفاد منه في ست تراجم[83].

42 ـ ثم الفارسي : عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن عمر بن موسى الورتناجي من أخماس تازا، كان بقيد الحياة عام 866 / 1462[84]،

---

82) له ترجمة قصيرة في «جذوة الاقتباس» رقم 650، غير أن ابن القاضي يسمي المترجم بيعقوب بن عبد الله، على حين يسمي المؤلف نفسه بيعقوب بن موسى بن يعقوب بن عبد الرحمن، حسب طالعة وخاتمة شرحه للتلمسانية، حيث فرغ من تأليفه عشية الاثنين 4 ذى القعدة 815 هـ.

83) «إتحاف أعلام الناس» : 312/1 ـ 313.
588/3 مع 590 عند ترجمة ابن جابر.
498/4.
455/5 : حيث يشير للجزء الأول من شرح ابن جابر.

84) لا تعرف له ترجمة، وهو ناظم الأرجوزة الطبية المعروفة باسم «الفارسية»، حيث جاء في طالعة مخطوطة «خاصة» منها إضافة تصف ناظمها بـ(الورتناجي من أخماس تازا).

اعتمد في تعليقه على التلمسانية شرح السيتاني آنف الذكر، وفرغ منه غدوة يوم الجمعة 29 من ذي الحجة 866هـ، ومنه، مخطوطة خ،س 270 : ثانية مجموع.

☆ ☆ ☆

43 ـ وبين الفرضيين الذين لم يؤلفوا نشير إلى الأسماء التالية : بدءا من الأنفاسي : سليمان بن يوسف بن عمر الفاسي، ت 779 / 1377[85].

44 ـ محمد المكناسي، هكذا أورده ابن جابر المكناسي في شرح القصيدة التلمسانية كأحد أشياخه، محليا له بالشيخ الفقيه العدل الفاضل المعلم الفرائضي، وذكر أنه أثنى له على كتاب الإيضاح لابن ثابت في الفرائض[86].

45 ـ التلاجدوتي : علي بن يوسف دعي يشو المكناسي، ترجمة ابن زيدان[87]، وذكره السيتاني[88] حيث كان يجمعهما ـ معا ـ مجلس أستاذهما محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليفرني، سابق الذكر عند رقم 36.

وهو من أشياخ كل من ابن جابر[89] وأحمد بن سعيد[90] الحباك والقوري[91] المكناسيين.

85) ترجمته في «سلوة الأنفاس» 156/3 ـ 158.

86) «إتحاف أعلام الناس» 588/3.

87) «المصدر» 455/5.

88) أواخر شرحه القصيدة التلمسانية سابق الذكر عند رقم 40.

89) إتحاف أعلام الناس 590/3.

90) «المصدر» 314/1.

91) «المصدر» 595/3.

46 ـ المكناسي شهرة : عبد الله بن محمد اليفرني الفاسي، ت 856 / 1452.

من شيوخ مختصر الحوفي بفاس[92]، وله عليه تقييد أجاد فيه[92.ك].

☆ ☆ ☆

نذيل على هذا العرض بالتعريف بطريقة جديدة ظهرت في حساب الفرائض، وهي تسير على تجزئة فريضة الميراث إلى أقل عدد لا كسر فيه.

وكان مبتكر هذه الطريقة هو أبو القاسم القرشي : عبد الرحمن بن يحي نزيل بجاية[93]، وله فيها «مقالة» هي التي شرحها ابن صفوان : أحمد بن إبراهيم بن أحمد المالقي، ت 773 / 1362[94]، وسمى شرحه «كفاية الفارض المرتاض في التنبيه على ما أغفله جمهور الفراض»، منه مخطوطة مبتورة الآخر في مكتبة الزاوية الحمزية رقم 376.

وبعد ابن صفوان يأتي العقباني : سعيد بن محمد التلمساني، سابق الذكر بين شراح تلخيص ابن البنا رقم حـ، وهو ـ أيضا ـ شارح مختصر

92) سلوة الأنفاس، 303/3.

92) ك «نيل الابتهاج» ص 333.

93) كان الذي ذكر اسمه ـ كاملا ـ هو أحمد ابن القاضي في مطلع كتابه «الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض» : مخطوط خ.س 8840، حيث سترد الإشارة له خلال هذا العرض.

94) ترجمته وبعض مصادرها عند ابن فرحون في «الديباج» نشر دار التراث بالقاهرة 193/1 ـ 195.

الحوفي[95]، فينوه ـ في شرحه الأخير ـ بالطريقة الفرضية الجديدة ويتفنن في تكيلها، حيث يقدم ذلك في هذه الفقرة :[96]

«واستنبط الأستاذ أبو القاسم القرشي طريقة تحذر فيها أن تخرج الفريضة على هذا الوجه، بل لا تخرج في تلك الطريقة إلا من أقل عدد تصح منه بلا كسر، وهي طريقة بديعة، وما أراها إلا من اختراعه لم يسبقه بها غيره، إلا أنه لم يضع منها سوى ما يتعلق بوضع أصل الفريضة أو بعمل المناسخات، فلما وقع بيدي كلامه فيها ـ وهو مما حملني على وضع هذا الكتاب لأخلص تلك الطريقة وألخصها ـ تصفحت ما وضع وتأملته، فتخيل لي منه كيفية عمل جميع أبواب الفرائض بتلك الطريقة... فتممت الطريقة، وأوضحت كيفية جريانها في كل باب من أبواب الفرائض...».

47 ـ وإلى العقباني نشير إلى أربع موضوعات في قواعد هذه الطريقة الجديدة : بدءا من تأليف لمغربي يحمل اسم «تذكرة الألباب في الجمع بين العدد والفرائض والحساب»، تأليف الصنهاجي : محمد بن أبي عبد الله بن سعيد الفاسي نزيل غرناطة، قال عنه الجاري :[97] «وهو كتاب غريب النوع، جمع في فرائضه بين طريقة الفراض والقرشي والطنجالي»، وهكذا : فإن هذا المصدر يعرف بكتاب «تذكرة الألباب»، ويشير إلى طريقة أخرى للطنجالي لا نزال لم نعرف تفاصيلها.

---

95) من مخطوطات القرويين 311 و1186، مع خ.س 3112، وكان تأليفه أيام قضاء المؤلف بسلا، حسب وفيات الونشريشي : «ألف سنة من الوفيات» ص 137، ويقول عنه ابن صعد : «لم يؤلف شرح على الحوفي مثله» حسب الجاري في برنامجه.

96) عند ورقة 22/ب من مخطوط خ.س.

97) «برنامج الجاري» ص 128 : عند ترجمة الصنهاجي.

ومن تلمسان نذكر «منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح»، تأليف ابن زاغو : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني، ت 845 / 1441[98].

ومن الجهة ذاتها : أرجوزة ابن داود : أحمد بن علي بن أحمد البلوي الأندلسي نزيل تلمسان، ت 938 / 1532.

وهي التي علق عليها ابن القاضي : أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العافية المكناسي ت 1025 / 1616، وجاء شرحه يحمل اسم «الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض»، من مخطوطات خ،س 8840.

ولتركيز طريقة القرشي صارت تستخدم في تدريس مختصر الحوفي مع الطريقة القديمة، وذلك ما يبرزه القلصادي وهو يعرض مقروءاته بتلمسان، ومنها أخذه لنفس المختصر على ثلاثة من أساتذته التلمسانيين : عيسى الرتيمي[99]، ثم يوسف الزيدوري[100]، وثالثا : قاسم العقباني :[101] ثلاثتهم درس عليهم مختصر الحوفي بطريقتي التصحيح والكسور.

☆ ☆ ☆

98) «رحلة القلصادي» نشر الشركة التونسية للتوزيع 1399 / 1978 : ص 102 ـ 106 ؛ عند ترجمته.

99) نفس «المصدر» ص 98 ـ 99 : عند ترجمته.

100) «المصدر» ص 100 ـ 101 : عند ترجمته.

101) «المصدر» ص 106 ـ 107.

ثانيا : **الهندسة :**

ـ ابن هيدور : علي بن عبد الله المتكرر الذكر، ألف رسالة وجيزة جامعة لأصول صناعة المساحة[102].

ـ ومن المهندسين الذين لم يؤلفوا : ابن الشماع : أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي المراكشي[103]، سابق الذكر عند رقم 30.

48 ـ **يعقوب المصمودي** نزيل تونس، ت حدود 850 / 46 ـ 1447 بعد ماانتقل إلى الشام، وهو من أساتذة محمد بن قاسم الرصاع، فيذكر عنه أنه كانت له معرفة بكتاب أوقليدس[104].

الرباط : محمد المنوني

102) أشار لها أوائل شرحه لتلخيص ابن البنا.

103) «الإعلام» المراكشي 219/2.

104) «فهرست الرصاع» ص 130 و136.

توضيحات :

المصادر والمراجع الواردة بالهوامش تذكر وضعيتها عند الإحالة الأولى : مخطوطة ومكانها ورقمها، أو منشورة مع ذكر المطبعة أو الناشر وبلد ذلك.

وترد إشارات لأماكن المخطوطات هكذا :

خ،ع،د : قسم حرف الدال من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ،ع،ك : قسم حرف الكاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ،ع،ق : قسم حرف القاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ،ع،ج : قسم حرف الجيم من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ،س : الخزانة الحسنية بالرباط.

وبالنسبة للمطبوعات الحجرية الفاسية : ط.ف.

ملحـــق 1

- **نهاية الرائض في خلاصة الفرائض** - تأليف عبد الله بن أبي بكر بن يحي بن عبد السلام الجدميوي الصودي الطديقي السمكاني نزيل الاسكندرية، كان بقيد الحياة عام 699 هـ.

بخط أندلسي دقيق مليح عتيق، ويقع عند فاتحة مجموع رقم 1647 في الخزانة الناصرية بتمكروت.

وقع الفراغ من تأليفه في 27 من شهر ربيع الأول سنة 696 هـ بالاسكندرية، ومن انتساخه يوم الأحد 12 ربيع الأول عام 702 هـ.

والكتاب - كما سنتبين - من النوادر التي لا يعرف لها - لحد الآن - وجود في مكان آخر، وسنتعرف على أهميته البالغة بواسطة إيراد فقرات من افتتاحيته وخاتمته، وهكذا يقول المؤلف عن ظروف تأليف نهاية الرائض :

«أما بعد : فهذا مختصر بعثني على جمعه وتلخيصه من علم المواريث والفرائض على مذهب حبر الأمة... مالك بن انس المدني الأصبحي... من سألني العناية به من أصحابنا من طلبة العلم، وما رأيت من قصور هم أهل زماننا عن هذا العلم.

وقد بدأت جمعه بمجاورة الخليل، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، وكملته بثغر الاسكندرية كلأها الله».

وعن منهجه في تصنيف الكتاب يقول : «وضمنته فوائد ما تفرق وانتشر في المبسوطات من الكتب الطوال، على الاختصار دون الإكثار، مما لابد منه للمبتدي، ولا غنى عنه للمنتهي : من الأصول الكلية، والقواعد

الجلية، والضوابط المحكمة، والهيمات الجارية من الكتاب مجرى التوطئة والأساس، وملفقات الفرائض ومنسوباتها، وملحها وجواهرها، ونوادرها وشواردها، ومعضلاتها وأغاليطها، وأغربها وأعجبها، ونبذا من نظائرها ومعاياتها، ورياضاتها ونسبياتها، ومتشابهاتها ومحاكاتها، على (وجه) من الضبط دون البسط ـ ما ليس في مجموع ولا مختصر بانفراده.

ورتبت أبوابه وفصوله وتأسيس أصوله أحسن ترتيب، ولخصت معانيه أحسن تلخيص، وحررت حساب مسائله أمكن تحرير، وعريت فصوله من التطويل وكثرة الأقاويل، ومثلت مسائله حسبما يقتضيه العمل من التهذيب والترتيب، ونبهت فيه على كل معنى خفي لطيف، لم يورد له قبل في أكثر التصانيف ذكر، وأضفت إلى ذلك جملة قانونية من المسائل الحسابية والحكمية، مما خالف فيه مالك زيد بن ثابت ومعاصره من الأئمة، والشافعي وغيره مالكا...

وجميع ما يأتي فيه من الأصول والأعمال المجردة واللواحق العارضة. والمسائل والمنسوبات. واللغزيات ـ فن أقاويل العلماء أخذته، ومن كتب القدماء جمعته، ومن مشايخي سمعته وحررته وقيدته بالمغرب والاسكندرية ومصر، وفي زمان إقبالي على الاشتغال والاجتهاد...

وحصرت المقصود منه في ثلاثين فصلا تشتمل عليها خمسة أبواب».

وإلى هنا تنتهي مقتبسات افتتاحية «نهاية الرائض»، وجاء في آخره في خاتمة ملحقة :

«عدة الكتب التي جمع منها هذا التصنيف نيف وثلاثون ديوانا : من كتب المالكية والشافعية من أهل هذا الشأن».

وبعد ما عرض المؤلف أسماء هذه الدواوين قال : «مع أني زدت جملا من القواعد والضوابط والتلخيصات، مما سمعته من مشايخي الثلاثة الفقهاء الفضلاء : أبي سليمان داوود بن علي الحيحاي ينول لمطة من أقصى المغرب سنة ثلاث وستين وستمائة، وأبي الطاهر إسماعيل بن يوسف الرعيني الإشبيلي، بثغر الاسكندرية المحروسة سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وأبي محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري بمدينة مصر سنة أربع وسبعين وستمائة.

ومعظم الفضل للأول، وعليه أتقنت الحساب، والكافي في الفرائض، وأنا ـ يومئذ ـ ابن عشرين سنة أو أقل منها، رضي الله عنهم».

ـ **مختصر نهاية الرائض** ـ لعبد الله الصودي مؤلف الأصل، ويحمل اسم «**كفاية المرتاض في تعاليل الفراض**».

بنفس الخط وفي نفس المجموع اثر سابقه، وجاء في آخره : «كمل التقييد والمقابلة، والحمد لله حق حمده، وذلك في أواخر شهر محرم، مفتتح خمسة وسبعمائة، قيده ـ بيده ـ لنفسه : العبد الفقير إلى الله تعالى، الغني به : يوسف بن علي الطرطوشي[☆].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الكاتب هو ـ نفسه ـ ناسخ المؤلفين قبل هذا وبعده، حيث أن الخط يسير على نسق واحد في سائر المجموع الذي يستوعب الموضوعات الثلاثة، غير أن الناسخ اكتفى بتسجيل اسمه مرة واحدة.

☆) عالم معروف، انظر عنه : محمد المنوني : (المولد النبوي الشريف في المغرب المريني)، مجلة «دعوة الحق»، العدد الأول، السنة 12 ـ ص 123، تعليق رقم 48.

- **مفتاح الغوامض في أصول الفرائض** : مختصر وجيز للصودي أيضا.

نفس الخط وفي نفس المجموع، وجاء في آخره : «كمل التقييد، والحمد لله، وكان الفراغ منه في الخامس لشهر ذي القعدة، عام أربعة وسبعمائة».

وهذا الكتاب وسابقاه من النوادر، وكانت ثلاثتها لا تعرف إلا بواسطة أبي القاسم التجيبي، وهو يقول عنها في برنامجه بمناسبة قراءتها على مؤلفها :

«كتاب نهاية الرائض في خلاصة الفرائض، تأليف الشيخ الفقيه الفرضي الحسابي، العابد الزاهد الصوام القوام : جمال الدين، أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد السلام، المغربي ثم الجدميوي الصودي نزيل الاسكندرية...

قرأت جميعه عليه بالمسجد المنسوب لأبي الدرداء رضي الله عنه، داخل باب السدرة من ثغر الاسكندرية، وصح ذلك وثبت في عدة مجالس، آخرها في ليلة يسفر صباحها عن يوم السبت، التاسع لشهر ربيع الثاني، من سنة ست وتسعين وستمائة، ثم قرأت عليه جميعه بعد ذلك، وهو كتاب جليل مفيد في بابه، شكره أهل المعرفة بهذا الشأن.

كتاب كفاية المرتاض، في تعاليل الفراض، وجزء فيه مفتاح الغوامض في أصول الفرائض، كلاهما من تصنيف جمال الدين المذكور.

سمعت الكفاية عليه، ثم قرأتها أيضا، وقرأت المفتاح عودا بعد بدء عليه أيضا».

ملحـــق 2

جدول لعلم الفرائض

ان دعوى البراعة العلمية في معهد القرويين تحتاج الى بعض المستندات ولذلك راينا ان نثبت هذا الجدول الجامع الذي هو خلاصة الخلاصة لعلم الفرائض على مذهب الامام مالك، ان هذا الجدول شاهد ببراعة واضعه وتضلعه في علم الفرائض والعدد وناقل هذا الجدول المرحوم ج. محمد راغون التطواني بخطه لم يعرف واضعه فكتب عليه ما نصه قيل انه ينسب لحافظ المذهب المالكي الامام ابن عرفة ، ولكن يغلب على الظن انه من وضع شيخ ابن عرفة وشيخ ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب الذي هو رئيس مشيخة فاس الحافظ سليمان السطي وذلك للاسباب الاتية : اولا ذكر تلميذ بن عرفة الرصاع شارح حدود ابن عرفة ان ابن عرفة قرا على السطي كتاب الحوفية في الفرائض لما وصل الى تونس مع السلطان ابي الحسن المريني وانه بين له المواضع التي توقف فيها ابن عبد السلام المشهور محمد بن شيخ ابن عرفة. ولو كان لابن عرفة جدول مثل هذا لنوه به شارح حدوده الفقيه الرصاع الذي لا يترك نكتة من نكت ابن عرفة ولا منقبة الا ذكرها . ثانيا : ان ابن خلدون في مقدمته التاريخية ذكر من علم العدد علم الفرائض وما يقتضيه من صناعة حسابية ثم قال وقد الف الناس في هذا الفن قديما وحديثا واوعبوا ومن احسن التاليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردي وغيرهم لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا ابو عبد الله سليمان السطي كبير مشيخة فاس فاوضح واوعب . ثالثا : ان الاستاذ عبد الله كنون حفظه الله ذكر في كتابه النبوغ المغربي ان السطي المذكور له جداول على فرائض الحوفي دلت على طول باعه وتضلعه من علم الحساب . — ونحن نلفت نظر اصحاب المكاتب العلمية الى هذا الجدول راجين افادتنا عن واضعه بالتحقيق لا بغالب الظن فقط ان كان لديهم علم بذلك ولهم خالص الشكر سلفا . — . التعريف بالجدول واصطلاحه

ان هذا الجدول يشتمل على الوارثين الثلاثين وما يجب لكل واحد منهم حالة انفراده وحالة اجتماعه مع غيره مع ذكر المحجوبين من الارث والحاجبين لهم . — . اما كيفية استخراج حظوظ كل وارث من مراجعة الجدول فهي ان تدخل في قطر الجدول حيث اسم الوارث الذي تبحث عن ارثه فما تجده في المحاذي له هو الواجب له حالة الانفراد . واذا نزلت منه الى بيت يلتقي فيه مع غيره وجدت فيه علامة حكم اجتماعهما الا البيت الذي يلتقي فيه الزوج والزوجة فليس فيه علامة لعدم اجتماعهما في ارث ، وكل بيت فيه علامتان فاعلاهما للوارث الاعلى وسفلاهما للوارث الاسفل وكل من ضلعي الجدول وقطره مشتمل على ثلاثين بيتا .

العلامات : 1) اللام للكل .
2) النون للثلثين . 3) الصاد للنصف . 4) الثاء للثلث.
5) الراء للربع . 6) ثم للثمن. 7) السين للسدس
8) الكاف للشركاء.
9) الميم للمحجوبين

العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد
ـ في العصر العباسي(*) ـ

د. حسين أمين

الأندلس وبغداد، مركزان مهمان من مراكز الحضارة الإنسانية امتازا بالتطور والازدهار في جميع ميادين العلم والمعرفة والفن والعمران كما امتازا بالمعاصرة، وتبادلا معظم وسائل الثقافة، فتلاقحت الأفكار وتبودلت الخبرات والمعارف وكان حصيلة ذلك كله ذلك التراث العظيم لبغداد والأندلس، الذي يتغنى به القريب والغريب وينهل من معانيه السامية كل طلاب العلم والمعرفة.

وما من شك فإن العصر العباسي الذي شهده العالم كان صفحة مشرقة من صفحات تاريخ الأمة العربية والإسلامية، وفيه غدت بغداد قبلة القصاد وكعبة طلاب الثقافة والتجارة والفن كما كانت في عصرها الأول الحصن الحصين للعالم الإسلامي ومنطلقا لجيوشها الظافرة.

(*) نص البحث الذي شارك به الكاتب في اللقاء العلمي في موضوع تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان لبن حيان بتاريخ 21ـ25 محرم 1402 الموافق 19ـ23 نونبر 1981 بالرباط.

وقد سادت بين الأندلس وبغداد علاقات نابعة من أصالة الروابط الاجتماعية والدينية والسياسية، وكانت لتلك العلاقات نتائج ذات أثر واضح في تطور مختلف مظاهر الحياة العربية الإسلامية بوجه خاص والتقدم الإنساني بوجه عام ولعل أبرز تلك الصلات هي العلاقات الثقافية.

وفي عهد ازدهار بغداد والأندلس والتطور الكبير الذي رافق مسيرة كل منهما، انتقلت الكثير من عوامل الحضارة في ميادينها المختلفة، وقام العدد من الرواد العلماء والأدباء والفنانون بزيارة المشرق والمغرب والأندلس وتمت عملية الامتزاج وانتقال التأثيرات الحضارية والتي كان لها دورها الإيجابي في ربط وتعميق العلاقات بين الاخوة في المشرق والمغرب والأندلس، وكان لذلك فعله الواضح في تعريف التراث بشكله الشامل لجميع العرب والمسلمين والعمل على حفظه من الضياع والنسيان.

ويعتبر الفنان البغدادي المعروف بزرياب هو من أولئك الرواد الذين كان لهم دورهم الفاعل في نقل مظاهر الفن والترف والتقدم الاجتماعي من بغداد إلى الأندلس، وزرياب هو علي بن نافع مولى المهدي العباسي من الموسيقيين المشاهير في عصره، كان شاعرا موهوبا، كان على معرفة بأحوال الملوك والخلفاء والأمراء وآداب مجالستهم، وكان حسن الصوت وهو الذي جعل العود في خمسة أوتار بعد أن كانت أربعة، أستاذه في الغناء إسحق الموصلي، الذي كان عالما باللغة والموسيقى والتاريخ ونادم الرشيد والمأمون والواثق العباسيين، وانتقل زرياب إلى الشام ومنها إلى الأندلس وسبقته إليها شهرته واستقبله الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي ورحب به وجعله من المقربين في بلاطه وخصص له في كل شهر مئتي دينار، واستغنى به عن عداه من الندماء والمغنيين، وأقام في قرطبة وبها اخترع مضراب العود من

الخشب وفي رأي المؤرخين أن زرياب يعتبر المؤسس الحقيقي لمدرسة الغناء والموسيقى الأندلسية كما كان لزرياب أثره الواضح في الأندلس حيث صار قدوة المجتمع الأندلسي فأحدث تبدلا واضحا في الملبس والمأكل كما طعم الحياة الاجتماعية العامة في الأندلس واداب المحادثة والمجالسة بكثير من التقاليد البغدادية. وانه نقل ألحان بغداد وأغانيها إلى الأندلس، وأدخل فنونا جديدة في الموسيقى والغناء، وعلى ذلك أخذ الشعراء في نظم الشعر الملائم لهذه الموسيقى وذلك الغناء وظل زرياب مقيما في قرطبة حتى توفى سنة 230 هـ / 845م.

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري دخل الأندلس رجل من بغداد كان له الأثر الثقافي في الأندلس ودخل قرطبة في نفس الوقت من بغداد أيضا كتاب كان له تأثيره الأدبي الرائع والذي صار المنهل العذب لكل أديب ودارس ومرجع لكل مثقف يرتشف منه روائع الأدب وأخبار المثقفين من شعراء وأدباء وفنانين. والرجل هو إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي علي القالي، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، تعلم في بغداد حيث أقام بها خمسة وعشرين سنة ورحل إلى المغرب ودخل قرطبة سنة 330 هـ / 941م أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد أكرمه الحكم المستنصر إبن الناصر وبالغ في رعايته والعناية به تقديرا لعلمه وتكريما لمكانته، وفي قرطبة أملى كتابه المعروف (الأمالي) كما انه وضع في تلك المدينة معظم تآليفه التي صارت مطلب كل المثقفين في الأندلس، وكان للقالي مكانة مرموقة بين كبار الأدباء والعلماء، وقد مدحه شاعر قرطبة أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي بقصيدته التي مطلعها :

من حاكم بيني وبين عذولي الشجو شجوي والعويل عويلي

إلى أن يقول :

ياسيدي هذا ثنائي لم أقل زورا، ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فأنا أمرؤ لم أربح غير القرب في تأميلي

ويذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة أن الرمادى روى عن أبي علي القالي كتابه النوادر. وكان تأثير أبي علي القالي كبيرا في نقل علوم اللغة والشعر والأدب في الأوساط والمجالس الثقافية الأندلسية وانتفع به خلق كثير، ولعل أبرز من أفاد منه عالم الأندلس الكبير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي والذي يعتبر أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، درس الأدب واللغة على أبي علي القالي وكان أهل الأندلس يلقبونه بالبغدادي لمجيئه إليهم من بغداد، وقد توفي أبو علي القالي سنة 356 هـ / 967م في حاضرة الأندلس قرطبة.

وفي نفس الفترة التي كان فيها أبو علي القالي يعطي بسخاء من علومه وأدابه ومعارفه، وصلت الأندلس نسخة خاصة من كتاب الأغاني لابن فرج الأصفهاني إلى الحكم المستنصر، وكان هذا الكتاب من أبرز كتب الأدب، كتبه أبو الفرج في بغداد بعدة خمسين سنة، وذكر ابن خلكان أن الصاحب بن عباد كان يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب، فلما وصل إليه هذا الكتاب لم يكن بعد ذلك يستصحب غيره لاستغنائه به عنها. وقال المؤرخ ابن خلدون (ان كتاب الأغاني، هو ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيا نعلمه وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها).

لقد صار لهذا الكتاب العربي الذي أوفدته بغداد إلى الأندلس مكانته المرموقة، فأقبل على قراءته الأدباء والعلماء وتلقفه الشعراء والمغنون وانتهل منه كل طالب علم مايحتاج إليه من الأدب والمعرفة وبقي الكتاب ولما يزل تحفة التراث العربي ومتعة كل المثقفين والدارسين. هذا وقد توفي أبو الفرج الأصفهاني في بغداد سنة 356 هـ / 968م في نفس السنة التي توفي فيها أبو علي القالي البغدادي في قرطبة كما ذكرنا.

وانتقلت كتب بغداد إلى الأندلس في شتى مواضيع العلم والمعرفة وأقبل على تناولها روادها وانكبوا عليها درسا وفحصا ونقدا وتعليقا، وانتقلت تلك التآليف من الأندلس العربية الإسلامية إلى الإمارات المسيحية في الشمال ومنها إلى أوربا وهكذا أصبحت الأندلس معبر الحضارة الإنسانية والطريق الصالح لنقل تراث العرب والمسلمين إلى أوربا، وترجمت الكتب العلمية والأدبية إلى اللغة اللاتينية، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد ترجم كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر كما ترجم كتاب الحاوي للرازي كما تمت ترجمة كتب ابن الهيثم ومؤلفات الإمام الغزالي وبخاصة كتاب إحياء علوم الدين، وتعرفت أوربا عن طريق العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد على الكثير من المعارف والتجارب والمكتشفات العلمية مما سهل على الأوربيين الكثير من الجهد والوقت، وصارت أراء البيروني وابن الهيثم وابن سينا وجابر بن حيان والرازي في صلب معارف وأعمال رجال العلم في أوربا، كما أصبحت كتب العرب والمسلمين هي الأولى للتدريس في جامعاتها.

وكما وصل علماء رواد من المشرق إلى المغرب والأندلس فكان هناك نخبة من العلماء الأجلاء قاموا بزيارة بغداد وكانت وقتذاك، كعبة القصاد ومنار العلم ومتعة الدنيا، تستقطب الناس على مختلف ألوانهم وأحوالهم لما

وصلت إليه من التقدم والازدهار في كافة ميـادين الثقـافـة والحضـارة، ومن أبرز من زار حـاضرة العبـاسيين، الأديب الحـافـظ محمد بن الوليـد بن محمد الأندلسي المعروف بأبي بكر الطرطوشي المتوفى سنة 520 هـ / 1126م، دخل بغداد والبصرة وتفقـه على أبي بكر محمد بن أحمد الشـاشي مـدرس المـدرسـة النظامية، والمدرسة النظامية هي أم المدارس العراقية شيـدهـا الوزير نظـام الملك لتـدريس فقـه الشـافعيـة والتي تعتبر من أشهر المـدارس الإسلاميـة في العصر العباسي ودرس بهـا كبـار العلمـاء أمثـال (أبي إسحق الشيرازي) و (أبي حامد الغزالي) وغيرهما من أجلة فقهـاء المسلمين، كما زار الطرطوشي مـدينـة البصرة واتصل بعلمائها وأدبائها ومن ثم عاد إلى الشام واستوطن مصر.

وممن زار بغـداد من الأنـدلسيين أبو الـوليـد سلمـان بن خلف التجيبي الأندلسي الباجي، وهو من شرق الأندلس، رحل إلى بغداد فأقـام بهـا ثلاثـة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحـديث ولقي بهـا سـادة من العلمـاء كأبي الطيب الطبري الفقيه الشافعي والشيخ أبي إسحاق الشيرازي صاحب المـذهب وأول مدرسي المدرسـة النظـاميـة، كما أقـام بـالموصل مع أبي جعفر السمنـاني عـامـا يدرس عليه الفقه، ومن ثم عاد إلى الأندلس وولي القضـاء هنـاك. وتوفي أبو الوليد التجيبي بالمرية سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ومن الذين دخلوا بغـداد من أهل الأنـدلس أبو محمد عبـد العزيز بن أحمد القيسي الأندلسي، من أهل العلم باللغة العربيـة، فـاتصل بعلمـاء بغـداد فاستفاد وأفاد وتوفي هذا العالم سنة 427 هـ / 1036م.

ومن مشـاهير الأنـدلسيين الـذين وفـدوا بغـداد، أبو الخطـاب عمر بن الحسن ابن علي الأندلسي البلنسي الحافظ، وهو من أعيـان العلمـاء ومشـاهير

الفضلاء متقنا لعلم الحديث النبوي، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، زار العراق وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين وسمع بواسط من أبي الفتح محمد بن أحمد ابن الميداني، وزار أوبل في سنة أربع وستمائة فرأى صاحبها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين، فأعجب من اهتمام هذا الملك بمولد النبي ﷺ عظيم الاحتفال به، فعمل له كتابا سماه (كتاب التنوير في مولد السراج المنير) وقرأه عليه بنفسه، وقد منحه الملك مظفر الدين مبلغ ألف دينار مكافأة له على تصنيفه الكتاب، وتوفي أبو الخطاب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة.

وزار بغداد رجل له شهرته الواسعة وهو معروف عند جميع المثقفين العرب والمسلمين، صاحب الرحلة المشهورة محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي وتعتبر زيارة ابن جبير لبغداد ثروة في أخبار بغداد وتراثها، فقد أمدنا ابن جبير معلومات وافرة ومثبتة عن طرقات بغداد ودروبها وأسواقها ومتنزهاتها وقصورها ومساجدها وربطها كما أعطانا تصويرا غاية في الأهمية لطريقة التدريس المتبعة في المدرسة النظامية فمن يرجع إلى ما كتبه هذا الرحالة العربي العالم، يقف على حسن النظام والتقدم التدريسي في تلك المدرسة العظيمة والتي أدت دورها الكبير في خدمة التراث والحضارة الإنسانية.

ولعل من أبرز مظاهر الارتباط العضوي ورموز عمق العلاقات بين بغداد والأندلس ذلك العالم المؤرخ المحدث الأندلسي محمد بن فتوح الميورقي والمعروف بالحافظ الحميدي، أصله من قرطبة من ربض الرصافة، صاحب بن حزم وتتلمذ عليه، رحل إلى مصر ودمشق ومكة سنة 448 هـ / 1056م وأقام ببغداد فتوفي فيها سنة 488 هـ / 1095م. كتب الحميدي العديد من

المؤلفات ولعل أشهرها كتاب (جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس) وأخباره كثيرة في كتب التاريخ، وتوفي ببغداد ودفن في مقبرة باب ابرز والتي ضمت معظم قبور الفقهاء والعلماء البغداديين ومن أبرزهم الشيخ ابن إسحاق الشيرازي والذي دفن بالقرب من قبره، وصلى عليه الفقيه الشافعي الكبير ومدرسي النظامية أبو بكر الشاشي في جامع القصر وفي سنة 491 هـ نقل إلى مقبرة باب حرب ودفن عند قبر بشر بن الحارث المعروف بالحافي المتصوف البغدادي المشهور... وهكذا يؤكد الحميدي الأندلسي في حياته وموته على عمق العلاقات ومتانة الصلات بين بغداد والأندلس.

ومن الأندلسيين الذين كان لهم دورهم الكبير في التأثر والتأثير نتيجة الصلات المباشرة، العالم أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي والذي قال عنه ابن بشكوال في كتاب الصلة : (هو الحافظ المستجر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها). بدأ عالمنا رحلته إلى المشرق سنة خمس وثمانين وأربعمائة زار بغداد مرتين، وصحب الإمام الغزالي أشهر فقهاء الشافعية في عصره والمتوفى سنة خمس وخمسمائة للهجرة والشيخ الفقيه أبا بكر الشاشي الذي تول تدريس النظامية بعد الإمام الغزالي، وغيرهما من علماء بغداد وأدبائها، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، ويقول ابن بشكوال : (أنه قدم إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخل أحد قبله بمثله مما كانت له رحلة إلى المشرق).

ان أبا بكر المعافري الأندلسي يؤكد هو الآخر على أصالة الصلات التي كانت قائمة بين الأندلس وبغداد والإفادة من تلك الصلات من أجل تطوير العلم وازدهار الأداب والفنون، كما يؤكد على أهمية تلك العلاقات بين الأندلس العربية والمشرق العربي وتبادل المعلومات والخبرات وذاك وإم

الحق هو الطريق الأصوب لوحدة الثقافة والفكر. وتوفي المعافري بالعدوة ودفن في فاس سنة ثلاث وأربعين وخمسائة للهجرة.

وانتشرت كتب الأندلسيين في بغداد كما انتشرت كتب البغاددة، فقد انتشرت كتب المفسرين والمحدثين وكبار العلماء من بغداد أمثال الرازي وابن سينا والغزالي / وكتب الأدباء والمؤرخين والجغرافيين والمتصوفة وسائر فروع العلم والمعرفة. كما انتشرت كتب الأندلسيين، وتعرف البغداديون على الكثير من المؤلفات والنتاجات العلمية والأدبية لعلماء وأدباء الأندلس ولعل أشهر الكتب التي تداولها الناس في بغداد لتقاربها من أذواقهم وحياتهم وتراثهم كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الذي أفرد في كتابه هذا الشيء الكثير من أدب المشارقة وجمع فيه من فنون الأخبار وروائع الحكايات وبأسلوب أدبي رفيع ما جعل أهل بغداد يقبلون على قراءة الكتاب والتعرف على ما فيه من الأدب الرفيع والفن الذي يستهوي عامة الناس. ومن الغريب أن هذا الكتاب الذي يحكي في معظمه عن أدب وأخبار المشارقة مقتبسا ذلك من علماء بغداد أمثال الأصمعي والشعبي وابن قتيبة والجاحظ وغيرهم مما يدل على الارتباط وقوة الصلات الثقافية بين بغداد والأندلس، وكما كان لكتاب الأغاني دوره الكبير في نقل تراث بغداد إلى الأندلس على أهل بغداد ليتعرف العلماء والأدباء والمثقفون وعامة الناس على الجهود الثقافية لعلماء العرب والمسلمين في بغداد والأندلس.

ولعل من أبرز العوامل التي ساعدت على تطوير العلاقات الثقافية وتعميقها تشجيع الخلفاء والأمراء والحكام على طلب العلم وتيسيره، وان المؤسسات الدينية والعلمية مثل المساجد والربط والخانقاهات المنتشرة في العالم الإسلامي كان عوامل مساعدة للرحالة العلماء والأدباء في اتخاذ تلك

المراكز أمكنة للاستراحة والإقامة والإطعام لأولئك العلماء ومن يطالع كتب الرحلات يجد أخبار مفيدة عن تلك الأمكنة وما كانت تقدمه من تسهيلات كبيرة للرحالة العلماء. كما كانت المدارس الإسلامية التي تأسست في المشرق وبغداد بخاصة كان لها دورها العظيم في استقطاب العلماء والمثقفين، فإن تلك المدارس كانت تستقبل العلماء وتسهل لهم عملية إكمال تعليمهم وتوفير الإقامة الكريمة لهم وهناك أسماء عديدة من العلماء من مختلف العالم الإسلامي جاؤوا إلى بغداد ودخلوا مدارسها كالنظامية والمستنصرية وعاشوا فيها منتهلين من علوم تلك المدارس ومتعرفين على مجتمع بغداد وتقاليد وعادات الناس ومن ثم يعودون إلى أوطانهم والكثير منهم صار لهم شأن كبير في التاريخ.

هذه لقطات حية من تراث العلاقات الثقافية التي كانت قائمة بين بغداد والأندلس في العصر العباسي والتي تبرز دور العلم والعلماء في حياة المجتمع وتقوية الروابط ين العرب والمسلمين في عصر كانت فيه وسائل النقل غاية التخلف، ولكنها كانت صفحة مشرقة من صفحات الكفاح من أجل تحقيق الأهداف النبيلة التي يستهدفها العلم ويطلبها رجاله الكرماء.

بغداد   د. حسين أمين

بمناسبة ذكراها العشرين بعد الخمسمائة

30 رمضان 894 هـ 27 غشت 1489م

معركة وادي المخازن الصغرى

قصة سد القصب الذي عبأ امبراطورية البرتغال كلها !

جزيرة المليحة - العرائش - المغرب

د. عبد الهادي التازي

يقول ابن القاضي في مخطوطته «المنتقى المقصور على مآثر المنصور» عن معركة وادي المخازن الشهيرة عام 986 = 1578 إنها أشبه بغزوة بدر وأنه كان يكفي في بلاد المشرق أن يقدم المواطن المغربي على أنه ينتسب لبلاد وقعة وادي المخازن ليحظى بضروب التكريم والتقدير.

وقد جرت تلك الموقعة على مقربة من القصر الكبير غير بعيد عن وادي المخازن - وهو من روافد نهر لكوس - وكان من أبرز أسباب هزيمة البرتغال فيها نسف جسر كان على ذلك الوادي قطع الطريق على الجيش المنهزم نحو المحيط !

وقد مر المغرب قبل نحو من تسعين سنة من ذلك التاريخ بمغامرة برتغالية رهيبة في اتجاه العرائش حيث توغل الأسطول في لكوس إلى مقربة ملتقاه بوادي المخازن، وكان من أبرز أسباب هزيمة البرتغال فيها تلك المرة بناء حاجز في عرض النهر قطع الطريق على البرتغاليين أيضا نحو المحيط... ومن تلك المقارنات جاءتني فكرة «المخازن الصغرى» لتقديم معركة رائعة من معاركنا المثيرة التي هزت البرتغال بالرغم من أننا قد لا نعيرها كبير اهتمام !

ينبغي ونحن نقرأ في التاريخ عن سقوط مدينة سبتة في يد البرتغال عام 818 = 1415 وعن القصر الصغير عام 862 = 1450 وعن طنجة وأصيلا عام 876 = 1741... ثم عن سقوط آسفي 886 = 1481 وأزمور عام 891 = 1486...

ينبغي أن لا نتصور إطلاقا أن تلك العمليات تمت بسهولة أو بالحري أن المغاربة كانوا يستقبلون أولئك المغيرين بباقات الزهور...!

إن الأمر على العكس في ذلك، فقد شهدت كل تلك الثغور ملاحم رائعة في البطولة، فريدة في التضحية... معارك مستمرة دائمة لم تفتر طيلة أيام الاحتلال...

سوف لا نتحدث هنا عن المقاومة المغربية من أجل حماية تلك الثغور السابقة واللاحقة، ولكني أرى من المناسب أن أردد هنا على الأقل أن من واجب الذين يهتمون بأمر تلك الحروب أن لا يكتفوا بقراءة مصادرنا

المكتوبة بالعربيـة مما يتحـدث عن الصراع حول تلـك المواقع... فإن هـذه المصادر مهما حرصت على تقريب الصورة فإنها أحيانا لن تصل إلى تقديم الحقائق المهولة التي تحتفظ بها المراجع الأوروبية، وفي صدرها الأرشيف البرتغالي، الذي يتحدث عن أن الأسطول البرتغالي في هجمته على سبتة كان بإشراف الملك جان الأول ذاته وأنه كان يتألف من مائتين وعشرين قطعة... في وقت كان فيه الأسطول المغربي في طريقه إلى النهاية ! وفي وقت كان المغرب يعاني من وباء فتاك يحصد أبناءه ومن مجاعة ضروس أوهنت قواه، وبؤس حالك كان نتيجة صراع مرير على الحكم بين أبي سعيد وأخيه يعقوب، ذلك الصراع الذي كانت وراء، أيد تحركه من خارج الساحة المغربية... ألفان وخمسمائة جندي تحت إشارة دون بيدرو دي مينيزيس (Menesès) ظلوا طيلة السنين المتعاقبة يعززون مواقعهم يبنون ويحصنون، يقتلون ويشردون ويأسرون وينفون...!

تلك صورة عن سبتة، ومثلها يمكن أن يقال عن بقية البقاع من دون فارق : وهكذا فبالرغم مما أدت إليه الغارة الشنعاء على طنجة أيام الملك دون دوارت (D. Duarte) في خريف سنة 1437، فإنها قوبلت بمقاومة عنيفة من لدن القائد أبي زكري وزير السلطان عبد الحق بمساعدة أمير مراكش وأمير بادس أدت إلى أسر عدد كبير من الجنود البرتغاليين كان على رأسهم الأمير فيرناندو الذي أدركته الوفاة وهو أسير بفاس يوم خامس يونيه 1443.

وعندما خلف ألفونصو الخامس الملك السابق تجهز في أكتوبر 1458 بأسطول قوي من مائتين وثمانين شراعا وخمسة وعشرين ألف جندي...

وقد أعاد ألفونس الخامس الكرة على طنجة في عدة غارات تجشمت البرتغال في ثالثها 20 يناير 1464 مقتل أكثر من مائتي جندي إلى جانب أكثر من مائة أسير !

وفي أثناء غياب قائد أصيلة محمد بن الوزير أبي زكري بفاس من أجل إعادة الشرعية للحكم اغتنم ألفونس الخامس الفرصة لينقض عام 876 = 1471 على أصيلا وعلى طنجة بأسطول قوامه أربعمائة وسبع وسبعون سفينة تحمل أزيد من ثلاثين ألف جندي حيث دارت معارك طاحنة انتهت بأخذهم خمسة آلاف أسير كانت على رأسهم أسرة محمد الشيخ وولده محمد الذي حمل فيما بعد لقب «البرتغالي» اعتبارا للسنوات التي قضاها هناك في الأسر.

وهكذا فإن أبا مروان عبد الملك التجموعتي لم يكن على حق عندما أنحى بالأئمة على بني وطاس وهم يضطرون لترك طنجة ! عندما قال عنهم :

سحقـــا لقـــوم أسلـــوك ! وهـــل أسلم قبـــل مسلم زوجـــــه ؟!

فلقد كان الأمر أعظم مما يتصوره الشيخ التجموعتي... لقد أظهر بنو وطاس من الاستماتة في الدفاع ما خلد لهم ذكرا جميلا... ولئن قال قائل : إنهم لم يعرفوا كيف يعيشون فليس هناك من يقول إنهم لم يعرفوا كيف يموتون...!

فهل اكتفى البرتغاليون بتلك الثغور ؟ إنهم أخذوا يشعرون بأن المغاربة يخططون لإسترجاع أصيلا وطنجة سيما بعد أن أخذت الأخبار

تصل من القصر الكبير عن إعداد الرجال وبناء الحصون لمضايقة البرتغال... ولأجل هذا وذاك تقرر التوغل داخل المغرب لإحكام القبضة على البلاد من جهة، وللتمكن من فرض الضرائب على القبائل الغنية من جهة أخرى.

وهكذا فبعد أن حصلوا على الإعانات السخية من البابا بمقتضى قرار 18 يبراير 1486 عبروا البحر إلى المغرب بالرغم مما كانت تقتضيه اتفاقية الهدنة المعقودة في أصيلا عام 876 = 1471.

ولتحقيق تلك الأطماع ورد خاطر إنشاء قلعة حصينة لتهديد العرائش والقصر الكبير ثم للإجهاز على مكناس وفاس وقد تقرر بعد إجراء المشاورات والدراسات أن يختار لتشييد هذه القلعة مكان يبعد عن المحيط الأطلسي بعشرة أميال[1] في تقدير الحسن ابن الوزان (ليون الإفريقي) وهي الخمسة عشر كيلوميترا التي قطعتها بنا السيارة اليوم إلى المكان[2] الذي لا يبعد عن مصب وادي المخازن في نهر لكوس...

كان للمكان قيمة ستراتيجية كبرى ليس هذا فحسب، ولكن الموقع ذو أهمية تاريخية زائدة، فقد تأكد رجال التنقيب عن الآثار عام 1940 برئاسة

(1 Jean Léon L'Africain : Description de L'Afrique, Paris 1956. 1 p. 258 Note 421.

2) قمت يوم 25 ـ 8 1983 بزيارة هذا المكان بمساعدة رجال السلطة المحلية حيث رافقني السيد القائد إلى البقعة التي تحمل اسم (كحنا) بتسكين الكاف وفتح الحاء وتشديد النون، تحريف لكلمة الكحالنة أي الذين يضرب لونهم للكحل، وقد قرأت أن السلطان مولاي اسماعيل أسكن هنا طائفة من عبيد البخاري، وهناك تعرفنا على السيد المقدم الذي أوقفنا على الموقع الذي ما تزال آثار البناء «السويري» موجودة فيه...

الأستاذ مونتابلان (Montablan) من النظرية القديمة التي تقول أن هذه «الجزيرة» هي بالذات الجزيرة التي تحدث عنها المؤرخ الروماني الشهير پلين (Pline) والتي كان يوجد بها المعبد وهيكل هرقل، لقد ارتبط المكان بأسطورة جنة هيسپريس المغروسة بالفواكه والتفاح الذهبي أي الليمون.

وهكذا نرى أن هناك فرقا بين المكان الذي وقع عليه الاختيار لبناء الحصن، وبين البقعة التي تحمل اسم ليكسوس الأثرية[3] : الأكمة التي على يسار الخارج من العرائش في اتجاه طنجة.

إن على الراغب في الوصول إلى (الجزيرة) موضوع الحديث أن يترك مرتفع موقع ليكسوس الموجود على اليمين ويعرج يسارا ليأخذ طريق ريصانة (REXANA) مسافة لا تقل عما ذكرناه آنفا...

وقد أتى اسم (الجزيرة) من أن البقعة محصورة بين واديين.. وأنها عندما ترتفع مياهها تعزل عن باقي الأرض... وقد تغير هذا الوضع اليوم نتيجة للسد الجديد : (سد المخازن) الذي تحكم في المياه...

ولقد فهم الذين ذيلوا على كتاب ابن الوزان من اقتصاره على ذكر لفظ (الجزيرة) بدون نعت، أنها فعلا، تحمل اسما... ولذلك سمحوا لأنفسهم بالقول : إن الجزيرة لم تحمل ولا تحمل إلى الآن بالعربية سوى اسم (جزيرة) مع أن مؤرخا معاصرا للوطاسيين : أبا القاسم الكراسي، يعطيها اسم «المليحة» أي الجميلة على ما هو عليه اصطلاح المواطنين في شمال المغرب

3) أحمد المكناسي : مدينة ليكسوس الأثرية، تطوان 1961 Michel Ponsich : Lixus, Rabat 1981

عندما يعبرون عن الجمال بالملاحة، ولست أميل إلى التأويل الـذي يقول إن (مليحة) تأتي من الملح اعتبارا لأحواض الملح التي توجد عنـد مصب لكوس في المحيط..! إن هـذا الفهم مبني على الخلط في الموقـع الحقيقي للجـزيرة، وإني لأذهب إلى القول بأن الاسم الذي اختـاره ملـك البرتغـال ليطلق على الجزيرة : (كراسيوزا Graciosa) ليس إلا ترجمة للاسم المغربي العربي...

على كل حال فقد وقع اختيار الملك خوان ■ (1481 = 1495) الذي كان يهمه ـ دون شك ـ أكثر مما كانت تهمه العرائش ذاتها...

وصدر الأمر فعلا بتنفيذ الخطة مهما كان الثمن، وهكـذا فتقـديرا منـه خاطئا بـأن نهر لكوس[4] يمكن أن تمر بـه دائمـا قطع الأسطول وأغربتـه[5]، بناء على ذلك التقـدير رأى أن يتجـاوز الشـاطئ الأطلسي ويتوغل داخل الأرض على مـا قلنـا... يعني في منتصف الطريق بين مـدينـة القصر الكبير ومدينة العرائش.

---

4) ورد في طرة ص 148 للأستاذ محمد داود رحمه الله ما يلي : آلكوس ـ كما رسمها الكراسي ـ اسم للنهر الذي يصب على مقربة من العرائش، ويظهر أن اسمه هنا آت من مدينة ليكسوس المسماة عندنا بالشميش، وهي أنقاض مدينة فينيقية كانت قديما على مقربة من مصب النهر الذي سمي بإسمها، ومعنى «ليكسوس إلى آل كوس، ثم إلى لكوس، ويذكر الضابط مارتان أن لكوس محرف عن القوس نظرا المنعرجات الوادي.

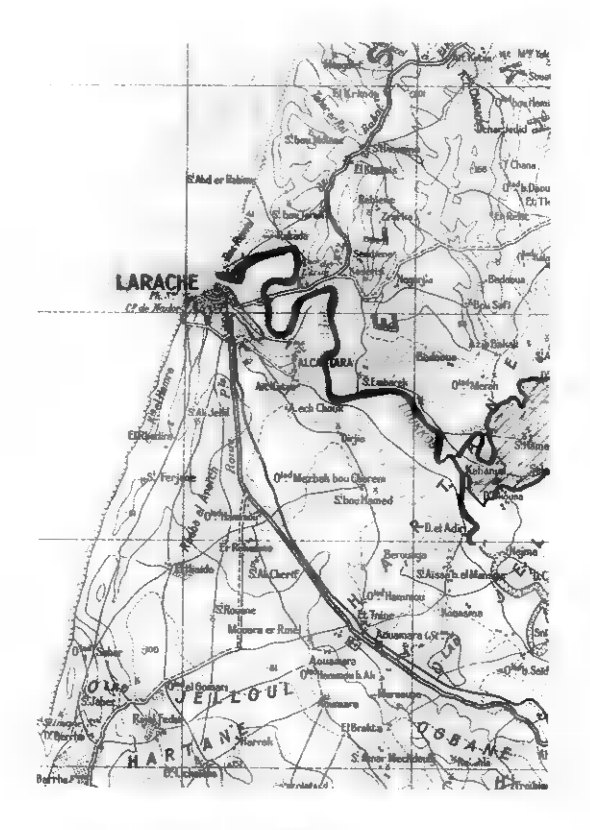
Michel Ponsich : Lixus, le Quartier des Temples Musée des Antiquites, Rabat 1981

Martin : Quatre Siecles d'Histoire Marocaine, Paris 1923 p. 562.

5) الأغربة جمع غراب، ويقصد به نوع من المراكب تحمل في البحرية البرتغالية اسم (les Caravelles) ويظهر لي أن كلمة كراڤيل محرفة عن غراب...

تعجبوا من غراب فوق غاربه   ثهلان ذو الهضبات الشم أو أواخد 1

من شعر ابن حربون في السيد الأعلى أبي حفون، انظر أين صاحب الصلاة ص 255.



LARACHE
ALCANTARA
S.Embarek
ech Chaout
O^led Mezbah bou Cherem
S.bou Hamed
D. el Adir
Er Rouamne
S.Ali Cherif
Mouara er Rmel
Aouamara
JELLOUL
HARTANE
OSBANE
El Brakta

وقد تمت المؤامرة البرتغالية على مرحلتين اثنتين : الأولى كانت هي الحملة التي يقودها أحد القادة الذين كان لا يشك الملك في مقدرتهم وكفاءتهم العسكرية وخاصة في الميدان البحري، ويتعلق الأمر بدون كاصبار جوستارت (D. Gaspar Justarte) الذي كان يتقدم الطليعة الأولى لتحقيق أحلام العاهل...

لقد انطلقت طلائع كاصبار في نهاية يبراير (أوائل مارس 1489) في أسطول متألف من أربعة مراكب وكانت تضم مائة وستين مجندا : كان منهم 120 أبحروا من البرتغال، والأربعون الآخرون الذين كان فيهم 20 خيالة و20 راجلون أبحروا من أصيلا حيث توقفت (الأرمادا) لبعض الوقت... لقد أمر الملك بأن يكون الأسطول مدعما بعدد كبير من الرجال والضباط وسلاح المدفعية وبأحمال من قطع الخشب وأطنان من الحجارة والجير والآجور وبمختلف الأدوات والأشياء الضرورية بكميات وافرة...

وقد أصحبت وأتبعت كل هذه المعدات ـ بما يلزم من تموين ـ لإنجاز الخطوات الأولى من المشروع على ما سنرى...

لقد عاد كاصبار إلى طبيرة التي انتقل إليها الملك بزوجته وحاشيته للإشراف على العملية، وهناك أطلع خوان الثاني على سير الأعمال كما أطلعه على ما لقيته البعثة من مناهضة الوطنيين المغاربة.

وهنا نال رضى الملك وحصل على مكافأة سخية فيها المال وفيها المنصب العالي على ما تشير عليه رسالتان مؤرختان في 23 من يوليه...

ومن هنا انطلقت الحملة الثانية التي كان قائد الأسطول فيها هو بيدرو دي كاسطيل برانكو (Pedro de Castel Branco).

وهكذا استغرقت الحملتـان معـا نحوا من ستـة أشهر... فـماذا عن هـذه الحملة الثانية التي انطلقت في أواخر مايه ؟

لقـد بلغ عـدد قطع أسطول (الأرمـادا) هـذه المرة ثـان قطع معروفـة بأسمائهـا ورجـالهـا علاوة على مـا كان يعمل من مراكب إضـافيـة تـابعـة لم تضبط أسماؤها، وهكذا فقد كان هناك :

1) مركب سان خوان : قائده بيروڤاز يحمل ثلاثة وأربعين مقاتلا.

2) غراب سـان أنطونيو : ضـابطـه رودريكـو أنيس، أكثر من اثنين وثلاثين.

3) سـانطـا كاسطلينـا : قـائـده الفـارو بوطيلـو وضابطـه البحري بارتولومي رويدريكيز... وتحتوي على 30 عسكريا...

4) غراب سانطا ماريا : ضابطه كونز الفيز، 20 بناء و6 مدفعيين.

5) باخرة بيدرو : قائدها فيرنان والضابـط أنطون : 30 بحريـا، 30 رماة، 10 نقابين.

6) مركب رينيا : ضابطه مانديز 8 أشخاص.

7) بـاخرة ملكيـة : ضـابطـه كونزالو ألفونصو المكلف بـالتموين. 30 بحارا - 30 رماة و10 نقابين.

8) غراب برانكو : كقـائـد الحملـة ومعـه الضـابـط البحري أنـدريس ألفونصو، وهذا الغراب لا نعرف عن ركابه شيئـا ولو كنـا نميل إلى الاعتقـاد بـأن منهم الفونصو دا لبوكيرك القـائـد البرتغـالي المعروف ألفونصـو (حسبـا

تشير إلى ذلك أحد المصادر الإنجليزية) الذي ستسمع عن أصدائه في الخليج العربي...

إنه جيش يتألف من مئات الجنود وعشرات الخبراء المتخصصين يقصدون الأرض المغربية لبناء الحصن الذي ستكال منه الضربات للإسلام والمسلمين في المغرب وإفريقيا...

ولعلَّ من المفيد أن ننقل هنا ـ عن المصادر الإسبانية والبرتغالية بعض التواريخ والأرقام التي تتصل بما كان يبعث لأولئك المقاتلين من مواد غذائية وزاد مسترسل لرفع معنوياتهم وحملهم على إنجاز العمل الموكل إليهم في أقرب الآجال.

فلقد صدر أمر بتاريخ 23 يونيه بتسليم خوان رود ريكيز قائد الغراب الذي يحمل اسم (ترينيداد) مائة وتسعة وثلاثين قنطارا، وهي حصة من خمسمائة قنطارا كانت مخصصة لتغذية خمسمائة مقاتل خلال أربعة أشهر المقررة للمقام بالقلعة...

وفي 24 من نفس الشهر سلمت في ليشبونة إلى ڤاسكو كارنيرو المشرف على إصطبل الملك، بالإضافة إلى ذلك، 205 قنطارا كان من المقرر أن ترسل إلى لاكوس... بينما سلم في رابع يوليه إلى الغراب «صانطو إيسبيريتو، وفي سادس من يوليه صدر أمر كذلك تسليم فيرنان كورزالثيز شؤن أخرى قدرت بـ 463 قنطارا بما تبعها من مواد أخرى.

وتوجد إحالات وثائقية حول وصول خوان كوردروا إلى جزيرة (المليحة) بالغراب (صانطو إيسبيريتو)، وفي 20 من يوليه 1489 = (21

شعبان 894) نجد إذنا من قائد الجزيرة الجديد دييكو فيرنانديز دي ألميدا الذي عوّض القائد السابق دي سوزا بعد أن سقط مريضا...

يسمح ذلك الإذن لكورديروا بالعودة إلى البرتغال مع مركبه وستة من بحارته لأن وجوده لم يعد ضروريا هناك حيث كان يحمل معه وصلا يشهد بأنه سلم المؤنة، وكان هذا الوصل موقعا من لدن خوان دي باروش باسم والده دييجو دي باروش المكلف بالمحاسبة بالمنطقة المغربية المحتلة.

والمعتقد أن هذا المركب هو الذي حمل إلى العاهل البرتغالي أصداء الوضعية الخطيرة التي أصبحت تعيشها الجزيرة بسبب القرار المغربي بقطع الوادي على المغيرين... الأمر الذي جعل الامبراطورية البرتغالية تعيش في حالة استنفار دفع الملك إلى تنظيم حملات إنقاذ مستعجلة !!

وهكذا نقرأ في بعض الأخبار البرتغالية التي كتبها كارسيا دي روزيندا ما يساعدنا على تقييم إفادات أبي القاسم الكراسي حول هذه الموقعة العظيمة، قالت تلك الأخبار : إنه بمجرد ما علم العاهل المغربي بأخبار مقام البرتغاليين في الجزيرة «المليحة» وجدنا أن مولاي محمد الشيخ يشرف بنفسه يساعده ابنه مولاي يحي يصحبه أربعون ألف فارس وحشد كبير من الناس، وهكذا، يقول المصدر البرتغالي، أحيط المكان من كل الجهات، ومن أطراف الوادي بحيث لم يعد من الممكن أن يصل إلى المسيحيين شيء عن طريق الوادي...

وبالنظر إلى العدد العديد من المغاربة الذين أخذوا يتقاطرون على الحصن المذكور... واعتبارا لما نزل بكاصبار جوسارت فقد بعث الملك بالكابطان ضون خوان دي سوزا الذي يعتبر من الضباط السامين والمحببين

لـديـه، إلى عـدد كثير من الرجـال وعليـة القـوم وفرسـانهم يعـدون بـألف وخمسمائة...

وبعد ذلك، يتابع المصدر المذكور، رأينا القوات المغربية تتزايد يومـا عن يوم، حيث بلـغ إلى علم العـاهـل البرتغـالي أن الـوادي فعـلا قطـع وأن الحصـار أحكم على الحـاميـة في القلعـة بحيث لم يعـد في مستطـاع أحـد أن يتحرك.

وهنا أعطى الملك أوامره للقابطـان فيرنـانـدو مـارتينز مـاسكارنيـاس (F.M. Mascarènas) ودون مـارتـان كاسطيل برانكـو... ثم بعث بـالكـونـط فيـلا نـوفـا ودون دييجـو دي أليـدا ثم بـآخرين ممن يتسمـون بمزايـا ومنـاقب ومراتب وممن لهم تعلق كبير بـالملـك وبعضهم ينتمي للأسرة الملكية وكان على كل هؤلاء أن يحيطوا الملك علما ـ بعـد أن يـدرسوا الحـال في عين المكان وبكيفية دقيقة بماذا ينبغي أن يعـالج الوضعيـة... وهل أنـه يستمر في التمسك اجبه أن يغادرها.؟!

☆ ☆ ☆

وأثناء وجود تلك البعثة الهامة تلك النخبة المختارة في جزيرة المليحة هاجم السلطان مولاي محمد الشيخ بكل قواه... وهنا شعر أولئـك القوم بـأن شرفهم والتزامهم إزاء الملـك يفرض عليهم أن لا يهربـوا من المكان الحـاضر، وهكذا بقوا هناك واكتفوا بتطيير الخبر للعـاهل البرتغـالي، وفي هـذا الوقت بالذات سقط دون خوان رودريكير دي سوزا قائـد القلعة مريضـا واشتـد

مرضه لدرجة أصبح من المتعذر عليه إطلاقا أن يقوم بأي عمل ! ونظرا لعدم وجود العلاج اللازم له أجمع الحاضرون على أمره بالالتحاق بالبرتغال للعلاج... وقد وقع الاختيار من بين الزعماء الموموقين : على من يتولى منهم قيادة الحصن... حيث كان «النصيب» مع دييكو فيرنانديز دي الميدا على ما أشرنا...

وسأواصل الاقتباس من المصادر البرتغالية بالرغم مما يظهر خلالها من حقد وضغينة على «المجاهدين المغاربة الذين كانوا يقومون بواجبهم في صد المغيرين على أراضيهم»...

لقد اعتقد المغاربة أن بإمكانهم أن يقوموا منذ الصدام الأول بالانقضاض على القلعة لأخذ نبلائها أسرى والاجهاز نهائيا على من لم يستسلم... وبالتالي استعادة الحصن بما فيه من عدة وعتاد.

انقض المجاهدون من كل جهة وكانوا يتهافتون على الاستشهاد أمام الحصن الذي أصبح ولكأنما يكون قطعة جهنمية تنطلق منه النيران من كل جهة تحصد الذين يقتربون من المكان... لقد وجد المقاتلون المغاربة أنهم أمام أسلحة فتاكة متطورة وأنهم أمام مقاتلين يشعرون بأن عليهم أن يسفكوا بدم كل من يهدد وجودهم بالحصن...

وهنا قرر الجيش المغربي ـ حتى لا تضيع منه نفوس أكثر وعتاد أوفر ـ أن يتأخروا إلى خط أبعد لينطلقوا منه... وهنا برزت الفكرة بتنفيذ المشروع المتخلص في قطع وصول المدد عن طريق وادي لكوس حيث تقرر تعطيل الوادي لكي لا تمر منه البواخر البرتغالية حتى بالنسبة للسفن

الصغيرة..! ولكن كيف يتم ذلك ونهر لكوس على ما نعرفه من سعة وعمق واتساع والإمكانيات معدودة والتقنيات كذلك محدودة...

إن العرائش أو عرائش بني عروس تأخذ إسمها من العريش... فهي جمع له... والعريش بيت من قصب وعود يشبك بعضه ببعض فيكون العريش...

ومعنى هذا أنه يوجد هناك عدد من المروج والفيضات، فعلا إن القصب والغاب يكسو مشارف العرائش ومداخلها... إن العرائش بالأمس غيرها اليوم... إنما كانت بيوتا وسط الكروم والأشجار...

إذن فليقم فريق بحصد القصب... وليتفرغ فريق ثان لإعداد آلاف المقاسات المعينة على نحو ما نرى اليوم في الأسلاك الحديدية التي ينسج عليها البناء، وليقم فريق ثالث بإعداد أكياس كبيرة من هذا القصب... وتوصيلها إلى ساحل النهر...

وهناك كانت الكتائب الأخرى من الجيش تلتقط الأكوام من الحجر والصخر.. لتجعلها داخل تلك الأكياس... وتدفع بها إلى عرض النهر ! هكذا كنا نرى قطعا ثقيلة من القصب المفتول بعضه ببعض وهي تحتوي على ما ثقل وزنه مما التقط من أطراف الوادي لتكون سدا منيعا (Estacade) يفصل بين عالم وعالم !

وإن هناك إفادة تقول بأن الوادي أغلق بواسطة جذوع من أشجار الغابة التي توجد على مقربة من ساحة العمليات وهذا يقتضي أن يكون ضمن ما شحن أيضا بعض قطع من أغصان الشجر الذي يلف المنطقة كما قلنا وهذا صحيح أيضا. إننا نعلم أن في أبرز صناعات أهل العرائش آنذاك

صناعة الفحم، وقد كان يصدر منها عبر المراكب إلى الجهات الأخرى، ومن هنا سمعنا بالمثل المغربي الذي يردد عندما يكون مظهر الإنسان لا يتفق مع مخبره... إنهم يقولون : «فلان بحال مركب العرائش : قلاعه من قطن وقلبه من فحم ! على نحو ما قيل في المرابطين من لدن خلفائهم الموحدين : الذين كانوا يشبهونهم بالزراجنة... وهي طيور ريشها الظاهر أبيض ولكن ريشها الباطن أسود !

وإن من اللقطات الرائعة في تاريخ هذه الموقعة العظيمة أن يعطي ملك المغرب نفسه المثل الصادق في بناء هذا السد المقوى... لقد كان محمد الشيخ على رأس المجاهدين يقوم بحمل الصخور على سرجه طيلة أيام المعركة. إن الرؤساء إذا لم يكونوا قدوة لم يكونوا جديرين بالرياسة هكذا يقول الكراسي في أرجوزته...

وكان من هـــــــذا الرئيس الحبيب	رأى ســــــديـــــد ردم جليب
أن قطـــع الـــوادي بجعـــل سلـــل	من قصب وبـــــالصخـــور تمتلي !
عـــل في ذاك وشـــــد العمــــلا	وفـــوق سرجـــه الصخــور حـــلا !

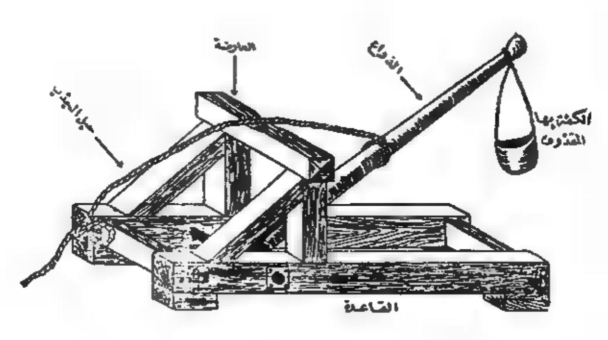
وهكذا لم يمر يوم وليلة حتى عاد لكوس غير صالح للملاحة وانقطعت الصلة بين (الكراڤيلات) السريعة وبين مصادرها ومواردها !!!

العجب ليس هذا، ولكن العجب أن يتم هذا والمسلمون يمارسون صيامهم : منقطعون إلى الله متطلعون إلى الاستشهاد في سبيل الله...

لقد كان البرتغاليون يسخرون ـ في بداية الأمر ـ من الوثبة المغربية بعد أن علموا أن المسلمين على أبواب رمضان !! قد يتجول الأجنبي مئات المرات في بلاد الإسلام، ولكنه لا يحسن فهم المسلمين إن لم يخالطهم في رمضان وهم أقرب صلة إلى السماء منهم إلى الأرض !!

وشعر المغيرون أنهم فعــلا في خطر... ولم يعـــد لهم وقت للتفكير في متابعة أعمــال بنــاء حصن (كراسيوزا)، ولكنهم عــادوا يتوقعون كيف يصلهم الخبز ؟ كيف يصلهم الــزاد ؟ أو بــالحرى كيف يعـودون إلى المحيـــط الأطلسي ؟ إنهم لا محالة هالكون..!

لم يكلف المغاربة بإقامة هذا السد الحصين... ولكنهم من أجل حمايتـه ومن أجل منع كل محـاولـة لكسره نصبوا على مقربـة منـه سواء على الضفـة اليمنى للنهر أو الضفة اليسرى المجانيق القوية المحروسة ليل نهار بأعداد كبيرة من المقاتلين... وكانوا يهدفون من هـذا إلى أن المغيرين المحـاصرين سينـالهم التعب وأنهم سيقهرون لا محالة بالجوع وسيمسون فريسـة للأمراض دون أمل في النجـدة... ومن هنــا سيضطرون لــلاستســلام ويصبحــون في عــداد الأسرى...



((رسم المنجنيق))

وهنا أتذكر تعليقا سخيفا لأحد الذين كتبوا عن هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ البرتغال التي احتد فيها غضب جان الثاني... وكيف يسد من قصب يأتي على برج من حديد ؟!

لقد ورد في ذلك التعليق :[6] إن الذي أوحى بالفكرة هو أحد المرتزقة الأجانب ممن كانوا يعملون في جيش السلطان محمد الشيخ !.

إن المؤرخين المغاربة لا يستغربون مثل هذه التعليقات التي ألفوها من أولئك الأجانب الذي يحاولون أن ينوبوا عنا في كتابة تاريخنا..! ونحن لا ننتظر من غيرنا أن يقول عنا غير ما يريد هو أن يقول، لقد حفظنا من مأثور القول : «ويل لأمة يكتب تاريخها مستعمروها»...

على كل حال فإن الجيش المغربي استطاع بفضل تفكيره أن يهتدي إلى أن يفضل الممر المائي الذي كان بالأمس يتسع لمرور «الكراڤيلات» البرتغالية وقد أرغم القوم على توقيف عملية البناء ! إنهم ليسوا فقط شاعرين بالخناق المحكم ولكنهم أمسوا مهددين بالحمى النافض التي كانت تظهر أمامهم شبحا مخيفا ينذر باستئصال شأفتهم !!

لقد كان وقع الحادث على البرتغال شديدا... وقد تهافت القادة هناك للتطوع لإنقاذ سمعة الجيش من هذه الاهانة المريرة التي ألحقها بهم المغاربة !

لقد كان من الممكن أن يتصور الأوروبي سدا من الإسمنت والفولاذ يقطع الطريق... لكنه لا يمكن أن يخطر بباله أن يقوم القصب مقام الحديد والحجر مقام الفولاذ !!

6) S.I.H.M.S. I T.I I P. XVI

لقد خبر البرتغال في المغاربة طائفة من المفاجآت ومن الخدع ومن الحيل... تلقوا منهم أحيانا وابلا من القذائف التي كانت عبارة عن أكياس محشوة بالعقارب ! وأحيانا باغتوهم بكتل من النحل انهالت عليهم باللسع واللدغ وأربكتهم وأقعدتهم..!

كل الناس يعرفون أن لميادين الحروب قواميس لغوية خاصة بها وقواعد نحوية تستعملها عند الحاجة، لا تختلف عن المفردات وعن القواعد التي عهدناها ونحن نعيش مع مذاهب البصرة والكوفة ! إلا أن لغة الميدان ونحو الميدان وليدا مصالح ظرفية وليس وليدي قواعد رتيبة وئيدة ! ومن ثمت سجل التاريخ للمغرب مواقف لا ينبغي أن نمر عليها دون ما أن نحاول تجسيدها وتقديمها للأجيال الصاعدة ليزدادوا إيمانا بأن أسلافهم ما كانوا يقصرون في الدفاع عن مبادئهم وأنهم - إذا ما اضطروا أحيانا لقبول أمر واقع - فإنما كان ذلك تحفزا لاستجماع نفس واسترداد حق...

لو كان لساحات القتال أن تنطق، إذن لسمعنا عن مئات المواقف ان لم تكن آلافها. وفيها ما قام فيه الطفل المغربي بدوره، وفيها ما قامت فيه السيدة المغربية بدورها فيها، وفيها ما كان من نصيب العمال والصناع والتجار والفلاحين.

مهما يكن فقد بلغ الغضب مبلغه بالملك دون خوان الذي كان قد عبا كل قوى الامبراطورية لتحرير من غرر بهم، وفي هذا الإطار أصدر عفوه العام عن كل الهاربين والمخالفين تلقاء العمل والخدمة من أجل فك الحصار عن الحصن الذي أصبح يضم خيرة أصدقاء وقرابة الملك ! إن الاستعداد تم، وها هو الأسطول الأول متأهب برئاسة إيريس دا سيلفا (Aires Da Silva)،

لقد كان يحتوي على أزيد من عشر قطع معظمها من الغربان (الكرافيلات) السريعة الفعالة المعروفة أيضا بأسمائها وأسماء رجالها...

لقد كان أسطول النجدة هذا الذي سرأسه (AIRES DA SILVA) يتركب من :

☆ غراب (كرافيل) صانطا ماريا وقائده هو القابطان دييكو فيكيرا (D. Figueira) وبه 29 مقاتلا.

☆ غراب القابطان تريسطان داكونها ومانييل نونيز وبه 45 مقاتلا.

☆ غراب كونزالو فيكيرا وخوان دالڤير وبه أربعة عشر.

☆ مركب يحمل اسم كراسيوزا وقائده الفونصو ضو مينكز وانطوان مارتين وبه 25 مقاتلا.

☆ غراب جورج ميلليرو (J. Mealleiro) ولويز، وبه 14 من النجارة و30 ملاحا.

☆ مركب إستيبان دي كاسترو ويحمل ثلاثة وأربعين مقاتلا.

☆ غراب روى مينديز وكونزالو مينديز والقائم على الصرف فيه انطون كا ويحمل 50 قائلا.

☆ غراب إيريس كوريا ويمونه خوان نوكيرا وبه مائة مقاتل.

☆ غراب فيرناندو سيراووا وبه ثلاثون مقاتلا.

هذا إلى سفن أخرى يعتقد أنها راحت في اتجاه العرائش، وقد ذهبت مجموعات أخرى تعد بالمئين فيها الخدم والعملة، وقد أعد التموين اللازم لهذا العدد فيا بين 26 يوليه و13 غشت ولما يكفي لعشرين يوما... وقد كان

في عداد القاصدين جان ميندس دي أوليڤيرا وفيرنانـد دي البوكيرك وهو غير ألفونصودا لبوكيرك...

وقد انعكس رعب الشعب البرتغالي من قمته إلى قاعدتـه في القصيـدة التي صاغها الشاعر البرتغالي دون جان مانييل الذي كان في جملة الحاصرين ضمنها تـوسلاتـه إلى السيـدة العـذراء في أن ينقـذهم المسيح وينصرهم على محمد !!

وقد زاد في أربـاك الحـاضرين وارتبـاكهم علمهم بـأن أسطول النجـدة المرسل إليهم لم يتمكن - على عظمته - من اختراق سـد القصب الـذي نصبـه المغاربة في الوادي !! أكثر من هذا لم ينته إعداد أسطول النجـدة هـذا حتى قرر الملك إرسال أسطول جديد... إن الملك مـا عرف قـط مـذاقـا للهزيـمة وإنمـا تعود على الانتصـار فيكف يطيق الصبر على هـذه المهـانة ؟ وهكـذا أسرع في إرسـال المزيـد من السفن والمزيـد من الجنـد، والمزيـد من السلاح والمدفعية... لتعزيز دا سيلڤا ولتحطيم السد الذي بنـاه المجاهـدون والتغلب على سائر العراقيل التي وضعها المغاربة لقطع الطريق على البرتغاليين !

لقد أخـذ العـاهل البرتغـالي يفكر في أن يشـارك بنفسـه في عمليـات الانقاذ بالرغم من تعالي الأصوات بنصحـه أن لا يفعل حتى لا يعرض نفسـه للخطر سيما والنـاس مقبلون على فصـل الشتـاء... الأمر الـذي حبس لسـان الملـك عن إبـداء رأيــه : هـل أنــه سيحضر أو لا يحضر، لقــد كانت الحيرة والكآبة مخيمة على البرتغال بكامله... إن الملك ألقى بكل أحبابه وأصدقـائـه وأصفيائه هنا في هذه البوتقة وكان يعتقد أنها مجرد رحلـة سيـاحيـة يمنحهـا تفضلا وتلطفا على من يقع عليه اختياره من المحظوظين والمرموقين !!

ولقد كان أسطول النجدة الثاني برئاسة خوان دي كاسترو يتألف هذه المرة علاوة على غراب الرئيس المذكور من :

☆ غراب الكونط ذي مونصانطو والضابط البحري كونزالو دياز (Gonzalo Diaz) وكان يحمل مائة بحار.

☆ المركب الذي أبحر فيه ليسورات دي اندراد (L. Andrade) وهو المفتش العام للمدفعية وخزائن المملكة وكان يحمل 40 مقاتلا.

☆ غراب بيسكاريزا بقيادة فيرناندو ألفاريز وضابطه البحري ڤيسينط رودركيز وكان يحمل 22 مقاتلا.

☆ سفينة مادانيلا بقيادة القابطان بلاص ألفاريز وتحمل 64 مقاتلا.

☆ مركب صانطا ماريا دي فيال أودي بيلباوو، وقائده طوماس فيرنانديز وكان يحمل رقم 81 مقاتلا بالإضافة إلى 20 انضموا فيا بعد.

☆ غراب بيدرو لويز خادم دون بيدرو دي نورزنيا، ويحمل 35 مقاتلا. وهؤلاء الرجال ـ وعددهم 220 ـ الذين أبحروا في هذه السفن الأربعة الأخيرة كانوا تابعين لكبير الخدم دون بيدرو دي نورزنيا الذي شارك هو الآخر في الحملة.

☆ سفينة الملك، وقائدها انطونيو دي أبرو ،تحمل 30 مقاتلا.

☆ غراب بيدرو دي سليصا ومعونه رودريكو ألفونصو وكان يحمل 66 رجلا انضم إليهم ثمانية فيا بعد.

☆ سفينة ألفونصو دي فيريرا ومعونه خوان دياز (J. Diaz) ويحمل 80 رجلا.

☆ سفينة الملك ورئيسها مارتين ڤيسنط وتحمل أربعين مقاتلا.

☆ غراب سيزيبرا وقائده لويز ڤار تينيكو (L.F. Tinoco) ويحمل 30 مقاتلا.

☆ غراب بيبوسطا دي كاسكيس وقائده الڤارو سوريز والضابط البحري خوان مارتينيز ويحمل 34 رجلا.

☆ غراب ڤيسنط ڤاز ويحمل 40 رجلا.

☆ غراب دي استيبان كوريا (E. Correia) ويضم 40 مقاتلا.

☆ سفينة جورج دي إيصا (J. Eça) ومونه خوان لوريتزو ويحمل 29 مقاتلا.

☆ المراكب التي أبحر فيها بيدرو دا بايڤا (P. Paiva) وتحمل 66 رجلا.

☆ غراب ڤاسكو مارتينيز دي كا (V.M. Gà) ومونه دورات لوبيز ويحمل 45 رجلا.

☆ سفن ديسبينسيرو وكاليكو، وغراب بيدرو ألفاريز، وقد أبحر في هذه المراكب الثلاثة 250 رجلا تابعين للكونط دي أبرانطيس (ABRANTES).

وقد كان مجموع هذه السفن عشرين وكانت تقل على ظهرها 1085 بالرغم مما يعرف عن أن العدد كان أكبر من هذا... وقد كانت كلها مزودة لما يكفي طيلة عشر أيام كاملة لذلك الجيش العرمرم الذي يبدو أنه قرر شق طريق البحر في أوائل شتنبر.

ويتأكد أن الملك دون خوان لم يقنعه كل هذا ولذلك نراه يشعر بتوبيخ ضميره وهو يغيب عن حضور المركة بنفسه في الوقت الذي بلغه أن العاهل المغربي موجود على رأس المجاهدين..! لهذا نجده ـ بعد عقد اجتماع هام ـ مع كبار رجال دولته وبعد الاستماع إلى قادم جديد من ليشبونة كان خبيرا كبيرا لشؤون الحرب هو دون خوان دي برانشيز (J. Branches) نجده يرى أن من الواجب أن يعبر شخصيا كيفما كانت الأحوال... إنه يريد أن يقاتل ضد أعداء العقيدة الكاثوليكية في أقرب وقت ممكن، إنه لابد من تكيل الأعمال التي ابتدأت في الجزيرة !! لقد أثرت فيه جدا كلمات الوارد الجديد الذي لم يتردد في إشعار الملك بأن من واجب تلك النخبة المختارة (Hidalgos) من شعبه وجيشه أن تتمتع برؤية ملكها وهي تتساقط في ساحة الشرف ! وهكذا وفي هذا الإطار يخصص مبالغ من المال لشراء الهدايا لتقديها لبعض المغاربة الذين يمكنهم أن يبلغوا للبرتغاليين المحاصرين أن الملك آت بنفسه لإنقاذهم..!!

ومن هنا طلب الملك توجيه الأخبار إلى سائر أطراف مملكته بتوجيهاته وعواطفه واخبارهم بعزمه على المضي بنفسه لإنقاذ من بالجزيرة، وبالاحتفاظ بها ! وأن الشيوخ والأطفال هم بدورهم تطوعوا بقوتهم وثروتهم لمرافقته وعدم البقاء بالبرتغال والكل متحمس لنصرته حتى الموت...

☆ ☆ ☆

ولم يكن العاهل المغربي بعيدا عما يحضر من عتاد لمواجهة جيش مملكته... إن البرتغال برمتها راحلة إلى بلاده ! وهي جميعها تتقدم

بأسطولها البحري وجيشها... إن كل ذلك كان يصله أولا بأول، وإذا كان للقوم عيونهم على ما يجري في الساحة المغربية فإن للسلطان محمد الشيخ عيونه كذلك على ما تعرفه البرتغال من حشود وجموع...

ومن جهة أخرى فقد تناهت الأخبار إلى الحكومة المغربية أن هناك أكثر من حركة داخلية كانت تستهدف انتهاز فرصة غياب مولاي محمد الشيخ لتنقض على الحكم أو على الأقل «تفوز» بالاستقلال عن الوطاسيين وتحكم جهة من الجهات ! حيث وجدنا أن التمرد الذي كان الوزير أبو زكرياء يحي ابن زيان الوطاسي أجهز عليه في «الشاوية» عام 846 = 1442 والذي عاد من جديد أيام دولة الشريف أبي عبد الله الحفيد 875 = 1470، استرجع أنفاسه مرة ثالثة وبصفة عنيفة عند مغيب مولاي محمد الشيخ بن الوزير السابق أبي زكرياء الوطاسي كل تلك الأخبار وصلت إلى ساحة القتال على مقربة من الجزيرة المليحة.

وهنا جمع وزراءه وكبار مساعديه للتشاور... إن هناك مثلا مغربيا يقول : «إذا غلبت فعف» أي إن من واجبك عندما تأخذ بناصية أمر من الأمور أن لا تتمادى في التحدي سيما والحال على ما قرأناه وسيما أيضا وقد وصل بعض الرسل من الجانب البرتغالي يجسون النبض حول إمكانية فتح مفاوضات تستهدف تجنب الصدام المسلح وتطبيع العلاقات...

لنقرأ أبا القاسم الكراسي وهو يقول :

وكان للسلطان ضد خالفه	(شاوية) وغيرها مخالفة !
فخاف إن أبطأ شهرا آخر	عواقبا لا مثلها يؤخر
غلب إذ بلغ قصدا واعتلى	واجفل الكفار منه جفلا...
وغلب الإسلام بعد الترح	وكان ذاك باكتال الفرح !

هناك فقط قبل محمد الشيخ مفاوضة المغيرين في شأن فك الحصار... وتوالت السفارات بين الجانب المغربي والجانب البرتغالي عبر لكوس. لم تحتفظ لنا الوثائق مع الأسف بتفاصيل المحادثات وأسماء الذين كانوا يشرفون على المفاوضات... وكل ما هناك الحديث عن المفاوض البرتغالي الرئيس إيريس دا سيلڤا (Aires Da Silva) القائد الأعلى للأسطول وعن أنتقال المتفاوضين إلى التوقيع على الاتفاقية في تشميش (Tchemmich) عند مصب نهر لكوس[7] يوم الخميس 30 رمضان 894 = 27 غشت 1489. لقد تهلل وجه خوان الثاني وقد بلغته الأخبار السريعة من الرئيس دا سيلڤا عن الوعد المغربي..! إن الاتفاقية الجديدة ستنقذ رجاله المحاصرين الذين يعيشون عيشة البؤس والشقاء... وللمصادقة على الاتفاقية الجديدة بعث بعدد من كبار مستشاريه أمثال : ري داسوزا (R. Da Souza) ودون ألفونضو داموروز (A. Da Moroz) وميستر دي القنطرة (M. De Alcantara) ودييكودا سيلڤا دي مينسيس (D. Silva de Menesès) جابي الضرائب...

وبأمر من الملك توجه سائر المحاصرين الذين كانوا بالقلعة توا إلى مدينة طبيرة حيث كان يقيم الملك خوان الثاني وجمع أفراد حاشيته، حيث استقبلهم بارتياح كبير...

وهكذا أضاف تاريخ المغرب الدبلوماسي، على عهد بني وطاس، اتفاقية أخرى علاوة على اتفاقية أصيلا السالفة الذكر...

7) هي بالذات المكان التاريخي الموجود على اليسار عند الخروج من العرائش وهو المعروف بـ : ليكسوس... انظر أين حوقل : تشمس.

وهكذا أيضا استطاع المغرب أن يحصل على تطويق أطماع البرتغال عشر سنوات أخرى، لقد كان على المدنة التي اتفق عليها في أصيلا معهم لفترة عشرين سنة عام 1471 = 976، كان عليها أن تنتهي عام 1491، وبمقتضى اتفاقية تشيش هذه، فإن هناك فسحة أخرى يمكنها أن تفيد في تعزيز المواقع... هذا طبعا إلى إرغام البرتغاليين على أداء تعويضات مهمة لتسديد الخسائر التي سببها للمغرب هذا العمل الطائش من البرتغال ! إضافة إلى إطلاق سراح عدد من الرهائن والأسرى المغاربة مما كانوا يعانون الشدائد في سجن ليشبونة وعلى رأس هؤلاء بنات وأسرة القائد اللواتي قائد السلطان محمد الشيخ على مدينة فاس...

لقد أجلى البرتغاليون عن التراب المغربي بأسلحتهم ومدفعيتهم... بعد أن قام الإبطال المغاربة أنفسهم بإزاحة العوائق التي توسطت النهر مستعملين الحبال والخاطيف... حتى عاد النهر لسابق عهده !

ولعل مما يتفكه به هنا أن البرتغال لم يعد يدور بخلده قط أن يرجع للعرائش بعد فضيحة «كراسيوزا» لقد تطير منها[8]... واعتبرها طالع نحس على جيشه... وإنما كانت العرائش بعد ذلك هدفا من أهداف إسبانيا على ما نعرف...

---

8) تذكر بعض المصادر الأوروبية وخاصة البرتغالية أن (العرائش) كانت ضمن الأراضي المسلمة لملك البرتغال منذ اتفاقية أصيلا 876 = 1471 وأنها أعطيت فعلا من لدن الملك بعد سنتين إلى دون فيرناندو لكن هذا العطاء بقي نظريا... لأن المقاومة المغربية ظلت يقظة إزاء الثغر المذكور بالرغم من أنه كان خاليا من الناس...

لقد احتفل معسكر السلطان محمد الشيخ بعيدين اثنين : عيد الفطر وعيد الجلاء ! وكانت فرصة للتهليل والتكبير وإطلاق العنان للخيول والفرسان حتى يأخذ الناس بحظهم في البهجة والسرور.

نعم وكان العمل الأخير الذي قام به السلطان محمد الشيخ، بعد مرور أيام الأفراح، أمره بتهديم القلعة والاتيان على معالمها، الأمر الذي يفسر جيدا إفادة بيرناندو رودريكيز (B. Rodriquez) العارف جيدا بالمنطقة والذي تجول فيها عدة مرات نصف قرن بعد الحادث بأنه لم يتمكن من تحديد نوعية البناء، وهل أنه كان قصرا أو صرحا أو مدينة...

ومن المعلوم أن أبا القاسم الكراسي المعاصر لهذه الأحاديث ينعت البناء بأنه (بلد) أي مدينة :

أقاموا إذ ذاك هناك بلدا ... واسكنوا فيه الطغاة والعدا

بل أنه بعد هذا يشير إلى أن الأمير يحي ابن السلطان محمد الشيخ تحمس لنسف اتفاقية الصلح مع البرتغال ولذلك وجدناه أي هذا الأمير يقوم بصحبة الشريف علي ابن راشد - قبل أن تسول لهذا نفسه بالاستحواذ على فاس واستئصال حكم بني وطاس - قام الاثنان معا بإخلاء جميع ما عمره النصارى ودمروه :

عزم نجله الأمير يحي ... على فساد الصلح طول المحيا
مع الشريف الأسعد الجلى ... علي ابن راشد السني
أخلى جميع ما النصارى عمروا ... وجهة المبسط فكلا دمروا
وعاد للإسلام كل ملم ... وصار جيش الكفر غير مسلم !

وقد خجل البرتغال أمام ذلك الفشل الذريع سيا بعد أن كان قد تلقى الاعانات السخية ـ كا قلنا منذ البداية ـ من البابا بهدف تحقيق النصر ! ومن هنا كان تقرير دون خوان الثاني إلى البابا بتاريخ 21 شتنبر 1489 يصف ظروف المعركة ويبرز اضطرار العاهل البرتغالي إلى قبول الهدنة. إن الأمر لا يتعلق بتهاون الجيش البرتغالي ولكنه يتعلق بالحصار الذيضرب على الجزيرة وبتفشي المرض في الجند...

وبالرغم مما في غضون الرسالة من تقول على الجيش المغربي لكنها تبين من جهة عن النية المبيتة للمغرب، ومن جهة أخرى فإنها تشهد للمغاربة بأنهم شعب يستميت في الدفاع عن بلاده...

لقد كان بإمكاننا ـ يقول ملك البرتغال ـ لو أنه تم بناء القلعة تخريب ديار مملكة فاس وقصباتها بكل سهولة وإرغامها على أداء الاتاوات والضرائب... إن سلطان فاس نزل بأربعة آلاف فارس وبجيش لا يحصى من المشاة وقد كان يعززه في هذا الحشد ابنه الأكبر حيث أقام السلطان على الضفتين معا... وهناك تمكنوا ـ أثناء فترة الجزر ـ من إغلاق الوادي بالحجارة، وأنشأوا على كل ضفته جدارا متينا حيث نصبوا منجنيقات موجهة نحو القاصدين للنهر من جهة المحيط، وبذلك منعوا وصول الزاد لجنودنا المحاصرين وكان عددهم ألفا وخمسائة (كذا).

وقد كان الحصن ـ تتابع الرسالة ـ معززا بسور وخندق وحوله مدافع ومعدات أخرى...

ونظرا لانتشار الحمى وتزايد إصابات الوباء في صفوف الجيش قررنا تخريب ـ تلك القلعة كلية ـ إلا أن الحصار فاجأنا... ـ ومن هنا قررنا

فك الحصار بالقوة عن طريق إرسال ـ المزيد من العتاد ـ في شهر ـ شتنبر...
لكن لما علم ملك فاس بالأمر أرسل سفارة إلى رؤساء جندنا وإلى قباطنة مراكبنا الراسية بمدخل النهر يذكرنا في اتفاقية السلام التي كانت مبرمة بين ملك فاس ووالدنا ألفونص... وبعد أن تذكر الرسالة بعض الحيثيات تتخلص إلى القول بأن ملك البرتغال دون خوان الثاني لم يسعه إلا قبول الشروط التي قدمها ملك فاس حيث تم الاتفاق وتبودلت الأسرى بين الطرفين على نحو ما عرفناه...



تلك باختصار وقعة وادي المخازن الصغرى أو وقعة المليحة كما تشتلكير إليها المصادر الفرنسية والإسبانية التي اعتمدت جلها على الأصول البرتغالية، فماذا عن هذه المعركة في المصادر المغربية ؟

إن من حسن الحظ أن نقف على ثلاثة مراجع تتحدث عن هذه الموقعة :

أولها : كان مصدرا شعريا هو عبارة عن أرجوزة طريفة باللغة الأهمية لأبي القاسم محمد الكراسي قاضي تطوان، وهي بعنوان : عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل[10].

---

9) أحمد بوشارب : وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة المليحة، مجلة كلية الآداب، فاس.
10) المطبعة الملكية الرباط 1383 = 1963، محمد داود : تاريخ تطوان 1879 = 1959، 1، 147.

إن وجود مثل هذه الأرجوزة ليعتبر وحده جوابا لأولئك الذين يعتبون على المغاربة أنهم لم يكتبوا تاريخهم... إنها تناولت وبتفصيل وتدقيق عددا من جوانب أيام دولة بني وطاس.

كان الكراسي هذا معاصرا لهذه الدولة وقد ولد سنة 874 = 1470 توفي سنة 964 = 1557.

وقد خصص الكراسي لهذا الموضوع فصلا بكامله بعنوان : «ذكر مجيء النصارى إلى عمارة جزيرة مليحة»[11].

أما عن ثاني المراجع التي تحدثت عن هذه المعركة فهو كتاب (وصف إفريقيا) للحسن ابن الوزان (ليون الإفريقي) سالف الذكر... ويعتبر من المراجع المعاصرة حيث إن كاتبه كان يشارك في بعض المعارك المغربية ضد البرتغال مع العاهل المغربي المشهور بمحمد البرتغالي وهو ابن محمد الشيخ مدبر حصار جزيرة «المليحة».

وقد كان ثالث المراجع المغربية كتاب (لقط الفرائد من لفاظة حقق الموائد) لأحمد أبي العافية الشهير بابن القاضي الذي أدركته الوفاة بفاس بتاريخ 1025 = 1616. والذي لم يزد في معلوماته عند أحداث سنة 895 على نحو من أربعة سطور.

☆ ☆ ☆

فهل هذا كله ما نعرفه عن موقعة جزيرة المليحة ؟ إن ما يتصفحه المرء من مراجع عن هذه الجزيرة وعن المحاولة البرتغالية الفاشلة إزاءها، ثم

11) كان ذلك، كما علمنا، عام 894 = 1489 وليس سنة 1479م (884 هـ).

عن الاتفاقية التي أبرمت بشأنها ليأخذه العجب: كيف أن مساحة صغيرة للبرج على هذا النحو، تقابلها مساحات من الورق تفوقها ثلاث مرات !! الأمر الذي لاشك وأنه سيثير انتباهنا إلى (الفراغ) الذي نشعر به في كثير من الأحيان بالنسبة لتاريخنا الدولي وبالنسبة لعلاقاتنا بالأمم الأخرى...

لقد كان في صدر ما أثار انتباهي لهذا الحدث الهام في التاريخ العسكري للغرب الإسلامي هو ما ورد في الموسوعة الفرنسية المعنونة هكذا : Les Sources inédites de L'Hstoire du Maroc.

الجلد الأول المتعلق بتاريخ السعديين والذي كتبه الأستاذ بيير دو سينفال، فقد تعرض في مدخل هذا الجلد لبداية التدخل البرتغالي في بلادنا وخصص حيزا لابأس به ص 15 للحديث عن وقعة المليحة مشيرا في الهامش للمصادر التي يمكن أن تعين على بعض نواحيها وخاصة منها ما كتبه ري دى بنا (Ruy de Pina) وكارسيا دي ريزيندي، وبيرنارد رود ريكيز، وهنري دوكاستري H. de Castries B. Rodrigues G. de Resende وبراسكاب فرير وداڤيد لوبيز (D. Lopes) لكني سأظل ذاكرا لعمل الأستاذ طوماس كارسيا فيكيراس (T.G. Figueras) في كتابه القيم عن الزحف البرتغالي نحو الجزيرة المذكورة[12].

هذا طبعا إلى بعض المصادر الإنجليزية مما يتناول تاريخ الوجود البرتغالي في منطقة الخليج والبحر الأحمر وخاصة منها الكتاب الذي ترجمه

12) سأجدد شكري للزملاء الذين تفضلوا بمساعدتي للحصول على نصوص بعض المصادر وعلى ترجمتها وأخص الزملاء الأب الفريد بيرانكي (A. Berenguer) (وهران) والسيدين بندريس العلمي (مدريد) والأستاذ عبد السلام القيسي.

عن البرتغـــاليــــة والتردي كراي بيرش (W.G. Birch) بعنــوان : The commentaries of the great Alfonso Dal Boquerque, London 1774

لقد تجلى فعلا أن آثار وقعـة المليحـة أو وقعـة وادي المخازن الصغرى ترددت في المشرق على نحو ما ترددت آثـار وقعـة وادي المخـازن الكبرى التي لقي فيها ملـك البرتغـال دون سبـاستيـان مصرعـه عـام 966 = 1578 نحن الذين بلونا الاستعمار وخبرنـاه عن كثب، نعرف أن في أبرز صفـاتـه العنـاد والإصرار وأنه، نتيجـة لـذلـك، لا يقنع بـأن يتحمل صفعـة واحـدة ولكنـه يستمر في عنجهيته وكبريائه حتى يصفع مرات أخرى أشد وأعنف، ومن هنا رأينا البرتغال يعتزم رد الهيبة الضائعة لـه في جزيرة (المليحـة) فيتقـدم على رأس مليكـه ومعـه هـذه المرة المتطـوعــة من كل مكان ولكن ليترك جثـة مليكه ومعها امبراطورية البرتغال بكاملها !

☆ ☆ ☆

الرباط　　　　　　　　　　　　د. عبد الهادي التازي

المجدُ اليتيمُ..! (*)

علي الصقلي

على أرضكَ الزهراء قد نبت المجدَ — يتيماً، كأن لامجدَ قبل ولا بعد
وفي حضن واديك الخصيب تجاوبتْ — صقور تحداها هناك عِدى لُدُّ
فطارت، وفي آثارها موكبَ الضحى، — بأجنحةٍ في ريشها اشتعل الجِد !
وجاءت إلى تلك الروابي بما به — غدا صادقاً منها لنجدتِكِ الوعدُ
وطأطأ رأساً مارد لم يكن له — ولو نال أسبابَ السها مطلباً، حد !
توقد في أعماقه الشر مطمحاً — وكان لـ«غشت»، فوق ما مسّه، وقد
أتاكِ وفي خطواته كم خطيئةٍ — تُسابقُه، وارٍ لها أبداً زند
وملء حناياه وهُن دياجرٌ — براكينُ حِقدٍ لايضارعه حقد
وما همه إلا الحمى يستبيحه — يثل به عرشاً، ولو أنه طودُ

(*) تخليدا لذكرى وقعة وادي المخازن

ودينٌ قُصارى عَزمه طردُ نوره — وأنّى لنور الله من آثمٍ طردُ
مُنى حُقّلٌ شراً، إليك تجره — وكم من مُنى فيها لصاحبها لحدُ
وما كنتِ في عينيه غير غنيمة — عليها سيسطو قبلما الطرف يرتد
ولا كان دين الحق، فيما يخاله، — سوى عبثٍ، لا يختفي خلفه جد !

☆ ☆ ☆

أتاكِ وفي عيْنيه يشرق صارمٌ — وتومض دِرع كالشهاب له بُرد
ومن خلفه مثل الجراد منتشراً — فيالقُه الهوجاء والضُّمر الجُرد
وغاب من الصلبان في العين كالقذى — وما كان يُنجي العين من شرها بُعد
فواهاً له لم يأل يملأ نفسه — يقينٌ بأنَ النصر يصنعه العد
وجاء نداء الله يقصف هائلاً — وكالبحر طامٍ، دون جزْر له مد
يردده «ملُوك»[1] من فوق صافن — و«ملّوك» من حوض الحِمام له ورد
وأبطالنا قد راعهم شرٌّ هاجسٍ — به كاد يغدو خائراً منهمُ الجهد
تناجوا : قضى ملوك لا ! ويلَ مفترٍ — عليه، أيقضي من هو الجبل الصلد
فهبوا يلبون النداء، كأنما — هُو شهبٌ في كف «مَلُوكَ» لا جُند
وأشرق بالنصر الإلهي جحفل — له كان باسم الله لاغيره، أيد
وأسفر صبحٌ رائع عن مذلة — لمن ساء منهم نحو أوطاننا قصد
كذاك على الوادي مشى العز زخرفاً — بهيا تدنّى عنده الفل والورد
وأين الربيع الساحر الوجه من سنى — ربيع العُلى... ذاك السراب، وذا الخُلد !

☆ ☆ ☆

1) اسم كان يعرف به بطل معركة وادي المخازن عبد الملك السعدي عند خاصته المقربة.

«سواكن»[2] وادي العز دمت هوادراً ولاسمك في آذان أعدائنا رعد

إذا ما نَسُوا ذكرتهم فتذكروا رجالاً هنا، إن قُورنوا فهم الأسد !

تسير العلى من حيث ساروا، وما لها سواهم يد نحو الرغائب تمتد

تباركت يامهد البطولات جُنَّةً وحسبكِ في عرف العلى أنك المهد

وبورك أهلوكِ الكرام مشاعلاً تضيء إذا ما الأفق بالهول يسود

الرباط **علي الصقلي**

2) اسم القبيلة التي وقعت على أرضها المعركة.

في التحقيق الأدبي:

القصيدة اليتيمة و الدَّوْقَـلَة

عبدالقادر زمامة

ألفنا في تاريخ الأدب العربي أن نجد بعض القصائد أُعطيتْ لها أسماء عُرفت بها عند الرُّواة، والمؤلفين، في مختلف العصور، ويشمل ذلك قصائد معينة. لشعراء معروفين، أو مجهولين، كما يشمل مجموعات معينة تشترك في خاصّة مّا اعتبرها الرواة، والمؤلفون في الأدب العربي، سببا للتسمية...!

فإلى جانب القصائد التي سُميت بالمعلقات، وتحت هذا الاسم، حُفظت، ورُويت، ودُونت، وشُرحت، نجد مَن يُسمّى بأبي زيد القرشي في = الجمهرة = يذكر مجموعاتٍ يبلغ تعدادها تسع مجموعات، وكل مجموعة تضم سبع قصائد، وقد أعطى لكل مجموعة اسماً خاصّاً بها... فهناك المُجمهَرات، والمذهَّباتُ، والمُلْحَمَاتُ، والمشوبات، والمنتقيات...!

والجاحظُ في البيان والتبيين[1] يحدثنا عن الأشعار المُنْصِفَة، التي كان

1) البيان والتبيين ج 4 ص 23. تحقيق عبد السلام هرون.

المِرْبَدِيُّون والمَسْجِدِيُّون في عصره يروونها، ويعـدُّون مَن لم يروهـا، ليس مِن الرواة، المعتد بروايتهم...!

وفي معركـة المفـاخرات، والمهـاجـاة، الثلاثيـة، بين جرير، والفرزدق، والأخطل، ظهر اللَّونُ الشعري المسمَّى بشعر المنـاقضـات، واختـار الرواةُ من قصائد هذا اللَّون، قصائد سموها بأسماء خاصة عُرفت بها في كتب الأدب...

والطريف في هــذا البــاب أن نجــد المفكر الأديب محمــد بن داود الظـاهري الأصفهاني المتوفى سنـة 297 هـ = 910م في كتـابـه : الـزهرة. يقول :

«الشعر الـذي لاتَشْبِيبَ لـهُ يلقَّب بـالحذَى وتسمَّى القصيـدةُ منـه البتراء...»[2]...!

وتتبعُ هـذه الظـاهرة يقتضي منـا تتبعاً لعـدة أنواع من التسميـة. وأسبابها، في موضوع القصيدة، وشكلها، وبحرها، وقافيتها، وما إلى ذلك...

بيد أننا هنا بصدد الحديث عن قصيدة معينـة اشتهرت بـاسم اليتيمـة، نُسِبَتْ قديما وحديثا إلى عـدة شعراء، ومنهم هـذا الـذي يسميه بعضُ الرواة بهذا الاسم الغريب : الدَّوْقَلَة...!

وأريـد قبـل الحـديث عن هـذه اليتيمـة وصاحبهـا، أن أُشير إلى أن المفضَّل الضبي اختار في كتابه المفضليات قصيـدة للشـاعر المخضرم سُويْـد بن أبي كاهل اليشكري عُرفت باسم : اليتيمة، مطلعها :

2) الزهرة ج1 ص 372. ط. بيروت 1933 م.

رُبَّ مَن أنضجتَ غيظاً صدره ... قد تمنّى لي موتاً لم يُطعْ
ويَراني كالشجا في حَلْقِهِ ... عَسِراً مَخرجُه ما يُنْتَزَعْ[3]

واقتطف منها ابنُ قتيبة بعض الأبيات في كتاب : الشعر والشعراء.[4]

أما القصيدة اليتيمة المنسوبة إلى هذا : الدوقلة. فهي قصيدة أُخرى تباين قصيدة أبي كاهل اليشكري شكلا،ومضمونا، ووزنا، وقافية، مطلعها :

هل بالطلول لسائل رَدُّ ... أمْ هل لها بتكلُّم عهدُ
دَرَسَ الجديدُ جديدَ معهدها ... فكأنّما هِي رَيْطَةٌ جَرْدُ

وهي كما تُسمى بالقصيدة اليتيمة تسمّى بالقصيدة الدعدية. لأن صاحبها أطنب في الحديث عن دَعْد. وخَلْقِها. وخُلقها. وهُيامه بها...!

ووجه تسمية هذه القصيدة بالقصيدة الدَّعْدية ظاهر مما ذكرنا. بخلاف تسميتها بالقصيدة اليتيمة فإنه يحتاج إلى ربطه بالمادة اللغوية : اليُتْم. ربطا حقيقيا أو مجازيا...

فالمادة اللغوية ـ بناءً على ما في المعاجم ـ تعني في الأُصل الانفراد... واليتيمُ هو المنفردُ. ومن هذا المعنى الأُصلي ظهرت معانٍ أُخرى معروفة...

فهل رُوعي في وصفها باليُتْم أنها منفردة في بابها. شكلا. ومضمونا. كما نقول في الجوهرة الكريمة. النفيسة : انها جوهرةٌ يتيمةٌ. أوْ دُرة يتيمة. وكما نقول في البيت الشعري الجيِّد المعنى والمبنى : إنه بيتٌ يتيم. منفرد في بابه. لا سابق له. ولا لاحق...؟

3) المفضليات ص 190 تحقيق عبد السلام هرون. القاهرة 1940 م.
4) الشعر والشعراء، ج 1 ص 384 تحقيق أحمد شاكر. القاهرة 1364 هـ.

أم رُوعي في وصفها باليُتْم. أنها غيرُ معروفة النسبة المحققة إلى شاعر معيَّن. معروف. تطمئن النفس إليه. وتكون القصيدة من بنات قريحته وعبقريته الشعرية...؟

وسواء تحقق هذا الاحتمال أو ذاك. فإن هذه القصيدة عُرِفَتْ بالقصيدة الدعدية. كما عُرفت بالقصيدة اليتيمة...

ولعل من أقدم المصادر التي أشارت إلى بعض الأبيات من هذه اليتيمة. وإلى الدَّوْقَلة. المنسوبة إليه. كتاب : التشبيهات. الذي ألّفهُ إبراهيم ابن أبي عَون. المقتول سنة 322 هـ = 934م.[5]

في حين أن مصادر نصوص الأدب العربي الشهيرة مثل كُتب : الضَّبِّي، والأصمعي، والجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد، والأصبهاني، وابن عبد ربه. ـ فيما نعلم ـ لاتُفيدنا بشيء عن هذه القصيدة. ولا عن هذا الشاعر الملقب بهذا اللقب الغريب الدَّوْقَلَة...!!

فهل يعني هذا أن القصيدة إنما نُظمت في عصر متأخر عن هؤلاء جميعا...؟؟

ولكن إشارة ابن أبي عون ـ وهو من أهل القرن الرابع كالأصبهاني وابن عبد ربه ـ تجعلنا في موقفِ التشكك والحيرة...!!!!

وفي القرن السادس الهجري نجد القصيدةَ اليتيمة الدعدية من عيون الشعر العربي عند الرواة. والمؤلفين. تحفظ ويُعْتَنى بها. وتروَى عن الشيوخ بالأسانيد في كتب الفهارس.

---

5) التشبيهات ص 97 تصحيح محمد عبد المعين خان. ط. كمبردج. 1950 م.

ويفيدنا بهذا مصدران، أحدهما أندلسي، وثانيها شامي، فالمصدر الأندلسيُّ. هو فهرسة ابن خير الأموي. الأندلسي. الإشبيلي. المتوفى سنة 575 هـ = 1179م. فهذا المؤلف. يروي هذه القصيدة اليتيمة عن شيخه الإمام أبي بكر ابن العَرَبي المَعَافري. دفين فاس المتوفى بها سنة 543 هـ = 1148م بحكم روايته إياها عن شيوخه في المشرق. ويسمى ابنُ خير صاحبَ القصيدة اليتيمة باسم الحُسَيْن بن محمد المنْبِجي. الملقَّب. بدَوْقَلَة...! كما أنه تلقى من شيخه ابن العربي أنها تُنْسَب لسبعة عشر شاعرا...![6]

والمصدر الشاميُّ. هو كتاب : المنازل والديار. لمؤلفه. الأمير. أسامة بنُ منقذ المتوفى سنة 584 هـ = 1188م.

فقد روى أسامة بن منقذ من هذه القصيدة سبعة أبيات من أولها. وهي المتعلقة بالأطْلال. لأنه يهمه في كتابه : المنازل والديار. أن يقدّم أحسن ما قيل في هذا الموضوع...!

ويفيدنا ابنُ مُنقذ أن صاحب القصيدة هو سعيد بن حُميد المنبجي. المدحجي. المعروف بالدَّوْقَلة....!![7] وهو بطبيعة الحال غيرُ سعيد بن حُميد الكاتب المشهور المتوفى أواسط القرن الثالث الهجري...

فالمصدران : الأندلسيُّ. والشاميُّ. وإن كانا يتفقان في لقب الشاعر : الدَّوْقَلَة. فإنَّهما يختلفان في اسمه اختلافاً كبيراً. ولايذكرانِ شيئاً عن ترجمته. ولا عن عصره...!

---

6) فهرسة ابن خير ص 401. ط. سرقسطة 1893 م.

7) المنازل والديار. ص 222 ـ 223. ج 1. بيروت 1965 م. وانظر ط. القاهرة 1968 م ص 116. تحقيق مصطفى حجازي.

وفي القرن السابع الهجري تجد أبا البقاء العكبري البغدادي المتوفى سنة 614 هـ = 1217م في شرحه لديوان المتنبي. عند شرحه لبيت المتنبي في قصيدته الهمزية التي مدح بها الكاتبَ المتصوفَ أبا علي هرون. بن عبد العزيز الأوراجي :

ونَذِيمُهم. وبهم عرفنا فضله   وبضدها تتبيَّنُ الأشياءُ

يقول : قال أبو الفتح :

هذا مأخوذ من قول المنبجي :

فالوجه مثل الصبح مبيض   والشَّعْر مثل الليل مسودٌّ
ضدان. لما اجتمعا حسنا   والضدُّ يُظهر حُسْنَه الضدُّ[8]

فأبو البقاء العكبري. ينقل عن أبي الفتح ابن جني المتوفى سنة 392 هـ = 1001م ماذكره من أخذ المتنبي معنى الشطر الثاني من بيته :

وبضدها تتبيَّن الأشياء

من شطر بيت المنبجي :

والضد يظهر حسنه الضدُّ

والمنبجي في كلام العكبري. وابن جني يكونُ بطبيعة الحال هو : الدَّوْقَلَة. لأن البيتَيْن اللذيْن ذكرهما ابن جني هما ضمنَ القصيدة اليتيمة الدعدية التي بين أيدينا...!

8) العكبري. شرح ديوان المتنبي ج 1 ص. 22 ط. بيروت 1978 م تحقيق مصطفى السقا ومن معه...

ونذيمهم : في بيت المتنبي، وضارع. ذام، بمعنى عاب. وذم.

ونجد في العصر الحديث علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي في كتابه : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. يذكر من هذه القصيدة اليتيمة واحداً وعشرين بيتاً. في الفصل الذي خصصه لما كان يُستحسن من المرأة لدى العرب خلقاً وخُلقاً. مستشهداً بما ورد في هذه الأبيات. مما يتعلق بهذا الموضوع...

ويقدم ذلك بقوله :

«... وفي الشعر الجاهلي كثير من أوصاف النساء المحمودة من ذلك قول بعضهم من قصيدة...»

ويعقب على اختياره بقوله..:

«والقصيدة طويلة. ولها قصة مشهورة...![9]».

فالألوسي كان يعتقد أن القصيدة جاهلية. لذلك استشهد ببعض أبياتها على ما كان العرب يستحسنونه من صفات المرأة خَلقاً. وخُلقاً...!

أما إشارته إلى قصتها المشهورة. فهو يعني بذلك تلك الأُسطورة التي حيكت حول أميرة عربية يمنية. أو نجدية. كانت فصيحة اللّسان قوية الجنان. أبت الزواج إلا من شاعر تعترف بتفوقه عليها...!

فنظم شاعر فارس؛ هذه القصيدة. وقصدها؛ إلا أنه نزل في طريقه، على شاعر كانت له نفس الرغبة... فلما علم بقصده قَتَلَهُ.. وانتحل القصيدةَ لنفسه، وقصد الأميرة، ولكنه فشِل أمام امتحانها؛ فأغرتْ به من قتله...!

9) بلوغ الأرب ج 2 ص 20 ـ 21. القاهرة. ط. ثالثة بدون تاريخ...

ولا يعنينا هنا الوقوف أمام هذه الأسطورة التي إنما هي من نسج الخيال... فالقصيدة ليست من الشعر الجاهلي في شيء، لا في روحها، ولا في لغتها. ولا في أسلوبها... نعرف ذلك من دراسة نصها. والتمعن في ذلك الرصف اللغوي الذي رصفت به الكلمات. والأبيات. والصفات الجسدية للمرأة. كما نعرفه في تلك الحلة التي أضفاها الشاعر على نفسه في آخر القصيدة. من العفة. والمروءة، والكرم... مثل قوله :

ولقـــد علمت بـــأنني رجـل   في الصالحـات أروح، أو اغـدو
سلم على الأدنى ومرحـــــة   وعلى الحـوادث هـادئ جلـد
متجلبب ثـوب العفـاف وقـد   غفـل الرقيب. وأمكن الـورد
ومجـانب فعـل القبيـح وقـد   وصـل الحبيب، وساعـد السعـد
منـع المطـامـع أن تثلمني   إني لمعـولهـا صفـا صلـد

وينبغي ألا تغالطنا تلك الإشارات التي جاءت في بعض الأبيات مثل البيت الثاني والأربعين الذي يقول فيه :

إن تتهمي فتهـامـة وطني   أو تنجـدي إن الهـوى نجـد

وقوله في البيت السابع والخمسين :

والجـد كنـدة والبنـون هم   فـزكا البنـون. وأنجب الجـد

فإن ناظم القصيدة رصف اللغة رصفا. وسبك الأبيات سبكا. وكان يملك طاقة شعرية. ودراية أدبية تمكن بها من حشد المعاني والإشارات حشدا كما يفعل فحول الشعراء... في العصر العباسي...

وينبغي هنا ونحن نتحدث عن القصيدة اليتيمة ألا نغفل المقالتين

المفيدتين اللتين كتبها العلامة الهندي المرحوم عبد العزيز الميمني الراجكوتي. حول هذه القصيدة في مجلة : الزهراء.[10]

وعمل المرحوم الرجكوتي لفت الأنظار إلى هذه القصيدة، بحثا عن نصها الكامل. وبحثا عن صاحبها الحقيقي. وقد نشر نصها «باستثناء الأبيات المتعلقة بوصف بعض أعضاء دعد» المرحوم محب الدين الخطيب صاحب مجلة الزهراء.. في كتابه: الحديقة.[11] ونسبها إلى دوقلة المنبجي....!!

وكذلك اختارها الأستاذ أنيس المقدسي في كتابه : المختارات السائرة نموذجا للشعر الذي ينبغي أن يدرس لأنه يمثل خصائص لفظية ومعنوية...[12] ونسبها إلى دوقلة..

ثم تتابع ذكرها في الدراسات الأدبية المتعلقة بالعصر العباسي.[13] وكذلك المجموعات الشعرية المتعلقة بالشاعرين :

- أبي الشيص الخزاعي المقتول سنة 196 هـ = 811 م.[14]
- وعلي بن جبلة الملقب بالعكوك المتوفى سنة 213 هـ = 828 م.[15]

على اعتبار أن القصيدة تنسب إليهما...!! وقد جاء نص القصيدة محققا في هاتين المجموعتين. وبلغت أبياتها ستة وستين بيتا...!!

---

10) الزهراء. س. 3. ع. 4. ربيع الأول 1345 هـ. و.س. 4. ع.6. شعبان 1346 هـ.

11) الحديقة. ج. 6. ص. 196 ـ 205. القاهرة 1349 هـ.

12) المختارات السائرة. ط. الرابعة. بيروت 1955 م. ص 158.

13) الشعر والشعراء في العصر العباسي. د. مصطفى الشكعة ص 429 ط. بيروت 1973 م. وتاريخ الأدب العربي. د.عمر فروخ. ج 2 ص 197 ط. بيروت 1981 م.

14) أشعار أبي الشيص. جمعها عبد الله الجبوري. النجف 1967 م. ص 42 ـ 51.

15) شعر علي بن جبلة العكوك، جمعه د.حسين عطوان. ص. 115 ـ 119 ط. القاهرة 1972 م.

وهكذا تبقى هذه «اليتيمة» معلقة النسبة لا نستطيع الجزم بنسبتها إلى شاعر معين..!

أما هذا الدوقلة إن صح أنه شخص مدحجي، منبجي، فإننا لا نعرف عنه شيئا يمكننا الجزم به.. إلا أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى ما عثرنا عليه من اشارات تتعلق به...!

فصاحب لسان العرب ابن منظور على كثرة ما عنده من أسماء الشعراء وألقابهم فإنه لم يعرج على هذا الدوقلة. لا في مادة. د.ق.ل. ولا في غيرها...!!

بخلاف الفيروزابادي مؤلف القاموس المحيط. فإنه بعد أن شرح مادة. د.ق.ل. وبين مدلول كلمة : دوقلة... بأسلوبه المعهود في الإيجاز. زاد قوله : «وشاعر....!!» ولكنه لم يزدنا على ذلك شيئا...!!

ونفس الشيء، فعله شارحه الشيخ مرتضى في تاج العروس...

ومن الملاحظ أن كتابا بعنوان : معجم ألقاب الشعراء لمؤلفه د. سامي مكي العاني. نشره ببغداد سنة 1971 م، المجمع العلمي العراقي وهو معجم مفيد مرتب على حروف المعجم ذكر عددا كبيرا من ألقاب الشعراء، لكنه لم يعرج على الدوقلة...!

ولقب الدوقلة يذكرنا بلقب آخر شبيه به في اللفظ. وهو : الدوخلة... وهذا اللقب عرف به علي بن منصور الحلبي[16] صاحب أبي

16) بغية الوعاة. ط. الأولى. ص 355. ومعجم الأدباء لياقوت ج 15 ص 83. ط. دار المامون.

العلاء المعري... كما عرف بكنيته ابن القارح ورسائله مع أبي العلاء شهيرة..!

وهكذا يدخل الدوخلة عالم المعرفة بينما يظل الدوقلة في عالم النكرات رغم أن هذه القصيدة اليتيمة نسبت إليه منذ قرون.

ولا نودع الحديث عن القصيدة اليتيمة. والدوقلة دون أن نشير إلى قصيدة أندلسية شبيهة بها. وربما كانت داخلة في إطار المعارضة الشعرية المعهودة عند الشعراء...

ونعني بها قصيدة دالية، مدح بها الشاعر الأندلسي أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي المتوفى سنة 572 هـ = 1176 م الوزير الوقشي. الذي كان قائما بأعمال ابن همشك.. وأرسله سفيرا إلى مراكش لمفاوضة دولة الموحدين. والدخول في طاعتهم...

والقصيدة مثبتة في ديوان الرصافي.[17] ومطلعها :

أَلأَجْرَعِ تحتلــــــه هنـــــــدُ ينـدى النسيم ويـأرج الرنـد

فاس عبد القادر زمامة

17) ديوان الرصافي البلنسي. ص 53. ط. بيروت 1960 م تحقيق د.إحسان عباس.

مَلامحُ التُّراثِ المغربيِّ
حَول جَزيرة العَرب(*)

الشيخ حمد الجاسر

الحديث عن علماء المغرب ـ أندلسه وأقصاه، ووسطه وأدناه ـ وعن أثرهم في الثقافة العربية، أوسع من أن يحد أو يحصر.

فما الثقافة العربية في معناها الشامل ـ سوى صرح شارك في بنائه كل عالم عربي، في أي قطر من أقطار المعمورة، في مختلف العصور.

ولعلماء المغرب من الأثر القوي في تشييد ذلك الصرح، مالا يحتاج إلى إيضاح.

وليس يصح في الأذهان شَيْءٌ إذا احتاج النهار إلى دَليل

وحسبي أن أُلِمعَ ـ بإيجازٍ ـ إلى ملامحَ بارزةٍ من آثار أُولئك العلماء في جوانب خاصة من تاريخ الجزيرة وجغرافيتها.

(*) نص البحث الذي شارك به الكاتب في اللقاء العلمي في موضوع تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان بتاريخ 21 ـ 25 محرم 1402 الموافق 19 ـ 23 نونبر 1981 بالرباط.

عزلة الجزيرة بعد انتقال قاعدة الخلافة منها

انصرف العلماء وغيرهم عن جزيرة العرب منذ أن انتقلت منها الخلافة، وبانتقال الخلافة والسلطان والدولة تنتقل الرغبات، وتتجه الأبصار، وتتركز الآمال حيث يوجد الملك والسلطان، اللذان بهما تتيسر سبل الحياة، وتحصل الطمأنينة والهدوء في كنفهما.

ومع ذلك الانصراف فإن لمكة المكرمة في نفس كل مسلم من المكانة الدينية ما جعلها دائما مطمح الأنظار، فضلا عن كونها تضم مشاعر الحج، وتحوي بيت الله المعظم الذي فرض الله على كل مسلم قادر حجه - فهي ملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم، وهي بحكم دينهم الحنيف لا يمكن أن ينصرفوا عنها.

مكة المكرمة أعظم ملتقى فكري إسلامي

ولهذا فقد أصبحت منذ جاء الإسلام مركزا للثقافة الإسلامية العربية، يجتمع فيها من العلماء كل عام مالا يجتمع في أية مدينة أخرى من مدن العالم الإسلامي.

وكان العلماء منذ العصور الأولى يقصدونها من مختلف الأقطار، لا ليؤدوا ركنا من أركان دينهم أداؤه فرض فحسب، بل ليضيفوا إلى ذلك

التزود بزاد العلم والمعرفة. فالعالم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب، فيلتقى بكثير من العلماء الوافدين من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل بهذا الالتقاء من التقارب والتفاهم والاستزادة من العلم، والامتداد لروافد الثقافة، والانتشار للآراء والأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية في كل عام، مالا يحصل مثله في أي ملتقى.

ولقد كان علماء الأندلس رسل فكر، وحملة علم، وحماة ثقافة. فكانوا يفدون على مكة لا للحج وحده، بل لينشروا العلم، وليستزيدوا منه، وليكونوا صلة بين شرق البلاد وغربها بالعلم والثقافة.

لولا علماء الأندلس لجهلنا كثيرا من أحوال العالم الإسلامي

ولهذا فليس من الغريب القول بأنه لولا أولئك العلماء لأصبحنا نجهل كثيرا من أحوال العالم الإسلامي في عهوده الماضية، وخاصة ما يتعلق بجزيرة العرب. هذه الجزيرة التي صلتها بعواصم الخلافة الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة كانت أقوى وأوثق، وهي إليها أقرب وشؤنها لم تكن يوما ما مرتبطة إلا بهذه العواصم، ولم يكن للأندلس ولا للدول الإسلامية فيه أيٌّ نفوذ في هذه الجزيرة.

ولكن الرابطة الروحية وحدها أقوى وسائل الصلات وأوثق أسباب الروابط.

أفترى هذه الرابطة القوية لدى علماء المغرب أقوى منها لدى المشارقة ؟!

إذا صح الاستدلال بالآثار ـ وهذا بَدَهِيٌّ الصحة، ولا مجال للمجاملة في سبيل تقرير الحقيقة ـ فإن علماء المغرب بَرَّزُوا ـ على علماء المشرق ـ بما كتبوه عن الجزيرة في رحلاتهم للحج، بل نزوهم في هذا الميدان. مما سَأُلِمعُ إلى طرف من الحديث عنه، مما هو معروف.

ولا يزال الباحثون في ماضي الجزيرة ـ وسيبقون دائمًا ـ عالة في معرفة كثير من أحوالها على ما لعلماء الأندلس من آثار، كشف الدارسون عن بعضها في هذا العصر ونشروه، من مؤلفات أولئك العلماء، كابن أنس العذريّ، وأبي عبيد البكري، والشريف الإدريسيّ وغرهم.

من علماء الجزيرة من عرف في الأندلس قبل أن يعرف في بلاده

ولعل أعجب من ذلك وأغرب أن الجزيرة نفسها جَهلت من أحوال بعض مشاهير علمائها ما عرفه علماء الأندلس.

وها هي أمثلة عرضتْ لي أثناء البحث التي لم أُحاول في الاستقصاء من هذه الناحية، ولا شك أنه قد عرض لغيري ممن هو أوسع اطلاعاً، وأطول باعا في العلم وسعة البحث، من ذلك الكثير :

1 ـ مؤرخ مكة الفاكهي :

في القرن الثالث الهجري تصدى لتدوين تاريخ مكة عالم جليل من أهلها هو محمد بن إسحاق الفاكهي[1]، وهو معاصر لمؤرخ مكة الأزرقي، ولكن أعلم منه، وتاريخه أوفى وأشمل، قال، عنه مؤرخ مكة الفاسي الحَسَني (832 هـ) في كتابه «العقد الثمين»[2] في ذكر الكتب التي رجع إليها : (وكتابه في أخبار مكة وما أكثر فوائده) وقال في ترجمته :[3] (وكتابه في أخبار مكة كتاب حسن جدا، لكثرة ما فيه من الفوائد النفيسة، وفيه غنية عن كتاب الأزرقي، وكتاب الأزرقي لا يغني عنه، لأنه ذكر في أشياء كثيرة حسنة، مفيدة جدا، لم يذكرها الأزرقي، وأفاد في المعنى الذي ذكره الأزرقي في أشياء كثيرة، لم يفدها الأزرقي ـ إلى أن قال ـ : وإني لأعجب من إهمال العلماء لترجمته، فإن كتابه يدل على أنه من أهل الفضل. فاستحق الذكر. انتهى.

هذا المؤرخ الذي يدل ما وصل إلينا من كتابه على جلالة قدره لانجد له ذكرا فيما بين أيدينا من مؤلفات علماء المشرق إلا من زمن ياقوت

1) انظر عنه مجلة «العرب» السنة الثامنة من ص 801 إلى ص 853.
2) 9/1.
3) ج 1 ص 410.

الحموي في القرن السادس فما بعده، إن لم يكن بعد زمن ياقوت، إذ لا أستبعد أن يكون ياقوت نقل من نقل عن الفاكهي بالواسطة، ومن مؤلفات أندلسية، فهو كثير ما يهمل ذكر مصدره، ويدل على هذا أنه صرح في أحد المواضع بنقله عن السهيلي في «شرح السيرة» وذكر الحيدي في موضع آخر.

وهنا ملاحظة جديرة بالانتباه هي أن السهيلي في كتابه «الروض الانف» يعول في أخبار مكة على كتاب الأزرقي، ولم أر لما نسب ياقوت إليه ذكرا، مع تصريحه بأنه نقل عن السهيلي في شرح السيرة في كلامه على (واسط) في «معجم البلدان» بهذا النص : قال السهيلي في شرح السيرة : قال الفاكهي : يقال أن أول من شهده وضرب فيه قبة خالصة مولاة الخيزران انتهى وهو يعني واسطا الوارد في شعر عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي الذي منه :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وقد أورد ابن هشام في أول السيرة في الكلام على جرهم هذا الشعر.

أما علماء الأندلس فقد عرفوا الكتاب في زمن مبكر كما تدل على ذلك النصوص الواردة في بعض مؤلفاتهم ككتاب «معجم ما استعجم» لأبي

عبيد البكري (المتوفى 487 هـ)، و«فهرست ابن خير الأشبيلي» (575 هـ)[4] وغيرهما.

2 ـ أبو علي هارون بن زكرياء الْهَجَري[5]

وهذا عالم جليل يصح بأن يوصف بأنه عالم الجزيرة في عصره، فقد تصدى لتدوين ما يتعلق بها مما يهم الباحث معرفته، من مختلف أحوال سكانها، ووصف مواضعها وحددها، وذكر حيواناتها وطبائعها وأمراضها وطرق علاجها، وأودر من لهجات سكانها وأشعار شعرائها في العصر الذي عاش فيه ما لم يورده غيره.

ومع جلالة قدر هذا العالم بصنيعه الذي يكاد أن ينفرد به فقد كان جهل علماء المشرق به مطبقا، لولا ما وصل إليهم من علمه عن طريق علماء المغرب، الذين عرفوه حيا، ونقلوا مؤلفاته إلى بلادهم فاستفادوا منها وأفادوا.

في سنة 288 قدم إلى مكة عالمان جليلان ثابت بن حزم، وابنه قاسم بن ثابت، من أهل سرقسطة (سراقوسة الآن) وصفها صاحب «نفح الطيب»

---

4) 279.

5) انظر عنه كتاب «أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع» تأليف حمد الجاسر ـ منشورات (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) سنة 1388 هـ/1968م.

بأنها اعتنيا بجمع اللغة، وأدخلا إلى الأندلس علما كثيرا، وقد ألف قاسم كتاب «الدلائل» في غريب لغة الحديث، ومات سنة 302 قبل إكماله، فأكمله أبوه ثابت الذي توفي بعده سنة 313 عن خمس وتسعين سنة.

وفي كتاب «الدلائل» الذي بُدِئ بتأليفه على رأس القرن الرابع الهجري تبدو لنا أول الشواهد على صلة علماء الأندلس بأبي علي الهجري.

ثم كثرت النقول في كتب الأندلسيين اللغوية والجغرافية والتاريخية.

فنقول اللغوي العظيم علي بن سيده (458 هـ) في معجميه «المحكم» و«المخصص» وأبو عبيد البكري (487) في «معجم ما استعجم»[6] وفي «فصل المقال» وجاء بعدهما الرشاطي ـ عبد الله بن علي اللخمي (542) فألف كتاب «اقتباس الأنوار»[7] في الأنساب فاستفاد كثيرا مما جمعه الهجري.

وبواسطة علماء الأندلس عرف علماء المشرق طرفا يسيرا من أحوال الهجري، بحيث لم تَرِدْ ترجمته في مؤلفاتهم «كمعجم الأدباء» للحموي و«الوافي

---

6) صرح البكري بالنقل عن الهجري في مواضع ولكنه نقل من كتابه فصلا طويلا عن (حمى ضرية) نسبة للسكوني، ولا شك أن السكوني هنا نقل كلام الهجري بنصه، كما نجده في كتاب «وفاء الوفاء» كاملا منسوبا إلى الهجرة.

7) من هذا الكتاب قطعتان احداهما في (مكتبة الأزهر) في القاهرة، والأخرى في (خزانة الكتب العامة) في تونس.

بالوفيات» للصفدي و«بغية الوعاة» للسيوطي ـ لم تزد على القول : هارون بن زكريا الهجري أبو علي صاحب كتاب «النوادر المفيدة» روى عنه ثابت بن حزم السرقسطي وغيره، ويضيف ياقوت : ولا أعلم من أمره غير هذا.

أما الصفدي فإضافته : لقيه قاسم بن ثابت بالمغرب، ولقيه غيرهما بالمشرق، كذا قال وقاسم لقى الهجري بمكة كما تقدم، ولم أر من ذكر أن الهجري رحل إلى المغرب ولكن نوادره وتعليقاته عرفت بين علماء تلك البلاد، فنقلوا عنها ما تلقفه المشارقة عنهم.

وقد يكون من بين المشارقة من عرف شيئا عن الهجرى كعلي بن حمزة البصري (375 هـ) صاحب كتاب «التنبيهات»، والهمداني اليمني في «صفة جزيرة العرب»[8] حيث نقل أولهما عن الهجري مصرحا، ونقل الثاني بدون نسبة ما نقل، مما هو موجود في كتاب الهجري.

ومهما يكن الأمر فإن الهجري برز في مؤلفات الأندلسيين في صورة متميزة السمات، من حيث الاستفادة من علمه، والنقل عن كتابه «النوادر والتعليقات». بينما لايجد الباحث في مؤلفات علماء المشرق عنه سوى نتف

8) أنظر عن الهمداني ما كتبه حمد الجاسر عنه في مقدمة كتاب «صفة جزيرة العرب» من منشورات (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) سنة 1397 هـ 1977م.

يسيرة باستثناء ما نقله مؤرخ المدينة السمهودي في كتاب «وفاء الوفاء» في الكلام على الأحماء، وفي تحديد بعض المواضع، المضافة إلى المدينة.

ونقل السمهودي عن كتاب الهجري «النوادر والتعليقات» كان في القرن التاسع الهجري أي بعد أن عرف الأندلسيون الهجري بخمسة قرون.

3 ـ الحسن بن محمد الهمداني العالم المعروف

وهذا العالم لقي في بلده أقصى صنوف الأذى من جراء بعض آرائه، فلم يُكْتَفَ بالتنفير من مؤلفاته التي تحوي تلك الآراء، بل عذب وسجن مراراً، وطيف به مصفدا بالأغلال وشُرِّدَ ما يقرب من سنتين، ونسب إليه من التطرف في أفكاره ما نفر الأقربين منه، ولكن هذا كله لم يحل دون اهتمام علماء الأندلس به اهتماما حملهم على نقل مولفاته إلى بلادهم والاستفادة منها في حياته.

لامحل للحديث عن مكانة الهمداني العلمية، فقد عرف منذ زمن بمولفاته «صفة جزيرة العرب» و«الإكليل» وكتاب «الجوهرتين» وغيرها.

وأقيمت ندوة عامة بمناسبة ذكراه الألفية في صنعاء في الشهر الماضي، شارك فيها علماء من العرب والمستشرقين، وقد تناولوا في أبحاثهم جوانب حياة ذلك العالم، سوى جانب كان جديرا بأن يثير الانتباه، وهو أن علماء

الأندلس كانوا أبر بذلك العالم، وأشد حفاوة به من علماء المشرق. إذا كان البر والحفاوة يقاسان بمدى الاهتمام بآراء العلماء، والاستفادة بالنافع منها.

ان أقدم من كتب عن الهمداني ـ مما هو معروف ـ الحكم المستنصر بالله الذي تولى الحكم في الأندلس سنة 35 ـ وتوفى سنة 366 ـ والحكم ـ رحمه الله ـ كان محبا للعلماء، مقربالهم جماعا للكتب.

وقد نقل صاعد الأندلسي (462 هـ) في كتابه «طبقات الأمم» عن خط الحكم طرفا من الترجمة التي أوردها مفصلة للهمداني، وأتى فيها بأشياء عن هذا العالم لاتزال بحاجة إلى الدراسة منها قوله عن العرب : وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله منه شيئا، ولا هَيّأ طباعهم للعناية به. ولا أعلم أحدا من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي وأبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني. انتهى.

لقد عرفت كتب الهمداني وانتشرت في الأندلس في عهد الحكم المستنصر بالله، وهو عصر الهمداني نفسه، في القرن الرابع الهجري، واستفاد منها علماء تلك البلاد، وأكثروا النقل عنها في مؤلفاتهم ككتاب «معجم ما استعجم» للبكري وكتاب «المطرب في أشعار أهل المغرب»[9] لعمر بن الحسن بن دحية الكلبي (633/544) وغيرهما.

9) انظر الورقة الـ 49 من مخطوطة المتحف البريطاني، والكتاب مطبوع.

أما علماء المشرق ـ على ما علمت ـ فلم يعرفوا الهمداني معرفة استفادة إلا بعد أن عرفه الأندلسيون بما يقرب من ثلاث قرون، فقد تولى يوسف بن إبراهيم والد القفطي المؤرخ علي بن يوسف المتوفى سنة 646 ـ القضاء في اليمن، فاقتنى من مؤلفات الهمداني ما وصل إلى ابنه، مما ذكره في كتابيه «أنباه الرواة» و«أخبار الحكماء».

وعن القفطي ـ ومن عاصره من العلماء ـ عرف الهمداني لدى علماء المشرق.

أما معرفته في بلاده ـ اليمن في القديم ـ فكانت تحاط بما ينفر من مطالعة كتبه، وما تجدى هذه المعرفة ؟!

رحلات الحج :

المتحدث في هذه الندوة عما ألفه علماء المغرب من كتب الرحلات كمن يهدى التمر إلى هجر، فعلماء هذه البلاد أدرى من غيرهم بها، والأستاذ الجليل الشيخ محمد الفاسي هو ابن بجدة هذا الأمر، فقد تصدى لدراسة تلك الرحلات، دراسة تعمق واستيعاب، حتى أصبح من ذوي الاختصاص في هذا الباب.

وحسبي أن أشير إلى بعض الانطباعات الباقية في ذهني من أثر مطالعة كثير من رحلات علماء المغرب إلى مكة، فقد جمعت طائفة منها ولخصت ما يتعلق بالجزيرة فيها، ونشرته في مجلة «العرب».

ليست رحلتا ابن بطوطة وابن جبير ـ على جلالة قدرهما ـ بمدان الباحث بفكرة كاملة عما تحويه غيرهما من رحلات علماء المغرب، مما يتطلع إليه الدارسون لمختلف أحوال غرب الجزيرة، من معلومات وافية.

وليس من المبالغة القول بأن في رحلات ابن رُشَيْد الفِهْرِيّ والتُّجيبي والعبدريّ والعياشيّ والدَّرْعِيَّيْنِ أحمد بن ناصر، ومحمد بن عبد السلام، ومن بعدهم إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري في تلك الرحلات ما يعتبر من أوفى المصادر وأشملها وأوثقها في دراسة كثير من أحوال المدينتين الكريمتين مكة والمدينة، من ثقافية واجتماعية واقتصادية. وهذا ما لم أر أحدا من الباحثين اتجه له باعتبار تلك الرحلات تكون وحدَةً متكاملة في موضوعها.

أما عن وصف طريق الحج البريّ الساحِلي من القاهرة حتى مكة المكرمة وتحديد منازل ذلك الطريق، وذكر أهلها، ففي تلك الرحلات من المعلومات مالا يوجد في غيرها من حيث الاستيفاء ودقة الوصف.

وعلى ذكر رحلات الحج، تحسن الإشارة إلى أن من أقدم من كتب في

وصف منازل الحجاج من الأندلسين ـ فيا أعلم صاحب كتاب نظام المرجان»، في مسالك البلدان، أحمد بن عمر بن أنس العذري الأندلسي (478/393 هـ)[10] وكان قد جاور بمكة بضع سنين ـ من سنة 408 إلى سنة 416.

ومع أن كتاب العذري لم يصل إلينا كاملا إلا أن كثيرا من نصوصه وردت في مؤلفات البكري والإدريسيّ والحِميريّ صاحب «الروض المعطار».

وفي القرن التاسع الهجري أطلع عالم مشرقي هو محمد بن محمد بن العطار[11] على ذلك الكتاب، فنقل منه جملا مفيدة في كتابه «منازل الحج» منها :

1 ـ وصف الطريق بحرا من جدة إلى القلزم.

2 ـ ذكر المنازل من بغداد إلى مكة.

3 ـ ذكر المنازل من مكة إلى اليمن.

ومن تلك الجمل ما ورد ذكره في المؤلفات المشار إليها.

☆ ☆ ☆

10) انظر مجلة «العرب» السنة الثانية عشرة صفحة 323 وما بعدها.

11) عن الاختلاف في تاريخ وفاة ابن العطار انظر «العرب» أيضا س 12 ص 336.

وبعد : فما أراني قلت جديدا، أو تحدثت مفيدا، في هذه الندوة الكريمة التي ضمت نخبة طيبة من العلماء، وما طمحت إلى ذلك أو فكرت فيه.

ولكنها كلمة وفاء واعتراف بفضل، وتعبير عن صدق التقدير لهؤلاء الأحباب، من علماء هذه الرحاب الكريمة، ممن أفضلوا بالدعوة للالتقاء بهم، لتنسم إشارة تلقوها عن سلفهم الصالح، فحفظوها وصانوها، بل نموها وزادوها، ثم أكرموا إخوانهم ـ وفيهم من هو إلى الاستفادة والاستزادة أحوج ـ فأوجدوا من جمعهم في هذه الندوة من الأسباب ما يقوي أواصر الأخوة، ويحكم روابط المحلة. فلهم الفضل أولا وآخرا :

على حدّ قول الإمام الشافعيّ :

قالوا يزورك أحمد وتزوره	قلت الفضائل لا تفارق مَنْزِلَهْ
إنْ زرته فلفضله، أو زارني	فبفضله، فالفضل في الحالين لَهْ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المملكة العربية السعودية   **الشيخ حمد الجاسر**

قصة من واقع الحياة



الحل الاشتراكي

أحمد عبد السلام البقالي

كل الأديان والمذاهب الصالحة تهدف إلى السمو بالبشرية إلى مستوى أعلى... ويعتمد نجاحها أو فشلها في مجتمع ما على المستوى الحضاري للقائمين على تطبيقها فيه.

كان يمكن أن يعيش طول حياته دون أن يعرف ما هو «الحل الاشتراكي»، أو حتى أن يسمع به... كان جهله بذلك سيبقى ثغرة واسعة في ثقافته الاشتراكية، وخصوصا وأنه نشأ في أحضانها، ورضع لبانها من ضرع الثورة الحلوب... ولكنه عرفه أخيرا... وبمحض الصدفة !

كان بوسلهام الدريوش يجلس، ذلك المساء، في ركنه المفضل بمقهى الحي، يلعب الورق، كما اعتاد أن يفعل منذ استقلال البلاد، مع صديقه،

ورفيقه في السلاح، «الجيلالي بو سكومة»، الذي أطلق عليه ضابط الحالة المدنية الأجنبي هذا الإسم الغريب لاعوجاج ذقنه وفمه إلى اليسار من آثار لقوى أصيب بها في صباه...

☆ ☆ ☆

كان موظفو إدارة الاستعمار يتعمدون إطلاق الأسماء المضحكة والمهينة على المواطنين البسطاء، فيسمونهم بعاهاتهم، إن كانت لهم عاهات، أو بشكل مظهرهم، أو بطريقة كلامهم أو حركتهم، علما منهم بسيكولوجية الأسماء، وتأثيرها سلباً وإيجاباً على أصحابها... فكنت ترى لوائح أسماء الجندين أو العمال أو التلاميذ فتخجل من قراءتها... تجد فيها مثلا أسماء مثل : عباس المدابزي - الجيلالي بوزفور - عبد الرزاق ديم مو - عبد الجبار مشتوف عليه - حيداس الكفايتي - عبد العاطي بودبوزة - جان جاك بالبغل (الملقب بولد النصرانية) - فرنسوا هوفان - المعطي بوتفليقة - الغيلوفي بو بلموعة - بن قيوح الدماملي - الغرباوي بوشدوق (الملقب بالكاطاسطروف) - بن دفعة قراعوج (بتسكين القاف والعين)، وما إلى ذلك من الأسماء التي تحتاج إلى عبقرية خاصة في العثور عليها لتصبح لطخة عار في جبين جميع من يحملها، وعقدة نفسية تصحبهم حيثما ذهبوا.

☆ ☆ ☆

وقام رفيقه (بوسكومة) لقضاء حاجة، فبقي (بوسلهام الدريوش) ينتظر عودته، ويمسح بعينيه أوجه الزبناء المتعبة العابسة، وهم عاكفون على لعب الورق يحاولون، مثله، تفادي التفكير في داخلهم...

ولم يكن يقاطع هدوء المقهى إلا شجار مفاجئ بين لاعبين أو أكثر، اكتشف أحدهم غش الآخر أو تلاعبه فكال له لكمة على أم عينه، فدفع الآخر المائدة، بما عليها، في وجهه، فقام الثالث والرابع، كل منهما ينتصر لمقابله، وارتفعت الكراسي، وانكسرت على الرؤوس والأكتاف والظهور، وتطايرت كؤوس القهوة،وزجاجات البيرة في فضاء المقهى المثقل بالدخان، ونزلت المطارق (الهراوات الغليظة) على الأدمغة.. وسمعت الصرخات المكتومة حين تصيب الأقدام البطون وما تحتها.. وتقع الهياكل على الأرض فتدوسها الأقدام عن غير قصد.. وتنغرز الأسنان في السيقان لمجرد أنها كانت قريبة منها.. ويستمر الحال هكذا حتى يتدخل «مسعود الموايشي»، صاحب المقهى، والملاكم السابق، فيفض الشجار بأبسط طريقة يعرفها، وهي حمل المتشاجرين والإلقاء بهم، واحدا واحدا، خارج المقهى، بعد نطحهم على الجباه ليفقدوا وعيهم أو يدوخوا فلا يعودوا إلى المقهى قبل خروج البقية !

☆ ☆ ☆

لم يكن يقع من ذلك شيء حين قام (الجيلالي بوسكومة) لقضاء حاجته، وترك رفيقه (بوسلهام الدريوش) وحيدا ينتظره، فأمسك هذا برزمة الورق، وجمعها، ورتبها، ثم نشرها على شكل مروحة، ثم على شكل دائرة، ثم جمعها، وخلل بعضها في بعض، ثم وزعها بينه وبين لاعب وهمي أمامه، وأخذ يلعب الدورين معا في محاولة يائسة لتفادي الرجوع إلى نفسه والتفكير في داخله.

كان يرى داخله عبارة عن جب عميق مظلم به دوامة دائمة الـدوران تهدد بابتلاعه، وهو واقف على حافتها الرقيقة بظهره إلى الحائـط، وكل همـه الا يسقط فيها...

ورفع عينيـه، مرة أخرى، عن الورق، آملا أن يرى رفيقـه (الجيـلالي بوسكومة) عائدا لإنقاذه من وحدته وظلام دوامته، فوقعت عيناه على شاشة التلفزيون الملونة بالحائط المقابل ـ وسمع أحدا يناديه :

«أنت ! نعم، أنت !»

ونظر حواليه فلم ير أحدا...

ولكنه تنبـه بعـد لحظـة ذهول إلى أن الـذي كان ينـاديـه هو الرجل الـذي يظهر على التلفـزيـون، كان وجهـه مـألـوفـا... فهـو منظر الثـورة ومرشـدهـا... وركـز عينيـه على الـوجـه الطـويـل الأبيض ذى العينين المدسيتين، وأنصت باهتمام سعيدا بحبل النجاة الذي ألقي إليه...

كان الرجل يقول :

«أنت الـذي تجلس هنـاك في البيت، أو المقهى، تلعب الـورق، أو تضيع وقتـك في الكلام الخـاوي، لمـاذا لا تستثمر جهـدك في عمل كريم يـدر عليـك الربح، ويعود على الوطن بـالخير... لقـد فتحت لـك الثـورة المجال للعمـل الحر، فلمـاذا لا تجرب حظـك في الـزراعـة أو التجـارة أو الصنـاعـة المحلية ؟! إذا كانت لك قطعـة أرض فلمـاذا لا تزرعهـا ؟ وإذا كنت تعرف عمل شيء فلماذا لا تفعله بدلا من قضائك العمر في الفراغ والضياع !؟».

وجاء (الجيلالي) رفيق (الدريوش)، وتبوأ مكانه، وأمسك برزمة الورق، وأخذ يوزعها بينه وبين رفيقه، دون أن يفطن هذا لوجوده حتى سمعه يقول :

«إيه ! أين أنت ؟ إلعب !»

وحين لم يستجب له، التفت (الجيلالي بوسكومة) لينظر إلى حيث كان ينظر صديقه، فوقع هو الآخر في أسر كلام المنظر المعروف. وتعب ملتفتا فوضع الورق ثم استدار ليواجه الشاشة السحرية.

وانتهى الرفيق المنظر من حديثه فاستدار (الجيلالي) ليواجه صديقه الذي فوجئ به أمامه :

«رجعت ؟»

«منذ بداية الخطاب !»

«هل أعجبك ؟»

وهز (الجيلالي) كتفه :

«خطاب كجميع الخطابات»

وأدرك أنه قال كلاما ممنوعا يمكن أن يجر عليه المتاعب. فالتفت حواليه ليرى هل سمعه أحد... ولحسن حظه كان الجميع خائضين في شؤونهم، وقد تعلقت فوق الرؤوس المنكسة سحابة من دخان السجاير الرخيصة. فمدَّ عنقه وسأل :

- هل قال شيئا جديداً ؟

فنهض (بوسلهام الدريوش)، وأدخل يده في جيب سترته، وأخرج محفظته المهترئة ليدفع ثمن القهوة، وأشار برأسه لصديقه ليتبعه إلى الخارج.

فتبعه (بو سكومة) وقد انفتحت شهيته لسماع خبر جديد... فقد كان يعرف معنى إشارة صديقه تلك... معناها : «اتبعني إلى حيث نتحدث بعيداً عن الآذان والعيون... فعندي لك سر خطير، أو خبر جديد ممنوع...»

وفي الخارج تمشى الصديقان حتى خرجا عن مركز العمران إلى ظاهر القرية، وقال بوسلهام :

ـ يبدو أن هناك شيئا جديدا في الجو ـ سياسة جديدة أو تحول جذري في تسيير البلد ـ.

ولم يفهم (بو سكومة)، فانحنى برأسه على صديقه ليسمع أحسن، فقال الدريوش ما معناه :

ـ يبدو أن رياح التفتح بدأت تهب مع التغير الذي حدث في الرئاسة مؤخرا ـ.

فبعد عشرين سنة من التزمت والانغلاق، والأغلاط الاقتصادية الفادحة التي كلفت البلد خسائر خيالية من جراء تطبيق سياسات مستوردة أجنبية عن الروح الوطنية، تمجها الأرض، وترفضها طباع الناس، بعد كل هذه المدة التي كان يمكن أن تغرق فيها البلد في الديون لولا ثروتها الطبيعية التي أهدرت لتغطية الأخطاء البليدة الفاحشة... بعد كل هذا أدرك المسؤولون الجدد أنه لابد من تسليم الأمور إلى الشعب، وفتح المجال أمامه للعمل الحر، وأن الموظف لا ينتج الثروة، بل يستهلكها، وأحيانا يبذرها غير عابئ بالمواقب، مادامت أجرته مضمونة !

وكان (بو سكومة) يستمع إليه مؤمّناً على أقواله ـ بتحريك رأسه ومصدقا؛ وأضاف (بوسلهام) متحمسا :

ـ أتعرف (ياالجيلالي) ماذا سأفعل ؟ لقد أوحى لي الخطاب أن أخدم قطعة أرض الوالد وأجرب حظي في الفلاحة.. ما رأيك ؟

ووافقه (الجيلالي) كعادته، وبدأ الإثنان يناقشان نوع الغلّة التي يجب زرعها في تلك القطعة الأرضية الصغيرة التي لم تطلها ذراع التأميم الاشتراكي لصغر حجمها، وبعدِها عن العواصم الكبرى، وتعلقها في سفح أحد الجبال، وأخيراً استقرّ رأيها على زراعة الدلاح...

وبادر (بوسلهام الدريوش) إلى ما كان وفره من دنانير فأخرجها من حسابه بالبريد، واشترى لوازم الزراعة، والبذور، والأسمدة، وغيرها... واستأجر جراراً صغيراً من أحد أقاربه بالتعاونية الزراعية، بعث به إليه سرّاً لقلب الأرض ليلاً... وزرع البذور بمساعدة قريبه المستشار الفلاحي.. وقعد ينتظر..

ولما كانت الأرض جيدة، وكانت قد ظلت نائمة تستريح منذ عشرين سنة، فقد استجابت بقوة للبذور الجديدة، ولم تمض بضعة أسابيع حتى صارت خضراء يانعة تمتد فوقها فروع نبات الدّلاّح متفتّحة الأزهار..

واغتبط (بوسلهام الدريوش) وصديقه باستجابة الأرض لجهودهما.. ولم يكْتُمَا نَدَمَهُمَا على الوقت الذي أضاعاه هدراً في لعب الورق بالمقهى.. فما أجمل أن يرى الإنسان ثمار عمله تخرجها إليه الأرض الطيبة بحب وسخاء !

وذات صباح فوجئا بظهور كريات صغيرة خضراء داخل جميع تلك الزهور، فاستولى عليهما الحبور وهما يتجولان بين الخطوط المتوازية، وأخذا يضحكان ويتمازحان وكأنهما غلامان مراهقان، ويضربان بعضهما بعضاً على ظهريهما، ويتدافعان في مرح صبياني خالص...

ومضت بضعة أسابيع أخرى، وتحولت الكريات الصغيرة إلى كرات كبيرة تلمع تحت أشعة الشمس كقباب خضراء في مدينة شرقية قديمة...

ولم يكن أحد بالمنطقة قد زرع الدلاح تلك السنة، ولا السنوات التي قبلها ـ فقد كان المسؤولون عن القطاع الزراعي ينظرون إلى تلك الفاكهة على أنها كالية، وأكلة برجوازية زائدة، فلم يكونوا يزرعون منها إلا ما يكفي لاستهلاكهم هم وعائلاتهم، وكبار المسؤولين.. لذلك حين نضجت، وحان موسم قطافها كان سكان الناحية يخرجون عن طريقهم ليأتوا للتفرج عليها، في انتظار إعلان يوم عرضها للبيع.

وفعلا قرر الدريوش وصاحبه بيع محصولها في السوق القريبة، واستأجرا من التعاونية شاحنة لأخذ المحصول إلى السوق في الصباح التالي :

☆ ☆ ☆

وفي ذلك المساء فوجئا بعدد من السيارات الحكومية تصل إلى المزرعة.. وظن بوسلهام والجيلالي أن الموكب في طريقه إلى مكان ما، فوقفا يتفرجان على السيارات السوداء الصقلية وهي تلمع في شمس البادية الساطعة، ويرفعان التحية للرسميين الكبار بداخلها.

وبدلا من أن تجتازهم السيارات الأنيقة إلى وجهتها، توقفت على جانب المزرعة.. وانفتحت الأبواب، وخرج المسؤولون الكبار ببدلهم الأنيقة، وكرفاتاتهم المعقودة بعناية، فسلموا على بوسلهام والجيلالي، وسألوهما هل هما صاحبا المزرعة..

وتعرف الصديقان على جميع المسؤولين من خلال صورهم في الجرائد وعلى شاشة التلفزيون، ومن خلال زياراتهم للمنطقة، فتقدما للسلام عليهم، كل واحد باسمه، فخورين بالحظوة بهذا الشرف الذي لم يكونا يحلمان به.

كان على رأس الوفد الكبير رئيس فرع الحزب الوحيد (سي عبد الجبار بومطرق)، وكان يرافقه نائبه (هواري دماغ العتروس) ومساعده (عبد القادر جانيْ مار) ورئيس الشعبة المحلية (عبد النبي الشطيطح) والمرجان شاف (عباس البكة المُخَيِّخْ)، ورئيس الشرطة (عبد الصمد زوج كوارع) ومساعده (الغرباوي بوشدوق والقاضي (الفقيه المكي الدباحي بوكبود) الملقب بـ (حاقات)، وعدد آخر من المسؤولين ومساعديهم كان بعضهم رفاقاً لهما في السلاح أيام المقاومة، وبعد الاستقلال «لعبو السياسة» وتسلقوا المناصب العالية في الحزب، ولبسوا بدل الخارج، ونسوا رفاقهم القدماء، أو تجاهلوهم لأنهم مكثوا تحت... وعرفوا من بين هؤلاء (الجذوب بلكعبي) و(ضيف النبي قنيجع) و(الهندقة) و(البميوي)، و(سعيد تقيبيعة) و(عبد الفتاح المدلقم) و(الراضي شغموم) و(الغرباوي غطب الله) الملقب بـ (ارفد واشعط).

ووقفت اللجنة الكبيرة تنظر إلى مزرعة الدلاح مبهورة بما رأت من ضخامة الفاكهة النادرة التي تسيل اللعاب، وكانت تصدر عن بعضهم كلمات : «تبارك الله» و«الله يبارك» و«با، آلور !» و«فانتاستيك !».

وتقدم عبد (الجبار بومطرق)، رئيس الوفد فصافح (بوسلهام)، وصديقه (الجيلالي)، وهنأهم بحرارة على مجهودهم الذي أثمر هذا الإنتاج الرائع، ثم توجه بالخطاب إلى الحاضرين من سكان القرية، والمزارعين المحليين، وعابري السبيل الذين كانوا يتبعون مثل هذه المواكب الرسمية كما تتبع

العقبان الجيوش والوحوش الكاسرة في الغابات، ليتفرجوا على ما سيحدث لمواطن أتسعه حظه بالسقوط في أيديهم ذلك اليوم...

ولكن خطابه جاء مخيبا لآمال «الساديين» منهم... فقد كانت كلماته كلها ثناء عاطرا على مجهود الرجلين، وروحها الاشتراكية الشعبية الديموقراطية التقدمية الإيجابية...

وحين انتهى من خطابه تقدم مدير التعاونية المحلية فسأل (بوسلهام).

- بكم ستبيع محصولك ؟

- والله لا أدري - فلم يسبق لي أن زاولت هذه المهنة من قبل.

فرد المسؤول بجد خشن :

- يجب أن تحدد السعر من الآن... هذه تعليمات الحزب والحكومة...

- أعتقد أن السوق هو الذي يحدد السعر - سأعرض المحصول للمزايدة في سوق الجملة، وسيأخذه من يدفع أعلى ثمن، هذه هي القاعدة كما نعرفها، أليس كذلك ؟

فحرك المسؤول رأسه غير موافق :

- لا.. لا.. لا.. ليس كذلك ! إذا لم تعرف كيف تحدد الثمن، فأنا سأحدده لك.

فالتفت (بوسلهام الدريوش) إلى صديقه (الجيلالي) مستشيرا، فهز هذا كتفيه غير دار ما يقول، فابتسم (بوسلهام) حائرا، وقال :

- الله يبارك، يا سيدي - إذا كان هذا هو المعمول، فحدد لنا الثمن أنت ..

ـ فمسح المسؤول الفاكهة بعينيه، وأخرج من جيبه قلم رصاص وكناشا، وكتب قليلاً ثم قال :

ـ ستبيع دلأحك بنصف دينار للكيلو.

فبهت (بوسلهام)، وابتسم، مرة أخرى، في طيبوبته، غير مصدق.

ـ نصف دينار !؟ أخشى أنه ثمن بخس جداً..

ـ ثمن معقول جداً..

ـ إنه لن يعطي حتى مصاريف البذور والسماد.

فرد الرجل بإصرار :

ـ بل سيغطيها ويبقى الخير والبركة !

فأخرج (بوسلهام) من جيبه رزمة أوراق، وفتحها أمام المسؤول :

ـ انظر، يا أخي، إلى هذه المصاريف.. فقد اضطررت إلى شراء جميع الأدوات الفلاحية، وصرفت كل مدخراتي في عشرين سنة، واقترضت من بعض الأصدقاء، أنا وشريكي هذا.. انظر بنفسك !

ومد إليه الأوراق فأعرض الرجل عنه قائلا :

ـ تلك مشكلتك ـ وتعليماتي أن ثمن هذه الفاكهة لا يجب أن يتعدى نصف دينار.. المواد الغذائية يجب أن تكون رخيصة في المجتمع الاشتراكي !

ـ ولكننا سنخسر.. وإذا خسرنا لن نزرع شيئا مرة أخرى، ويخسر المجتمع الاشتراكي !

فرفع المسؤول رأسه غير عابئ، وهز كتفيه، والتفت فبصق خلفه، وقال، وهو يسرح شاربه الطويل :

ـ هذه هي تعليمات الحكومة والحزب، وعليكم تنفيذها..

وهنا غلى الدم في رأس (بوسلهام)، فقال، دون أن يشعر بخروجه عن وداعته الفطرية :

ـ إذا كان هكذا، فأنا لن أبيع..!

وهنا طوى المسؤول كُنّاشه، وأعاده إلى جيبه، وقال بهدوء :

ـ إذا لم تكن ستبيع محصولك، فسنلجأ إلى «الحل الاشتراكي»..

وهنا تهلل وجه (بوسلهام) ورفيقه (الجيلالي) للخبر، وقال (بوسلهام) شبه هاتف :

ـ عاشت الاشتراكية !

وأيده (الجيلالي) رافعا قبضته :

ـ عاشت الاشتراكية !

وانصرف الرجل ملتحقا بالوفد الكبير الذي كان يتجول بين الدلاح يختار أحسنه، ويقطعه، ويأخذه للسيارات، وذهب الموكب تاركاً عجاجة غبراء...

☆ ☆ ☆

وبات بوسلهام الدريوش يتدرب على ما سيقوله للجنة الحزبية التي ستأتي لعرض الحل الاشتراكي.. تخيلها لجنة تحكيم من قدماء المجاهدين من الفلاحين والتجار العارفين بأُصول الفلاحة والتجارة، وأنه سيسهل عليه إقناعها بوجهة نظره الواضحة العادلة.

وكيف لا وهو الذي نشأ وتربى في أحضان الثورة الاشتراكية الشعبية الديموقراطية منذ نعومة أظفاره.. فكم من ليلة جلس مع المجاهدين في حلقة حول نار داخل كهف وسط غابة «أو شعب» من شعاب الجبال، بعيدا عن مطارديهم من جنود الاحتلال، ينصتون إلى حديث شاب من الذين تدربوا في المشرق العربي أو في دول أوروبا الشرقية.. كان هو شخصيا بفضل الاستماع إلى الذين جاؤوا من المشرق العربي؛ فقد كانوا يقصون على المجاهدين قصص الاستشهاد الإسلامية الحبيبة إلى قلوبهم.. وكان المجاهدون يجدون في الغزوات والسرايا والكمائن والمعارك النبوية الكبرى لذة عميقة، وفي صبر الصحابة لأذى قريش وتنكيلهم بالضعفاء منهم عزاء وأسوة حسنة.. فما أشبه قريش حينذاك بآلة جيش الاحتلال الجبارة اليوم ! وما أشبه حالهم معها الآن بحال أولئك المؤمنين الأولين !

وكان الشباب الذين قدموا من أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفيتي يبشرونهم بالمجتمع الاشتراكي الذي ستشرق شمسه بعد طرد الاحتلال المقيت.. ذلك المجتمع الرائع الذي ستتحقق فيه الأخوة، والعدالة الاجتماعية، والمساواة في الحقوق والواجبات، ويتحقق لكل فرد من أفراد الشعب كل ما كان يحلم به من كرامة المواطن في أرضه، ومن حرية في الفكر، والقول، والعمل..

ولكن (بوسلهام الدريوش) كان يفضل الاستماع إلى الفريق الأول، الفريق القادم من المشرق العربي.. من مسقط رأس الرسول الأكرم، ومهبط الوحي، وموطن بيت الله الحرام، وقبر رسول الله ﷺ.. فقد كانوا يبدأون حديثهم باسم الله، لا باسم الثورة، ويصلون ويسلمون على رسول الله، وآله، وصحبه، بينما كان الآخرون يمجدون أسماء أجنبية لا يعرف هو حتى كيف ينطق بها، ولا يعرف أصحابها، ولا ماذا فعلوا، ولا تربطه أية علاقة بهم.

وكان يشعر بأن هناك صراعا صامتا مكتوما بين الفريقين.. ولكنه في سنه الصغيرة تلك لم يكن يستطيع معرفة أسباب ذلك الصراع. فكل خلاف لم يترجم إلى الاقتتال بالسلاح، في نظره خلاف بسيط لا يستحق الاهتمام.

☆ ☆ ☆

كان بولسهام الدريوش قد انضم إلى المجاهدين في سن الرابعة عشرة من عمره.. لم ينعم بأحلام مراهقته الجميلة التي أجهضت ووئدت في مهدها فجأة وبعنف مريع، دون أن يقترف ذنباً ـ فقد نجا من موت محقق بأعجوبة ! خرج بالليل من قريته يبحث عن عنزة شاردة. وحين عاد، بعد ساعتين، كانت القرية بأكملها قد اختفت.. مسحت من وجه الأرض ! مرت فوق أكواخها الواهنة دبابات جيش الاحتلال وأهلها نائمون، فسوتها بالأرض بمن فيها، وانتقلت إلى القرية التالية.. وتركت دماء رجالها، ونسائها، وأطفالها ساخنة تجري تحت الأنقاض، ومن بينهم أمه الحبيبة وإخوته السبعة الصغار.. أما أبوه، فقد كان قتل في حادث آخر.. أخذه جنود

الاحتلال مع جماعة من رجال القرية للتحقيق معه في مقتل أحد الخونة المتعاونين معهم في تلك الناحية.. وحين لم يعترف أحد منهم بقتل العميل، ولم يدل على قاتله، عذبوهم واحداً واحداً حتى لفظوا أنفاسهم جميعاً صبراً تحت التعذيب..

وهام بوسلهام في تلك الليلة على وجهه بين شعاب الجبال ومسالكها الوعرة التي لا تستطيع جنازر الدبابات أن تقتحمها.. وظل كذلك يختفي نهاراً ويسير ليلاً، حتى عثرت عليه كوكبة من رجال المقاومة، وقد كاد يقتله الجوع، والعطش، والمبيت بالعراء..

☆ ☆ ☆

وتركت تلك التجربة في نفسه جرحاً عميقاً ما يزال مفتوحاً ينزف دما حتى بعد أزيد من عشرين سنة من استقلال البلاد..

ولم تعادل هذه التجربة عنفاً وشدة على نفسه إلا تجربة أخرى مر بها أثناء تدريبه على أعمال المقاومة..

كان بوسلهام الدريوش فتى نحيفاً، هادئاً، مسالماً، ذا طبع دمث يشبه طباع العذارى المتحجبات، كما يوحي بذلك اسمه.. وكان مدربه (الجيلالي الغدايد) رجلاً ضخم الجثة، جاحظ العينين، شرس الطباع. وكان لطف (بوسلهام الدريوش) ودماثة طبعه، ونعومة صوته، ولين عوده، وحركاته، تغري مدربه (الجيلالي الغدايد) به، فيستعمل معه العنف ليعلمه الرجولة والخشونة، كما يدعي.. وكان (بوسلهام) يطيعه ويمتثل أوامره، كقائده، عن طواعية واختيار.. واجتاز (بوسلهام) جميع التداريب القاسية بصبر واحتمال.

وجاء يوم أخبرهم فيه القايد (الغدايد) بأنهم سيجتازون امتحاناً عملياً ليرى هل أصبحت قلوبهم في قسوة قلوب أعدائهم عليهم، أم ما تزال طرية ناعمة.

وكان رجال المقاومة قد نصبوا كيناً لقافلة تموين للعدو، فقتلوا بعضهم، وأسروا الباقي.. وأتوا بهم إلى معسكرهم في شعاب الجبال.. وأمر القائد (الغدايد)، فاصطف فريق المتدربين الجدد، وبينهم (بوسلهام الدريوش).. وأصدر القائد أمره فجيء بأحد الجنود الأسرى ويداه مكتوفتان خلفه، وعرض له ساقه فأوقعه على الأرض... ونادى بمتدربين وأمرهما أن يمسكا بالأسير كما تمسك الكباش ساعة الذبح.. ثم نادى (بيوسلهام الدريوش)، فخطا هذا إلى الأمام خطواتٍ عسكرية ثابتة، ووقف أمام قائده. فاستل هذا خنجراً من غمده، وناوله إياه، وأمره بصوت نابح :

- إذبح عدوك !

وأمسك (بوسلهام) بالخنجر، ونظر إلى الضحية، وبدأت فرائصه ترتعد، وكأنه ريشة في مهب الرياح.. كان الأسير الشاب الأشقر ينظر إليه بعينين زرقاوين فيهما كل رعب العالم، وقد أدرك ما يراد به..

وسمع بوسلهام نبحة القايد (الغدايد)، مرة أُخرى، فزاد ارتعاشه، وأصبح ارتعاداً، ثم ارتجافاً عنيفاً.. والقائد (الغدايد) لا يعيد أمره مرتين.

وفجأة ارغى عليه القائد، وأمسكه بيديه الغلظتين الخشنتين كفرعي شجرة شائكة، وذمع به إلى تحت حتى انثنت ركبتاه، وأصبح وجها لوجه مع الجندي الطريح :

- اذبحْ ! اذبحه، قلت لك !

فارتعد (أبو سلهام الدريوش)، وسقط الخنجر من يده، فثارت ثائرة القائد الغدايد)، فانحنى والتقط المدية، ووضعها داخل كفّ (الدريوش)، وأمسك بقبضته من فوق المدية، ووجهه نحو عنق الجندي المستغيث..

وأغمي على (بوسلهام الدريوش) إغماء كاملا... وحين أفاق من غشيته، وجد نفسه ملقى تحت شجرة، وملابسه ملطخة بالدماء..

ومنذ هذا الحدث أهمله القائد (الغدايد)، وأسقطه من حسابه، وصار لا يناديه إلا (بفاطنة)، احتقارا له، وطعنا في رجولته..

☆ ☆ ☆

وتركت هذه التجربة في نفسه جرحا عميقا آخر ما يزال ينزو دما... ولم يندمل حتى بعد نيف وعشرين سنة من استقلال البلاد... سيحمله معه (بوسلهام) إلى قبره.

وأصيب من جراء هذا الحادث بذهول.. وصار يعاني من فترات شرود، وانزواء، وانطواء على نفسه ـ فلم يكن يأنس إلا بصديقه (بوسكومة).

☆ ☆ ☆

استعرض (بوسلهام الدريوش) شريط حياته المأساوي الدامي وهو مستلق على حشيته التبنية يحملق في ظلام الكوخ، ويستمع إلى شخير صديقه النائم..

وعاد به خياله إلى أحداث ذلك اليوم، وتذكر انفعاله مع رئيس لجنة تحديد الأسعار.

وحدث نفسه بأن «الحل الاشتراكي» لابد أن يكون لصالحه.. فهو الذي أعطى بلده كل شيء، ولم يطالب بأي شيء.. بل وما زال يعطي، ولن يزال مادام قادرا على العطاء.. وما غلة الدلاح المظيمة التي زرعها إلا جزء بسيط من ذلك العطاء الكبير الذي حض عليه المرشد الفصيح في التلفزيون.

وأغمض عينيه حالما بالنصر أمام لجنة الجاهدين غدا، إن شاءا لله.

☆ ☆ ☆

ونام نوما ثقيلا ولم يفق إلا حين أيقظه صديقه الجيلالي بهزات عنيفة، وبصوت فيه نبرة قلق واستعجال..

ـ ماذا تريد ؟

ـ أنهض ـ وتعال انظر..

وترامى إليه زئير آلة فلاحية خارج الكوخ، فنهض مسرعا، وخرج ينظر إلى ما يحدث في حقل دلاحه..

كانت حفارة التعاونية تدك دلاحة الفاخر الجميل بجنازرها الحديدية وتسويه بالأرض من طرف الحقل إلى طرفه..

وسقط فكه، وهو ينظر إلى ما يحدث وكأنه في غمار كابوس مزعج !

ولم يدرك أنه يرى الواقع إلا حين رأى مدير التعاونية بكناشة الأسود، واقفا إلى جانب سيارته، يصدر التعليمات والتوجيهات لسائق الحفارة ألا يبقي أي حبة من الفاكهة الطيبة التي أنعم الله بها عليه وعلى بني وطنه بكرمه الرباني الواسع..

وحين تأكد مدير التعاونية من ذهاب كل شيء، صرف الحفارة، وركب سيارته، وانصرف تاركا وراءه عجاجة من الغبار..

ومرت لحظة ذهول لم ينطق فيها أي الشريكين.. ولم يفق (بوسلهام) إلا على صوت رفيقه (الجيلالي) وهو يقول :

ـ أهذا هو الحل الاشتراكي ؟!

الرباط — **أحمد عبد السلام البقالي**

مؤلفات ابن البنّاء المراكشي
وطريقته في الكتابة

رضوان ابن شقرون

تنسب لأبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء العددي (ت 721 هـ / 321) قائمة طويلة من المؤلفات، تتجاوز المائة عددا في بعض المصادر، وتبلغ في بعضها الآخر أربعا وثمانين، أو أربعا وسبعين، أو أربعا وستين، أو تتفاوت فيما بينها عددا.

ومن هذه المصادر التي تنسب لابن البناء العديد من المؤلفات نذكر على الخصوص :

- التمحيص في شرح التلخيص، لابن هيدور التادلي، المتوفى سنة 816 هـ / 1414م.

- جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، لأبي العباس ابن القاضي، المتوفي سنة 1025 هـ / 1616م.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التبكتي، المتوفى سنة 1036 هـ / 1626م.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، المتوفى سنة 1066 هـ / 1656م.

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام وملوك الإسلام، لأبي الفضل عباس بن إبراهيم المراكشي، المتوفى سنة 1378 هـ / 1959م.

- ذيل معجم الأطباء، لأحمد عيسى.
- ذكريات مشاهير المغرب، الحلقة 32، لعبد الله كنون.
- تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- رسالة الدكتور محمد ابن شقرون :

La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides

ولا ينبغي أن ندهش لهذا العدد من المؤلفات المنسوبة لابن البناء في هذه المصادر وفي غيرها فلا بد أن تكون حصيلة علم ابن البناء الواسع، وانكبابه على الدراسة والتدريس، تلك الذخيرة الفكرية، وذلك الإسهام الوافر في الحركة الثقافية بزاد ثمين هائل من الكتب والرسائل وقد عاش صاحبه حياة لا تزيد على الستين حولا إلا بقليل.

ومعظم مؤلفات ابن البناء يتسم بالطابع الصوفي الذي كان غالبا على سلوكه وفكره، وهو الذي عرف بالتصوف واشتهر به، أو تتصل بالمواد التي كان يدرسها أو يسأل عنها، وهو الذي قضى معظم حياته في التدريس، فكانت أغلب مؤلفاته شرحا لمتون أو تقريبا لعلوم أو إجابة عن أسئلة

طرحت عليه في موضوعات مختلفة، ولا سيا في العلوم التي اشتهر بها وعرف بها وهي علوم العدد والفلك ثم علوم الشريعة والأدب.

ومعظم هذه المؤلفات أيضا رسائل صغيرة تقع في الصفحات القليلة أو الوريقات المعدودة وقد أشار كل من تحدث عن تآليف ابن البناء إلى هذه المسألة، وفي مقدمتهم العلامة ابن هيدور شارح كتبه، الذي يقول خلال تعريفه بابن البناء في مقدمة شرحه لكتاب (تلخيص أعمال الحساب) : «أما موضوعاته فكثيرة جدا، ألف في جميع ما عني به، ومعظمها صغار جدا»[1].

فلا عجب إن تعددت مؤلفاته وتجاوز عددها المائة ما دام أغلبها رسائل صغيرة، وما دام مؤلفها قد كان موسوعيا في فكره، وما دامت له في كل العلوم مشاركات قيمة وأبحاث مفيدة أثارت إعجاب المفكرين في عصره، وأذهلت الأوربيين فيا بعد، فاقتبسوا منها واتخذوها منطلقا للتفكير الأوربي الحديث في مختلف العلوم، وخاصة الرياضية والفلكية[2]، لأنه لم يكن يكتفي في أبحاثه بالجوانب النظرية المجردة، بل كان يعنى بالتجربة والتطبيق والبحث الدقيق، لذلك جاء كثير من مؤلفاته ورسائله يحمل اسم قانون كذا، أو منهاج كذا... ولذلك أيضا كانت أبحاثه ذات قيمة كبرى في التراث العربي وفي الذخيرة الإنسانية عامة.

ولكن غائلة الضياع التي حاقت بالكثير من الذخائر العربية لم تسلم منها مؤلفات ابن البناء، كما لم تسلم منها قبله كتب العديد من المؤلفين في

---

1) التحيص في شرح التلخيص، ص 5 (مخ).

2) تقدم العرب في العلوم والصناعات، لعبد الله الجراري، القاهرة 1961 ص 14، وتراث العرب العلمي لقدري طوقان، طب (3) القاهرة. ص 213.

كل العصور، وبقيت الأسماء وعناوين الكتب في بعض المصادر، وضاعت المتون إلا أقلها، وهذه القلة الباقية من كتب ابن البناء ما يزال أغلبها مخطوطا منسيا في رفوف الخزائن العامة في المغرب وخارجه، أو في الخزائن الخاصة لدى بعض الخواص، أو مهملا في أركان بعض الزوايا، ومنها ما هو مبتور الأول والآخر لا يعرف لـه موضوع ولا مؤلف، ولكن قليلا من التمحيص والبحث يؤكد نسبته إلى ابن البناء.

ويمكن تصنيف آثار ابن البناء حسب موضوعاتها إلى ثلاثة أصناف :

- مؤلفات في العلوم الشرعية النقلية.
- مؤلفات في العلوم العقلية والكونية.
- مؤلفات في علوم اللغة والأدب.

وسوف نعرض مؤلفات ابن البناء تبعا لهذا التصنيف، وسنحاول جمع الكتب المتعلقة بكل علم على حدة، واقفين منها على كل كتاب أو رسالة وقعت بين أيدينا فاطلعنا عليها، أو قرأنا عنها خبرا ولم نتمكن من قراءتها، مع محاولة بيان موضوعاتها ومحتوياتها وأماكن وجودها.

☆ ☆ ☆

ففي بحر العلوم الشرعية النقلية تتناول مؤلفات ابن البناء علوم القرآن وتفسيره والفقه وأصوله والفرائض والتصوف. وهذه المؤلفات هي :

1) كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها في أوائل السور : وهو في حكم المفقود الضائع، لأننا لم نعثر عليه ولا على ذكر له في فهارس الخزائن

والمكتبات الموجودة في المغرب وفي خارجه، وسوف نهمل التعليق على كل مؤلف ينطبق عليه هذا الحكم، مما سنذكره في هذا المسرد.

2) تفسير الباء من باسم الله الرحمن الرحيم[2م] : وهي رسالة صغيرة في ثلاث عشرة ورقة من القطع الكبير، تتناول في تفسير الباء عشرة أوجه، قال المؤلف بعد استيفائها جميعا : «وكلامي في ذلك ليس على جهة الاستيفاء بل على جهة الاكتفاء». ومن تلك الأوجه : كيفية أدائها في التلاوة، ومعانيها، وإعرابها، وفصاحتها، وبلاغة معانيها، وكيفية التعبد بمقتضاها في الوجود... وهي في مجملها تتصل بعلوم القراءات واللغة والنحو والبديع والبيان وأصول الدين وأصول الفقه وعلم الفقه وعلم التصوف والحكمة. وفي هذه المجالات ما يدل على موسوعية فكر ابن البناء التي استغلها في تفسير حرف واحد من البسملة.

3) تفسير الاسم من البسملة[3] : وهي رسالة في عشرين ورقة من القطع الكبير، يتناول المؤلف فيها اسم الله تعالى من وجهين : الأول من حيث هو مقول، أي وجه تفسيره، وقد اعتمد فيه طريق الرواية والنقل. والثاني من حيث هو معقول، أي وجه وعيه والاعتقاد به، وقد اعتمد فيه طريق الدراية والعقل.

2م) توجد نسخة مخطوطة قديمة منه في خزانة القرويين بفاس، ضمن مجموع يحمل رقم 1367/80، وهي نسخة تامة سليمة من الخرم والقطع والبتر، مكتوبة بخط مغربي واضح.

3) توجد نسخة مخطوطة منه في خزانة القرويين بفاس ضمن نفس المجموع المذكور، لكنها تخلو من اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وهي سليمة من الخرم إلا أطرافها البيضاء، مكتوبة بخط مغربي واضح يشبه إلى حد كبير الخط الذي نسخت به الرسالة المتقدمة، مما يرجح عندي أن ناسخهما واحد.

4) تفسير سورة الكوثر[4].

5) تفسير سورة العصر.

6) اختصار «الكشاف» للزمخشري.

7) حاشية على «الكشاف» للزمخشري.

8) «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل[5] : وهو كتاب يجمع الغرائب والعجائب حول خط المصحف، أراد به المؤلف أن يكون مفتاح تدبر كتاب الله تعالى، كما يقول في ديباجته، وقد صرح الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» أنه اقتبس من «عنوان الدليل» بعض الآراء[6].

9) المتشابه اللفظ في القرآن.

10) رسالة في عدد أسماء الله الحسنى.

11) كتاب في منحى مدارك التأويل.

12) مقالة في المكاييل الشرعية.

13) رسالة في الرد على مسائل مختلفة فقهية ونجومية[7] : وهي رسالة صغيرة في إحدى عشرة ورقة من القطع المتوسط، يجيب ابن البناء

---

4) لأبي عبد الله الضرير المراكشي (ت 807 هـ / 1405م) أرجوزة في علم البيان، استقى فيها كثيرا من هذا التفسير وقد أسماها «ضياء الأرواح المقتبس من المصباح» لأنه نظم فيها كتاب «المصباح» لابن مالك الجياني، ومطلعها :

الحمد لله ذي الامتنان معلم القرآن والبيان

وقد وقفنا على نسخة خطية من الأرجوزة، ولم نقف على تفسير سورة الكوثر.

5) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 5787، وفي الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 1134 ك.

6) البرهان 380/1.

7) توجد نسخة مخطوطة منها في الخزانة الصبيحية بسلا، ضمن مجموع يحمل رقم 1624، وهي تامة مكتوبة بخط مغربي حسن واضح، لكنها خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

بها عن طلب بعضهم منه أن يدلي برأيه في مسألة حدثت بالمغرب في رمضان عام 700 هـ. لما صام أهل فاس يوم الأربعاء، ولم يصم أهل تلمسان ومراكش إلا يوم الخميس، لاختلافهم في رؤية هلال رمضان. فألف ابن البناء رسالته هذه لبيان رايه القائم على الحساب.

14) المقدمات : وهو ملخص شرح الإمام أبي القاسم القرشي[8].

15) رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة والنهي عن تغييرها[9] : وهي رسالة صغيرة لا تتجاوز ثلاث صفحات من القطع الصغير، تفرق بين الجهات الأربع، وتحدد القبلة منها بالحساب.

16) الرد على من يقول إن وقت العصر يعلم بوقوع قرص الشمس على بصر القائم مقابلا لها، وبيان أنه لا يصح في بلد دون بلد ولا زمن دون زمن.

17) رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة : المعجزة، والكرامة، والسحر.

18) مختصر «الإحياء» للغزالي.

19) مختصر رسالة ابن الصفاء.

20) شرح ما يكتب في الحافظة التي تكتب في آخر جمعة من شهر رمضان.

21) الاقتصاب والتبيين في علم أصول الدين.

22) التقريب للطالب اللبيب.

---

8) كذا وجدته في المصادر، ولم أقف عليه.

9) توجد نسخة مخطوطة منها في الخزانة الصبيحية ضمن مجموع يحمل رقم 3917، وهي مكتوبة بخط مغربي دقيق متوسط.

23) منتهى السول في علم الأصول.

24) عمل الفرائض.

25) الفصول في الفرائض.

26) شرح بعض مسائل الحوفي.

27) عوارف المعارف في حقيقة النظر للعارف.

28) مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة[10] : وهي رسالة صغيرة الحجم لكنها مفيدة في الأبحاث الفلسفية والكلامية، وتشتمل على ديباجة وسبعة مراسم وخاتمة. وقد تناولها المؤلف نفسه بالشرح في الرسالة التالية :

29) شرح مراسم الطريقة[11] : يتناول المؤلف المراسم السبعة التي حددها في الرسالة السابقة مرسما مرسما، وقد قسم كل مرسم في هذا الشرح إلى فصول، وأغنى الشرح بالإشارات اللغوية والنحوية، واستخرج من العنوان وحده عددا كبيرا من المعاني المشهورة، دون ما هو غريب. هذا فضلا عما اشتمل عليه هذا الشرح من مناقشات لآراء المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة. وقد قال التمبكتي عن رسالة المراسم وشرحها : «وهما تأليفان لم يسبق بمثلها»[12].

---

10) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2378 د لكنها مبتورة الأول تنقصها الديباجة والمرسم الأول. وتوجد نسخة مخطوطة أخرى في مكتبة السليمانية باستمبول تحت رقم 5.1702.

11) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2378 د، وتشتمل المخطوطة على المتن وشرحه ورأيت نسخة مخطوطة أخرى منه في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 7272 لكنها مبتورة الأول. وأخبرني الأستاذ عبد الله كنون أن نسخة أخرى منه توجد في دير الأسكوريال بمدريد.

12) نيل الابتهاج 68.

30) مقالة في شرح لغز عمر بن الفارض.
31) الدلائل.
32) بسط الشبهة والجواب عنها.

☆ ☆ ☆

وفي مجال العلوم العقلية والكونية تتناول آثار ابن البناء علوم المنطق والفلسفة والعدد والهندسة والجبر والمقابلة والفلاحة والفلك والتنجيم والحوادث الجوية والأوفاق والأزياج والأنواء والطلسمات والعزائم. ومؤلفاته فيها هي :

33) القانون الكلي في المنطق.
34) كليات في المنطق.
35) شرح كليات في المنطق.
36) تنبيه الفهوم على مدارك العلوم.
37) اللوازم العقلية في مدارك العلوم.
38) رسالة في ذكر العلوم الثمانية.
39) بداية التعريف.
40) البارد والخفيف في حل بداية التعريف.
41) القوانين.
42) رسالة في الجدل[13].
43) المقالات الأربع.

---

13) توجد نسخة مخطوطة منها في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 9023.

44) مقالات في الإقرار والإنكار.

45) مقالة في او قليدس.

46) تلخيص أعمال الحساب[14] : يقول المؤلف في مقدمتـه : «الغرض في هذا الكتـاب تلخيص أعـال الحسـاب وتقريب أبوابـه ومعـانيـه وضبـط قواعده ومبـانيـه، وهو يشتمل على جزءين : الأول في أعـال العـدد المعلوم، والثـاني في القوانين التي يمكن بهـا الوصول إلى معرفـة المجهـول المطلـوب من المعلوم المفروض إذا كانت بينهما وصلـة تقتضي ذلـك». ويقسم الجـزء الأول ثلاثة أقسام : الأول في أعمال الصحيح، والثـاني في أعمـال الكسور، والثـالث في أعمال الجذور التربيعية والتكعيبية وطريقة استخراجهـا. ونظرا لما اشتمل عليه هذا الكتـاب من الفوائـد والقوانين الصحيحـة فقـد نقلـه ARISTIDE MARRE إلى الفرنسيـة سنـة 1864م. وطبـع مع ترجمتـه غير مـا مرة، كما اختصره بعض العلماء العرب، وشرحه عـديـد منهم كابن المجـدي والقلصـادي وابن هيـدور وسواهم. وآخر طبعـات الكتـاب كانت بتـونس سنـة 1969م. بتحقيق الدكتور محمد السويسي، والملاحظ أن شهرة ابن البناء مدينة بنسبـة عالية إلى المضمون العلمي العددي التطبيقي الذي يشتمل عليه هذا الكتاب.

47) رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب[15] : وهو شرح لكتابـه السـابق وتبسيـط لقوانينـه وتوضيـح لطرقـه بمـزيـد من التـوضيـح والمثـال والاستدلال.

---

14) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 5973 كما توجد نسخ عديـدة منـه في كثير من الخزائن والمكتبـات العـامـة كالخزانـة الصبيحيـة بسلا (رقم 110)، والمكتبـة العامة بمراكش (رقم 579) والمكتبة العامة بتطوان (رقم 2882).

15) توجد نسخ منه في خزائن متعددة منها نسخة مخطوطة في الخزانة الحسنية بالربـاط تحت رقم 2186.

48) الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة.

49) جزء في علم الجدول.

50) شرح جزء في علم الجدول.

51) جزء في العمل بالرومية[16].

52) أعمال الحساب بالقلم الرومي[17] : وهي منظومة من عشرة أبيات على بحر الرجز يبين بها المؤلف أشكال الحروف الثانية والعشرين الواجب معرفتها وحفظها على من يود استعمال القلم الرومي في الحساب، قصده تسهيل حفظها، وأولها :

الحمد لله حروف للزمام

منظومة في رجز على التمام.

53) الاقتضاب في العمل بالرومي والحساب[18].

54) جزء في المساحات[19].

---

16) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 518، وفي خزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم 478.

17) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع تحت رقم 1061 ك وهي 19 ورقة من القطع المتوسط، مكتوبة بخط مغربي متوسط الجودة.

18) توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة العامة بمراكش ضمن مجموع يحمل رقم 478، وهي ثمانية أوراق من القطع الصغير، مكتوبة بخط مغربي متوسط الجودة، والنسخة متآكلة سطت عليها الأرضة.

19) وجدت في الخزانة الحسنية بالرباط مخطوطة تحت رقم 5415 وهي بعنوان «مختصر في المساحة»، فلعلها نفس الرسالة قد حرف عنوانها. كما وجدت مخطوطة أخرى غير تامة بنفس الخزانة تحت رقم 6671 بعنوان «رسالة في المساحة»، يحتمل أن تكون المقصودة بالاسم المذكور، وكلا المخطوطتين منسوب لابن البناء المراكشي.

55) رسالة في الأشكال المساحية[20].

56) كتاب الجبر والمقابلة.

57) رسالة في الجذور الصم وجمعها وطرحها.

58) أشكال ومجسمات هندسية[21].

59) رسالة في الأعداد التامة والناقصة والمتحابة[22] : وهي رسالة قصيرة يقع أصلها المخطوط في خمسة أوراق ونصف الورقة من القطع الصغير. يعرض فيها المؤلف بعض اكتشافاته في نظرية العدد.

60) الجسارة في تعديل الكواكب السيارة[23].

61) اليسارة في تقويم السيارة[24] : وهذا الكتاب من أهم مؤلفات ابن البناء، يحتوي على ثمانية أبواب هي : مداخل شهور العرب بالعلامة،

---

20) توجد نسخة مخطوطة منها عند الدكتور محمد السويسي من تونس، وقد حققها وعلق عليها وأرسلها إلى كلية الآثار بجامعة القاهرة. انظر حوليات الجامعة التونسية، عدد 13 سنة 1976م ص 193.

21) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2215 د.

22) طبعت هذه الرسالة بتحقيق الدكتور محمد السويسي سنة 1976م. ونشرت في حوليات الجامعة التونسية عدد 13 سنة 1976م، وكان المحقق علق عليها وترجمها إلى الفرنسية والأنجليزية، وقدمها للمؤتمر الدولي الخاص بتاريخ العلوم الرياضية الذي انعقد بكراتشي (باكستان) سنة 1975م.

23) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 512، وفي المتحف البريطاني بلندن تحت رقم 977.

24) توجد نسخ مخطوطة متعددة منه في المكتبات العامة والخاصة، ففي الخزانة الحسنية بالرباط نسخة تحمل رقم 9023 د، وفي الخزانة العامة بالرباط نسخة تحمل رقم 2458 د، عليها شرح لابن الحباك التلمساني، وفي المكتبة العامة بتطوان نسخة تحمل رقم 1048، وفي الخزانة الصبيحية بسلا نسخة تحمل رقم 5932، وفي مكتبة كلية الآداب بالرباط نسخة تحمل رقم 361 مكل.

مداخل شهور العجم، تقويم الشمس، تقويم القمر، رؤية الأهلة، خسوف النيران، استخراج تاريخ الروم من تاريخ العرب وتاريخ العرب من تاريخ الروم، معرفة مداخل الشهور. وبعد هذه الأبواب الثانية يضع المؤلف جدولين أولهما يوضح علامات شهور العرب، والثاني يبين علامات السنين الأعجمية بتاريخ ذي القرنين، وهذا الكتاب أيضا كان موضوع شرح وتبسيط، فوضع ابن قنفذ وغيره شروحا عليه[25].

62) المنهاج الملخص من الأزياج.

63) جزء في الأنواء[26] : وبعض المصادر تسميه رسالة في الأنواء، أو كتاب الأنواء. وقد نشره المستشرق H.P.J. Renaud بباريس سنة 1948م. ضمن مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، مع ترجمته إلى الفرنسية والتقديم له بمقدمة مهمة مطولة تشتمل على تعاليق الناشر المترجم وآرائه ومقارناته بين النسخ المخطوطة الخمس التي اعتمد عليها الناشر.

64) منهاج الطالب في تعديل الكواكب[27] : وهو زيج وضعه ابن

---

25) انظر تسهيل المطالب في تعديل الكواكب، لابن قنفذ (مخ. بالخزانة الحسنية تحت رقم 7020 فلك)، وانظر كذلك شرح اليسارة لابن الحباك (مخ. بالخزانة العامة بالرباط، رقم 2458 د).

26) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3172 ك، وفي الخزانة الحسنية بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 9023 د. وترجع هذه النسخة الحسنية إلى عام 1036 هـ، وهي مكتوبة بخط مغربي واضح.

27) توجد نسخ مخطوطة منه في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 2148، وفي الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2128 د، وفي الخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 5611، وفي مكتبة كلية الآداب بالرباط تحت رقم 520 بنا. وقد نشره مع دراسة عليه وترجمة إلى الإسبانية الأستاذ D. Juan Vernet Ginés في دار الطباعة المغربية بتطوان عام 1952م ضمن منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية.

البناء، كما قال في خطبة الكتاب، على مذهب أبي العباس أحمد بن علي بن إسحق التونسي الراصد بمراكش، بعد وقوفه على ما خلفه مقيدا في بطائقه مما اعتمده في الحركات والتعاديل بعد تحريره، وبنى المؤلف الحركات فيه على سنن العرب، وجعل أصولها لطول 21 درجة من المغرب. والكتاب يشتمل على 24 بابا تتعلق بالشهور والكواكب والتعديل والأفلاك والبروج والخسوف والكسوف وغير ذلك. وقد أولع الناس بهذا الكتاب لما سهل من الأعمال فيه[28]، وقال فيه العلامة أبو الربيع سليمان الفشتالي[29] :

كتب التعاديل يا أخي جليلة لكنها لا تعادل المنهاجا
فلطالما أبدى غوامضها التي كان الحكيم لعلمها محتاجا
فارحم مؤلفه بما أسداه من علم كساكل الورى به تاجا

وقد ألف عليه أبو عبد الله محمد بن مسعود المريني شرحا أسماه (النجم الوهاج في حل عقدة المنهاج).

65) مقالة في الحلان الستة.

66) الدلالات الكلية على الحركات الفلكية[30] : وهي أرجوزة في الأحكام النجومية من 466 بيت.

67) أحكام النجوم.

28) ابن خلدون، المقدمة 489، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر (د.ت).

29) المراكشي، الإعلام 380/1، تح. عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1974م.

30) توجد نسخ مخطوطة منها في الخزانة العامة بالرباط، منها واحدة رقمها 2237 وعليها شرح لابن قنفذ.

68) مقدمة في أصول أحكام النجوم[31].

69) المستطيل في بيان أحكام النجوم.

70) البارع في أحكام النجوم[32].

71) رسالة في الرد على أحكام النجوم وإبطالها.

72) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم.

73) كتاب في الأوقات.

74) قانون في معرفة الأوقات بالحساب[33].

75) مقالة في المدبر.

76) مقالة في علم الأسطرلاب.

77) رسالة في العمل بالشبيهة التي ترسم في بعض الأسطرلاب[34].

78) قانون في فصول السنة.

79) قانون في ترحيل الشمس[35].

---

31) توجد نسخة مخطوطة منها في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2000 د ضمن مجموع.

32) توجد نسخة مخطوطة منه في المكتبة العامة بتطوان تحت رقم 3309. ووجدت في الخزانة الحسنية بالرباط نسخة منه غير مرقمة.

33) توجد مخطوطة في الخزانة الحسنية بالرباط تحمل رقم 10873، بعنوان : رسالة في طريقة استخراج الأوقات بالحساب، غير منسوبة، فعلها المقصودة بهذا العنوان عند من يذكرون مؤلفات ابن البناء العددي.

34) توجد نسخة مخطوطة منها في المكتبة العامة بتطوان ضمن مجموع يحمل رقم 537، ولها صورة على الورق محفوظة في ملف خاص يحمل رقم 708 قياس كل صورة من صوره الخمس عشرة : 17 × 10 سم.

35) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2000 ≡ ضمن مجموع، وفي الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 581.

80) منظومة في ترحيل المقاتل وبيته وحلوله في كل برج[36] :

أولها :

ألا أبلغوا عني جميع القبائل	أمورا جرى لي في ترحيل المقاتل
على كل برج ثابت كان سائرا	ولا تلتفت لخنانسات الحوافل
إذا ما عنا بالنيرات فإنه	يدل على قحط شديد مطاول...

وهي في 136 بيت على بحر الطويل، يتابع الناظم فيها حركة كوكب «المقاتل» وحوله في البروج الإثني عشر.

81) رسالة في كرية الأرض.

82) كتاب المناخ.

83) المناخ في تعديل الكواكب والمناح.

84) المناخ في تركيب الأرياح.

85) مداخل ثلاثة إلى صناعة الأحكام النجومية.

86) رسالة في العمل بالميزان، وتعرف بالكامل المغرب.

87) الزايرجة.

88) رسالة في تحقيق رؤية الأهلة.

89) رسالة في التوقيت والرؤية.

90) موضوع في صناعة الأوفاق[37].

---

36) للمنظومة نسخ مخطوطة في الزاوية الناصرية بتامكروت ضمن مجموع يحمل رقم 2504، وفي الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 9261، وفي الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2128.

37) في الخزانة الحسنية بالرباط مخطوطة تحمل رقم 577 بعنوان : خواص الوفق، وصف بأنه «مخطوط حسن في الأوفاق»، فلعله المقصود في المصادر بهذا العنوان.

91) تقييد في الشهور العجمية وما يحدث فيها[38].

92) حروف فصول العام[39].

93) قانون في فصول السنة وأيامها ومنازلها وأنواعها[40] : وهي جزء صغير في ثلاث صفحات وسطر واحد، تسميها بعض المصادر قانونا، وبعضها رسالة.

94) اختصار في الفلاحة.

95) كلام على خط الرمل.

96) كلام على الزجر والفأل والكهانة.

97) رسالة في العمل بالصحيفة الشكازية والزرقالية[41].

98) كلام في عمل الطلسمات.

99) كلام على العزائم والرقي.

100) رسالة في المناسبات.

* * *

وفي اللغة والأدب تتناول مؤلفات ابن البناء علوم النحو واللغة والشعر والعروض والبيان، ولكن أغلب هذه المؤلفات ضائع لم نعثر منه

---

38) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2023 د. وبها شرح عليه للجاديري.

39) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2057 د.

40) توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 3917 وهي مكتوبة بخط مغربي دقيق، لكن الأرضة سطت على ساحات النسخة كلها.

41) توجد نسخة مخطوطة منها في الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 2128 د، وهي في 11 ورقة.

على شيء رغم السعي الحثيث، إلا واحدا نذكره إن شاء الله تعالى، وهذه المؤلفات هي :

101) كليات في العربية.

102) شرح على تنقيح القرافي.

103) جزء في ذوات الأسماء والمنفصلات.

104) رسالة في طبائع الحروف.

105) قانون في معرفة الشعر.

106) مقالة في عيوب الشعر.

107) قانون في الفرق بين الحكمة والشعر.

108) الروض المريع في صناعة البديع[42] : موضوع هذا الكتاب هو تبسيط الصور البلاغية وتفريعاتها ومحاولة تقريبها إلى الأذهان باختصار وبيان، وقد حاول المؤلف أن يستقصي كل الصور والأساليب الممكن إدراجها في باب البلاغة، وأن يكشف عن قيمتها في تنمية الذوق البلاغي، متوخيا في ذلك روعة الأداء ووضوح الإشارة وصحة الاستدلال وسلامة الذوق وحسن الاختيار ومناسبة الشاهد. ومنهجه في الكتاب واضح يقوم على بحث الصورة البلاغية بحثا فنيا مدعما بالأمثلة الواضحة من القرآن والشعر القديم، وقد تناول فيه البلاغة والفصاحة والدلالة والخروج والتشبيه

---

42) توجد نسخ مخطوطة منه في الخزانة الناصرية بتامكروت تحت رقم 2515، وفي خزانة القرويين بفاس، وهي غير مرتبة، وفي الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3172 ك. وسمعت بوجود نسخة رابعة له في خزانة تنغملت بإقليم أزيلال، وحاولت الاطلاع عليها فلم أتمكن رغم الجهد الجهيد الذي بذلته من أجل ذلك. وقد حققت هذا الكتاب مؤخرا وهو قيد الطبع.

والتبديل والتفصيل والإيجاز والإكثار والتكرير، وناقش فروع كل ذلك وأوضحه وبين صوره وأقسامه[43].

طريقته في الكتابة :

ويتبين من قراءة بعض هذه الآثار الزاخرة التي خلفها ابن البناء من المؤلفات المختلفة في شتى العلوم، أن الرجل كان يكتب بأسلوب يجمع بين سهولة اللفظ وقوة التركيب ورونق التعبير، والتركيز على المعنى الذي يهدف إلى تبليغه حتى تبرز الفكرة واضحة جلية، من غير اضطراب أو حشو أو تكرار أو تكلف.

وتطرد هذه المزايا في جميع كتاباته مهما اختلفت موضوعاتها.

وهناك ميزة أخرى التزم بها ابن البناء صراحة ويستطيع قارئ كتبه أن يلمسها فيها بوضوح، وهي ميزة الإيجاز والاختصار التي التزم بها في قوله :

قصدت إلى الوجازة في كلامي   لعلمي بالصواب في الاختصار[44]

وحقا إن الإيجاز سمة مطردة ملازمة لأسلوب ابن البناء. ومما تظهر فيه هذه السمة جلية، مع خاصيتي الوضوح والتركيز ما جاء في رسالته القيمة (الفرق بين الخوارق الثلاثة : المعجزة والكرامة والسحر) حيث يقول :

---

43) راجع مجلة المناهل ع 32.

44) نيل الابتهاج 68 بهامش الديباج المذهب لابن فرحون، طبـ دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

«إن المعجزة من الوجود الممتنع على البشر، والكرامة من باب الوجود المفتوح للبشر، ولهذا يمكن التحدي، بخلاف الأولى. والسحر من باب الخواص الأرضية المرتبطة بالقوى وصاحب السحر لابد له من آلة ظاهرة أو خفية، وليس لصاحب المعجزة أو الكرامة آلة إلا الدعاء إلى الله تعالى»[45].

فقد فرق بوضوح وإيجاز بين المعجزة التي هي واقعة فعلا ولكنها تحد، فلا يستطيعها البشر، والكرامة التي هي في متناولهم لأنه لا تحدي فيها، والسحر الذي يعتمد على أدوات خاصة وإلا ما كان سحر.

وفي رسالته الزاخرة بالمعارف (مرام الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة) تظهر كذلك بعض الخصائص المميزة لأسلوب ابن البناء. ففي المرسم الرابع منها يريد أن يثبت أن حال الإنسان في الحياة الدنيا زائل، أي باطل، لأنه يؤول إلى عدم، ويبين أن هذه هي حقيقة الإنسان التي لا يمكن أن ينسلخ عنها، حقيقة أنه باطل، فوجب أن يكون له تعلق بالحق وارتباط به، لأن الحق دائم لا يصح عليه العدم. فيستعمل المؤلف للتعبير عن ذلك أقرب السبل الموصلة إلى الفكرة، ويستعمل طريق الجدل والاستنتاج، فيقول :

«مرسم رابع : لنا في الاعتبار حالان : الحال التي نحن الآن عليها، والأخرى متوهمة وهي زوال هذه الحالة عنا. فنحن يصح علينا توهم العدم، والحق لا يصح عليه توهم العدم، فيلزم أنا لسنا بحق، فنحن باطل بلا شك، فإذا كنا باطلا فلا يمكننا الانسلاخ عن الباطل أبدا لأنه حقيقتنا، ويمكننا التعلق بالحق لأنا به. فالباطل تعلق بالحق،فالخلق كلهم متعلقون بالحق»[46].

---

45) حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب، لابن قنفذ : مخ. بالخزانة الحسنية. الورقة 2 ظ.

46) مرام الطريقة، لابن البناء : نسخة خطية خاصة، ص 6.

ويمتاز أسلوب ابن البناء كذلك بتناسق الأفكار وتساوقها في تعاقب منطقي يؤدي إلى وحدة السياق وسلامة المنهج. ويظهر ذلك في العبارة الآتية المأخوذة من كتابه (شرح مرام الطريقة) :

«ولكن من شائع عادة العرب العبارة بالسبب عن المسبب، واستعارة السبب للمستعار منه، كقوله تعالى : ﴿**من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**﴾ فإن الهرولة عند الجاهل تدل على نقل الأقدام وشدة العدو، وكذلك الإتيان يدل الضرب في المسافة، وعند العاقل تدل على المعنى المطلوب من قرب المسافة بين الناس، وهو قرب الكرامة والإنعام، وأن معناه أن نعمتي ورحمتي أشد انصبابا إلى عبادي من طاعتهم إلي، وهو كما قال : ﴿**لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم لأشد شوقا**﴾، تعالى وتقدس عما يفهم من معنى لفظ الشوق بالوضع فإنه نوع ألم وحاجة إلى استراحة، وهو عين النقص، ولكن الشوق سبب لقبول المشتاق إليه والإقبال عليه وإفاضة النعمة عليه، فعبر به عن السبب. وكما عبر بالرضى والغضب عن إرادة الثواب والعقاب اللذين هما ثمرتا الغضب والرضى ومسبباه في العادة»[47].

وأسلوبه في هذا الشرح يدل على معرفة المؤلف الواسعة وتمكنه المكين من اللغة العربية وأسرارها، فهو يقلب الموضوع أو المصطلح الذي يتناوله من الناحية اللغوية، ويبين الأوجه المختلفة والمعاني التي تتعاوره. وقد استخرج المؤلف من عنوان الرسالة وحده (مرام الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة) مليونا وخمسمائة واثنين وتسعين ألفا من المعاني المشهورة

47) شرح مرام الطريقة، لابن البناء : مخ. بالخزانة الحسنية، الورقة 4 و.

دون ما هو غريب. يقول في مناقشة لفظ «الحقيقة» خلال تناوله لعنوان الرسالة بالشرح والبسط :

«الحقيقة : الألف واللام تكون للعهد في شخص مفقود أو في شخص معدوم، وتكون للعهد في الجنس إما على البدلية في الإفراد، وإما على الجمع دون البدلية، وإما على الجمع والبدلية، والاعتبار إما من باب الأذهان فيستغرق، أو من باب الوجود العيني فلا يستغرق، وتكون للعهد في معقول الجنس. فهذه عشرة أقسام في الألف واللام التي للعهد كلها صادقة هنا.

وحقيقة : وزنها فعيل، وهي صفة الحق، ومعناها الأولية بالحق. والحق له تفسيران : أحدهما الموجود، والثاني أنه الثابت اللازم. فالحقيقة تكون بحسب التفسيرين. ثم إن الكلام لفظ ومعنى. فالحقيقة في اللفظ إما من جهة الوضع فاستعماله فيما وضع له، وهي اللغوية. وإما من جهة الفهم فالذي سبق له من غير قرينة، وهي العرفية. والحقيقة في المعنى هي الذات بالنسبة إلى الصفات لأنها أولى بالثبوت والوجود وتكون صفة الذات بالنسبة إلى لازمة الوجود من الصفات وتكون لازمة الوجود من الصفات بالنسبة إلى الصفة المفارقة، وتكون المفارقة بطئا بالنسبة إلى المفارقة سريعا : فصارت الحقيقة على ستة معان : إثنان من جهة اللفظ، وأربعة من جهة المعنى، وكلها صادقة هنا»[48].

48) المصدر نفسه، الورقة الأولى.

وبالرغم من الطابع المنطقي والعلمي الذي يطبع النص بل الذي يطغى على معظم ما أثر من مؤلفات ابن البناء فإن وضوح الفكرة وسهولة العبارة ومتانة التركيب والبعد عن الصنعة والتكلف والحشو متهج واضح عنده أيضا، يعكس مظاهر تمكن المؤلف من اللغة العربية ومن العلوم والموضوعات التي يتناولها ويكتب فيها.

الدار البيضاء **رضوان ابن شقرون**

الأدبُ المَغربيُّ الحَديث
في اللغة الاسبانيّة (*)

د. حسن الوراكلي

1) - تمهيد

بين المغرب وإسبانيا في عصور تاريخها العربي من العلائق والصلات ما جعلها شريكين في تراث أدبي ومعرفي لم يعد موضع نقاش ما كان له من أثر بعيد على تطور ثقافة الغرب في مختلف واجهاتها ومجالاتها.

ولا شك أن العناية بهذا التراث في العصر الحديث، نشرا ودرسا، سواء في المغرب أو في اسبانيا تكشف، من جهة، عن شعور المغاربة والإسبان معا بأهمية هذا التراث المشترك بينهما، وتكشف، من جهة ثانية، عن جانب من جوانب التواصل والتفاعل في ميدان الإبداع الوجداني والفكري بين العدوتين مما يبلور بعض معطيات تلكم العلائق والصلات التي ربطت بينهما

---

*) البحث الذي شارك به الكاتب في الندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة حول (جوانب من الأدب في المغرب الأقصى) أيام 12، 13، 14 أبريل 1984.

مـدى قرون متوالية، وهي علائق وصلات إن كان اعتراها شيء من الفتور حينا من الدهر طويلا، فإنها قد بدأت، منـذ عقود من السنين، تسترد قوتها وفاعليتها، والفضل في ذلك أو بضعه، على الأقل، يعود إلى فئة من الدارسين الإسبان تمثلت حقيقة تاريخ أمتها ووعت الدور العظيم الذي نهض به الإسباني العربي في صنع ذلك التاريخ وصياغة آثاره الثقافية والمعرفية، فعملت على إحياء تلك العلائق، وتجديد تلك الصلات بما نذرت له وقتها وجهدها من التعريف بالواقع العربي المعاصر، وقد شارك هؤلاء الدارسين الإسبان في ذلك طائفة من الباحثين العرب، مشارقة ومغاربة، ممن أتيحت لهم فرصة دراسة اللغة الإسبانية وإجادتها فكتبوا بها وألفوا.

وفي نطاق هذا التعريف (الإسباني) بالواقع العربي المعاصر في مختلف آفاقه وواجهاته ظفر الادب، بوصفه وعاء وجدان وفكر، بعناية واهتمام خاصين، فماذا كان حظ الأدب المغربي منها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال هو ما سيحاول هذا العرض إنجازه والوفاء به، غير أننا قبل ذلك، أي قبل أن نرصد مظاهر الاهتمام بالأدب المغربي في الإسبانية، نحب أن ننظر في دواعي هذا الاهتمام وبواعثه.

2) ـ دواعي الاهتمام وبواعثه

وهي مختلفة ومتنوعة، غير أنه بوسعنا أن نردها إلى نوعين اثنين، أحدهما عام، والآخر خاص.

أما العام فنقصد به إلى تلك التي حملت المستعربين الإسبان أوائل العقد الخامس من هذا القرن، على الالتفات إلى العالم العربي والاهتمام بآثار

كتابه، وأُدبائه، وشعرائه، وهو اهتمام قد يكون وضع في اعتباره، بدرجة أولى، نتاج الأعلام والرواد من المبدعين في مصر، والشام، والعراق، والمهجر، لكنه لم يغفل، بحال، إسهامات غير أولئك من أدباء الأقطار العربية الأخرى، ومن ضمنها المغرب.

ولعل أهم هذه الدواعي والبواعث تمثل في مجالين اثنين، هما :

أ ـ **المجال السياسي :** ففي تلك الفترة كان صوت العالم العربي بدأ يرتفع مجلجلا، مدويا، من فوق المنابر الدولية يطالب بحق شعوبه في الحرية، والاستقلال، وتقرير المصير في حين كانت الحركات الوطنية تتأجج في أقطاره، والثورات وحروب التحرير تشتعل فوق أراضيه، كل ذلك لفت إليه أنظار الناس في الغرب، فتزايد اهتمامهم به واشتدت رغبتهم في معرفته.

ب ـ **المجال الأدبي :** كان الإبداع العربي، في مختلف صيغه وقوالبه يعرف يومئذ تحولات جذرية كان يستشرف بها آفاق التطور والتجديد، وكانت آثار الأعلام من أمثال طه حسين والحكيم وجبران ونعيمة قد عرفت طريقها إلى بعض اللغات الغربية ونالت إعجاب قرائها وتقديرهم.

وفي هذه الفترة عرف الاستعراب الإسباني طليعة جيل جديد من رجاله بقدر ما استشعروا على نحو من الإدراك والوعي لم يتح مثله لأسلافهم أهمية الحيز الذي يشغله العنصر العربي في رقعة التاريخ الإسباني الأدبي والفكري. استشعروا الأهمية التي بدأ العالم العربي يكتسبها بفضل مبادراته السياسية وإنجازاته الأدبية. وقد حز في نفوس هؤلاء المستعربين أن يكون الإسبان، وهم الذين ليس يميزهم عن بقية الغربيين إلا انتماؤهم

التاريخي العربي[1]، أبعد الناس في الغرب (عما هو عربي). وقد كان في هذا وذاك ما دعا أفرادا من هذا الجيل الجديد من المستعربين إلى الاهتمام بالأدب العربي الحديث والاجتهاد في تعريف القارئ الإسباني بآثار هذا الأدب وأعلامه.

أما الخاص من تلك الدواعي والبواعث فيمكن إجمالها على النحو التالي :

أ ـ الشعور بضرورة التعرف على المغرب الذي يؤلف بالنسبة للإسبان عالما بوسعهم تأمله بمجرد الوقوف على شواطئ جنوب إسبانيا أو تصفح مدوناتها التاريخية[2]، ومع هذا، أي مع القرب الجغرافي والتاريخي للمغرب من إسبانيا فإنه لم يكن أحسن حظا من حيث معرفة الإسبان به من غيره من بقية البلدان العربية إن لم يكن أسوأها حظا من ذلك، وهذا هو ما عبر عنه أحد المستعربين الإسبان حين قال بأن أقرب بلدان العالم العربي إلى إسبانيا هو المغرب، فهو على مرمى البصر، غير أنه بالتأكيد، وفي غمار جهلنا بالعالم العربي وخاصة ما يتعلق منه بتظاهراته الثقافية، أقل بلدان العالم العربي نصيبا من معرفتنا[3]، ومن هنا فقد كان هؤلاء المستعربون واعين بما يكتنف معالجة أي موضوع يتصل بالمغرب من عسر، غير أن هذا لم ينل من إيمان فئة منهم بوجوب تلك المعالجة (الغاية هي

1) انظر، Martinez Montàvez, Pedro : Literatura àrabe y España. P.5

2) انظر، Martinez Montàvez, Pedro : Notas sobre el tema àrabe en La poesia despañola actual. « Cuadernos de La Biblioteca española de Tetuàn » N° 3 p. 13.

3) انظر، تقديم «المنارة» لاستفتاء دي أكريدا عن الأدب المغربي الحديث. ع 2 ص 131.

معرفة هذا العالم المحبب إلينا)[4] و(الذي ظل موصول العلاقة مع عالمنا ولا يزال على الرغم من الظروف المتقلبة التي تتحكم غالبا في أماني الرجال الطيبة)[5].

ب ـ إغفال الدارسين الشرقيين للإسهام المغربي في الأدب الحديث، فالدراسات التي أنجزها هؤلاء تميزت بكونها تركزت جميعها حول أدباء الشرق وآثارهم[6]، ومن ثم فقد ظل المستعرب الإسباني، ومثله المستعرب الغربي بعامة، ممن أهلته معرفته بالعربية للاطلاع على تلك الدراسات للإفادة منها فيما يعني به من تعريف بالأدب العربي الحديث في لغته هو، يجهل أدباء المغرب وشعراءه المحدثين وما أسهم به هؤلاء وأولئك من نتاج في مجالات الإبداع الأدبي المختلفة، وقد أشار الأستاذ محمد بن عزوز حكيم إلى ذلك في مقال له بالإسبانية عن الأدب المغربي، فقال : (إن ما يجهله القارئ الإسباني جهلا يكاد يكون تاما هو وجود أدباء مغاربة ينشئون أدبهم بلغة عربية، مبرهنين اليوم بما يكتبون وينشرون على تقدم مطرد في مجال الآداب والفنون العربية في هذا البلد)[7].

ج ـ تميز الأدب المغربي عن غيره من آداب الأقطار العربية الأخرى. وهو تميز يكمن، فيما يرى بعض الدارسين من المستعربين، في الرؤية التي يصدر عنها الكتاب المغاربة للتاريخ والثقافة المشتركين. إضافة إلى

---

4) انظر، Fernando de Agreda Burillo, Encuesta sobre La Literatura marroqui actual. Revista « Almenara » N° 2 p. 135.

5) انظر، Martinez Montàvez, Notas sobre el tema àrabe... « Cuadernos de La Biblioteca española de Tetuán » N° 3 p. 13.

6) انظر، مقدمة استفتاء دي أكَريدا في المنارة، ع 2. ص 133.

7) انظر، مجلة Africa ع 133 ص 14 (يناير 1953).

اهتمام كثير منهم بالموضوع الأندلسي فيما ينشئون من شعر ويكتبون من قصص، فضلا عما ينعكس على نتاج بعضهم من تأثير ملحوظ لمقروئهم في ديوان الشعر الإسباني المعاصر.

هذه الدواعي جميعها تضافرت لتجعل العناية بالأدب المغربي والاهتمام بترجمته ودرسه من أوليات ما كان الاستعراب الإسباني يستهدفه من تعريف بالعالم العربي في المجالات الأدبية بخاصة والثقافية بعامة.

3 ـ حصيلة الاهتمام ومظاهرها :

ومن المفيد أن نشير هنا، وقبل أن نستعرض حصيلة الاهتمام في شتى مظاهرها بالأدب المغربي الحديث في اللغة الإسبانية وإلى أن أول محاولة عكست ذلك الاهتمام وبلورته يمكن تاريخها بالترجمة التي أنجزها كارلوس كيروس لرواية (طه)[8] التي كتبها أحمد حسن السكوري سنة 1941[9].

ولم نعرف لهذه المحاولة تاليا إلا بعد سنوات حين أصدرت في العرائش الشاعرة طرينيداد شانتث مركادر مجلة (المعتمد)[10] التي عنيت فيها إلى

---

8) هي رواية قصيرة حاز بها صاحبها جائزة مؤسسة الجنرال فرانكو في المباراة الأدبية التي نظمت في تطوان بتاريخ 23 أبريل سنة 1941 بمناسبة عيد الكتاب العربي ـ الإسباني. وقد نشرت الرواية بنصها العربي وترجمتها الإسبانية في نفس السنة بالعرائش.

9) هذا مع استثناء الترجمة التي أنجزها لكتاب أستاذنا عبد الله كنون «النبوغ المغربي في الأدب العربي» الأستاذان محمد تاج الدين بوزيد وخرونيمو كرييو أوردينت سنة 1939. وهذه الترجمة لا تعني هذا البحث.

10) انظر عن هذه المجلة مقالا لصاحبتها ترينا مركادر نشر في العدد الأول من مجلة «اللجنة الإسبانية للتعاون مع الأونيسكو» بعنوان «المعتمد» واعتماد تجربة تعايش ثقافي بالمغرب» ومقالا للأستاذ فرناندودي أكريدا نشر في المجلد التاسع عشر من مجلة (المعهد المصري للدراسات الإسلامية) بمدريد بعنوان : Datos sobre Las traducciones al árabe de La Poesia española. La Revista « Al-Motamid ».

جانب الشعر والأدب الإسباني بترجمة الابداع الشعري المغربي بخاصة والعربي بعامة مما كان له صداه في الأوساط الأدبية في إسبانيا على ما سنبين في موضع آخر من هذا البحث.

وقد شاركت (المعتمد) فضل السبق إلى التعريف بالأدب المغربي الحديث للقارئ الإسباني مجلة أخرى هي مجلة (كتامة)[11] التي كان يرأس تحريرها الشاعر خاثينتو خورخي لويث. فعلى صفحاتها، هي الأخرى، عرف قراء الأدب في اللغة الإسبانية ألوانا من الإبداع المغربي في الشعر والقصة.

ثم توالى الاهتمام بعد ذلك بالأدب المغربي على يد نخبة من الدارسين الجامعيين في إسبانيا، إسباناً وغير إسبان، منذ أن أصدر الدكتور بدرومارتينث كتابه (الشعر العربي المعاصر) Poesia arabe Contemporanea أواسط الخمسينات إلى اليوم.

فماذا كانت حصيلة هذا الاهتمام على مدى من الزمن ينيف على ربع قرن ؟

إن بوسع الدارس أن يرصد حصيلة الاهتمام الإسباني بالأدب المغربي من خلال ما أنجز فيه من ترجمة، واستقتاء، ودراسة، وهو ما سنحاول تفصيل الحديث عنه في الفقرات التالية :

---

11) انظر عن هذه المجلة مقالا للأستاذ فرناندودي أكَريدا في La estafeta Literaria ع 615 ص 16 (يوليو 1977). ومقالا للأستاذ خاثينتولوبث خورخي بعنوان «الشعر العربي والإسباني في رحلة التواصل» بترجمة أحمد مطلوب. العلم الثقافي ع 704 ص 4 ـ 5.

1 ـ الترجمة :

إذا تركنا جانبا الترجمة التي أنجزت لرواية (طـه) لأحمد حسن السكوري جاز لنا القول بأن النتاج الشعري الذي بدأ يظهر لبعض الشعراء المغاربة في بعض المجلات الشعرية الإسبانية أواخر الأربعينات كان من أوائل ما ترجم من الأدب المغربي الحديث إلى اللغة الإسبانية، وربما تكون قصيدة عبد القادر المقدم المعنونة ب (قطرات الندى)[12] وقصيدة إبراهيم الإلغي بعنوان (مناجاة القريض)[13] أول ما ترجم من ديوان الشعر المغربي الحديث إلى الإسبانية.

ولكي نتعرف على شيء من طبيعة هذه الترجمة لابد لنا من مراجعة لـ :

1 ـ المجلات الأدبية :

نهضت بعض المجلات الإسبانية، سواء منها التي كانت تصدر في المغرب باللغتين العربية والإسبانية أو التي كانت تصدر في إسبانيا باللغة الإسبانية وحدها بدور ملحوظ في نشر الشعر المغربي والتعريف به بين قرائها.

وكان لمجلة (المعتمد)، كما أسلفنا الإشارة، فضل الريادة والسبق في ذلك، فمنذ أن أصدرتها مؤسستها الشاعرة طرينيداد شانتث مركادر بمدينة

---

(12) ترجمها صاحبها بعنوان « Las gotas de rocio ».
انظر مجلة «المعتمد» ع 1 ص 4 (مارس 1947).

(13) ترجمها إدريس الديوري بعنوان « Conversacion confidencial con La poesia » انظر، المعتمد ع 2 ص 4 (أبريل 1947).

العرائش سنة 1947 وهي تعنى بنشر نماذج مترجمة من الإبداع الشعري المغربي بخاصة والعربي بعامة إلى جانب الإسهامات الشعرية والنثرية الإسبانية. وقد قارب عدد ما نشر في (المعتمد) من نصوص شعرية مغربية مترجمة إلى الإسبانية الثلاثين نصا أو استوفاها. وباستثناء عبد الله كنون وإبراهيم الإلغي وادريس الجائي فإن بقية الشعراء الذين ترجمت إبداعاتهم على صفحات (المعتمد)، وهم : الصياغ، والمقدم، والبقالي، والسكيرج، والبوعناني، والسلمي كانوا جميعا من الجيل الجديد الذي كان يستشرف لتجربته الشعريية آفاقا من التجديد والتطوير سواء في المضامين أو في الأشكال. متأثرا في ذلك خطوات رواد التجديد من شعراء المشرق والمهجر. وليس من شك في أن هذا التنوع في النصوص المترجمة من نتاج هؤلاء الشعراء سواء من حيث القالب أو من حيث المضمون كان يضع تحت أنظار القارئ الإسباني صورة للشعر المغربي يومئذ إن لم تكن تامة الملامح والقسمات فإنها لم تكن تعدم ما يدل. وفي وضوح وجلاء. على ما كانت ترهص به هذه الإبداعات من استواء وتطور سيعرفها الشعر المغربي بعد ذلك ببضع سنين.

ومن شاء أن يستبين شيئا مما كان من أصداء لهذا الشعر المترجم في الوسط الأدبي الإسباني فلينظر فيما كتبه الشاعر الشهير ڤيثنطي أليكسندري بعد زيارته للمغرب سنة 1953 معبرا عن إعجابه بالشعراء المغاربة الذين التقى بهم أثناء زيارته وانصت إلى بعض نتاجهم مترجما أو في لغته الأصلية[14]، وكلهم ممن كانت (المعتمد) تحرص على نشر قصائدهم في

14) نفسه، ع 26 ص 3.

جل أعدادها أمثال الصباغ، والمقدم، والبقالي، والبوعناني، أو فلينظر إلى ما كتبته الشاعرة كرمين كوندي منوهة بفضل مجلة (المعتمد) في تعريفها (بهذه المجموعة من الشعراء المغاربة المسلمين)[15]. بل يمكن القول بأن ما ظهر أواسط الخمسينات من مقالات بالاسبانية حول الشعر المغربي كان يعتمد، أساسا، المادة الشعرية التي توفرت (المعتمد) على ترجمتها ونشرها.

على أن (المعتمد) لم تنفرد بفضل التعريف بالأدب المغربي وبشعره خاصة لدى القارئ الإسباني، فمن الإنصاف أن نشير هنا إلى مجلات أخرى كان لها، بدورها، إسهام في هذا التعريف ولو أنه ليس يرقى إلى مستوى إسهام (المعتمد) من حيث حجم المادة الشعرية وتنوعها وهذه المجلات هي : مجلة (كتامة) التي كانت تصدر في تطوان باللغتين العربية والإسبانية تحت إشراف الشاعر خاثينتو خورخي لوبث، ومجلة «كراكولا» Caracola التي كانت تصدر بمالقة، ومجلة «إسلادي لوس رطونيس» Isla de los ratones التي كانت تصدر بجزيرة ميورقة، ومجلة «إينديثي» Indice، ومجلة المنارة Almenara اللتان كانتا تصدران بمدريد.

2) كتب الاختيارات الشعرية والأدبية :

وقد عرفت المكتبة الإسبانية منها، إلى الآن، ثلاثة[16]، إثنان منها

15) نفسه، ع 27 ص 4.

16) علمنا بعد إنجاز هذا العرض بوجود منتخب رابع من الشعر العربي في اللغة الإسبانية لم يتيسر لنا الاطلاع عليه، ألفه هكتور ف ميري، وصدر عن دار كونتيننتال للنشر في بوينس أيريس سنة 1944.

انظر، Teresa Garulo, Bibliografia de Las obras arabes traducidas al español durante el periodo 1800 – 1982.

(نسخة مرقونة في مكتبة المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد).

اشتملتا على منتخبات لشعراء من مختلف الأقطار العربيـة ومن ضمنهـا المغرب ومن المهاجر الأمريكية. والثالثة خاصة بالأدب المغربي. وفيما يلي نخص كلا بكلمة :

أ ـ الشعر العربي المعاصر :

تحت هذا العنوان صدرت في مـدريـد منـذ أزيـد من ربع قرن هـذه الأنطولوجية تضم مختارات من نتاج الشعراء العرب المعاصرين، عني بجمعهـا والتعريف بأصحابها الـدكتور پـدرومـار تينث مونتـابيث. وقـد قـدم لهـذه الاختيارات شيخ المستعربين الإسبان الدكتور إميليو غرسيـة غومث مشيـدا بتمكن صاحبها من اللغة العربيـة ومنوهـا بـالاهتام الـذي أصبح الاستعراب الإسباني يوليه للعالم العربي الحديث بعد أن كانت اهتمامات رجالـه من قبل لا تكاد تتجاوز العصور الوسيطة[17].

وفي المدخل الذي مهد به المؤلف لاختياراته خص المغرب بفقرة أشـار فيها إلى انفتاحه على حركة البعث والتجديد الأدبيين في المشرق معقبـا على ذلك بذكر أسماء من شعراء الاتجاه القديم وأخرى من شعراء الاتجاه الجـديـد في ديـوان الشعر المغربي الحـديث كعـلال الفـاسي وعبـد الملـك البلغيثي من الاتجاه الأول، ومحمد الصباغ وأحمد البقالي من الاتجاه الثاني.

ومع أن مؤلف هذه الأنطلوجية كان أكثر المستعربين الإسبـان يومئـذ إطلاعا على الشعر المغربي وأوفرهم معرفة برجاله فإن هـذا الشعر لم يظفر في منتخبه بالحيز الذي كنا نتوقعه، فن مجموع واحد وثمانين نصـا لست وخمسين

(17) انظر، Martinez Montavez, Pedro, Poesia arabe contemporanea, p. 17

شاعرا يمثلون مختلف الأقطار والمهاجر العربية، ويمثلون بذات الوقت، مختلف الاتجاهات والمدارس الشعرية، لا يقع القارئ في المنتخب إلا على نصين مغربيين، أحدهما لمحمد بن إبراهيم المراكشي، وهو عبارة عن أبيات من إحدى قصائده الغزلية، وثانيهما لمحمد الصباغ، وهو قصيدته النثرية (المجنون). وإذا كان الدكتور مونتابث، فيما يبدو، قد وهم فيما ساق من معلومات عن ابن إبراهيم في التقديم الذي كتبه للأبيات التي ترجمها[18] له فإنه في مقدمته لقصيدة الصباغ أبان عن معرفة بروافد الفن الشعري عنده وما أفاده في صقل هذا الفن من مقروئه في آثار بولس سلامة وميخائيل نعيمة من شعراء المشرق وأليكسندري وميجيل هرنانديس من شعراء إسبانيا[19].

ب) منتخب الشعر العربي المعاصر Antologia de poesie arabe contemporénea مؤلفة هذه الأنطلوجية هي الدكتورة ليونور مرتينيث مارتين. عرفت في الخمسينات، فضلا عن ترجماتها التي كانت تنشرها في مجلة (كتامة) للألوان من الإبداع الشعري العربي، بالترجمة التي أنجزتها لديوان ميخائيل نعيمة (همس الجفون) El rumor de Los parpados[20].

وقد احتل الشعر المغربي في اختيارات الدكتورة ليونور حيزا متسعا بالقياس إلى الحيز الذي فسحه له الدكتور مونتابث في اختياراته، فمن بين سبع وعشرين ومائة نص لثلاث وثمانين شاعرا يمثلون مختلف الاتجاهات والمدارس الشعرية في مختلف الأقطار العربية يطالعنا إثنا عشر نصا لسبعة

18) نفسه، 71 ـ 72.

19) نفسه، 283 ـ 284.

20) صدرت هذه الترجمة تحت رقم 132 من سلسلة أدونيس بمدريد (1956م).

شعراء مغاربة، خمسة منهم من أشهر شعراء العمود في الديوان المغربي الحديث، وإثنان من رواد قصيدة النثر. فأما الخمسة الأول فهم : علال الفاسي، وعبد الله كنون، ومحمد اليمني الناصري. ومحمد الحلوي، وأبو بكر بناني، وأما الإثنان الأخيران فهما : محمد الصباغ ومحمد عزيز الحبابي.

ولعل أهم ما يلفت النظر في اختيارات الدكتورة ليونور من نتاج هؤلاء الشعراء أن جلها ذو مضامين وطنية، تكشف عن التزام أصحابها بقضايا الوطن من خلال الإشادة بمواقف الجهاد والتضحية ممثلة في سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي. وذلك على حد ما نقرأ في قصيدة لمحمد اليمني الناصري يصور فيها انتصار زعيم ثورة الريف على فرنسا وإسبانيا. ويقول في بعض أبياتها، وهي مما ترجمته منها الدكتورة ليونور في منتخبها :

أنظر لما تلقى فرنسا منه إذ	قصدت بشامخ مجده استخفافا
جاءت بمعظم جيشها وعتادها	فاستنزفته رجاله استنزافا
وإذا (ليوطي) قد تردى ساقطا	متحملا عما جناه إكافا
وحليفه (دي ريفيرا) قد قرلا	يلوي على شيء به يتلاقى

أو في قصيدة أبي بكر بناني، وقد ترجمت الدكتورة ليونور نصها كاملا، ومنها هذه الأبيات :

يا بني المغرب سيروا للأمام	وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبد الكريم ابن الكرام	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب موتوا شهدا	لا تعيشوا تحت إذلال العدا
مزقوا الكفر وأشراك الردى	واسألوا الله انتصار المسلمين

أو في قصيدة محمد الحلوي يشيد فيها ببطولة قائد الثورة الريفية وانتصاره على جيوش الاحتلال الإسبانية في معركة أنوال الخالدة. والقصيدة تقع في سبع وثلاثين بيتا ترجمت منها الدكتورة ليونور تسعة عشر بيتا، منها :

يا يوم وقعة (أنوال) وقد تركت	أشلاؤهم عندها لحما على وضم
لم يلبسوا قبلها خزيا كخزيهم	فيها ولم يذبحوا بالسيف كالغنم
إن يذكروا النصر يوما راعهم	شبح منها فغصوا بذكراها من الألم
نصر نكست به راياتهم كمدا	واختال منه بنو الإسلام في شمم

ومثل هذه الأشعار في أنطولوجية الدكتورة ليونور لم تأت محض صدفة، بل قصد إليها قصدا واختيارا لارتباطها الوثيق بمنعطف هام من تاريخ إسبانيا المعاصر. وها هي ذي صاحبة الاختيارات تكشف عن ذلك في المقدمة إذ تقول : (على أن ثمة موضاعا ألهم. على نحو من الفزارة أشد مما نتصور نحن الإسبان، الشعراء العرب مشارقة ومغاربة على مدى الخمسين سنة الأخيرة، ذلك هو موضع بطولة عبد الكريم الذي هزم الإسبان والفرنسيين والذي ما فتئ الشعراء إلى اليوم ينشئون في الإشادة بمواقفه البطولية العديد من القصائد. وقد اخترنا في هذه الأنطولوجية بعضا منها نظرا للأهمية التي كانت تكتسيها هذه الشخصية بالنسبة لأجدادنا...)[21].

فإذا تركنا هذه الاختيارات التي دارت كلها حول شخصية ابن عبد الكريم الخطابي بوصفها رمز جهاد. ومقاومة، وتحد للإمبريالية، والصليبية، وجدنا بقية الاختيارات أو جلها، على الأصح، تعكس في جملتها هموم

21) انظر، Martinez, Martin, Leonor, Antologia de poesia arabe contemporanea p. 49

شعرائنا الوطنية، والقومية، والإنسانية مثل قصيدة علال الفاسي (كل صعب على الشباب يهون)[22] التي يستنهض فيها همم الشباب ويحثه على العمل من أجل وطنه، وعلى حد ما نقرأ في قصيدة لمحمد الحلوي يدين فيها تخاذل العرب وخلفهم اللذين ألحقا بهم عار الهزيمة في حرب الأيام الستة[23]، أو في قصيدة لعبد الله كنون[24] وأخرى لمحمد عزيز الحبابي[25] في تمجيد السلام والأمن، واستنكار الحرب والظلم.

أما تقديمات الدكتورة ليونور لهذه القصائد فهي في غاية التركيز والتلخيص، لكننا لا نعدم في بعضها ما يدل على إدراك واع برسالة الشعر ومهمة الشاعر في العالم العربي، ومن ضمنه المغرب، ومن ذلك ما نقرأه لصاحبة الأنطولوجية في تقديمها لعلال الفاسي : (إن له بوصفه شاعرا غنائيا أهمية بالغة، غير أن أشعاره الوطنية والسياسية أثرت أكثر من غيرها في صورة المغرب الحديث. والحقيقة أنه في عالم كالعالم العربي حيث لا تزال الكلمة الشعرية تتمتع بمزايا معجزة قد فقدتها في بقاع أخرى ليس من الغريب استخدامها كسلاح سياسي[26]، أو ما نقرأه لها في تقديمها لعبد الله كنون حيث تقول عن ديوانه (لوحات شعرية) بأنه يصور كيف ارتقت مشاعر المغاربة على مدى النصف الأول من هذا القرن وكيف كانوا يرون التطور السياسي العالمي[27].

---

22) نفسه، 228 ـ 229.

23) نفسه، 222 ـ 223.

24) نفسه، 226 ـ 227.

25) نفسه، 230 ـ 231.

26) نفسه، 228.

27) نفسه، 226.

ج - الأدب والفكر المعاصران في المغرب Literatua y Pensamiento Marroquies Contemporaneos.

إذا كان المؤلفان السابقان لم يفسحا للإسهام الشعري المغربي في أنطولوجيتيهما إلا حيزا محدودا وسع في أولاهما نصين اثنين وفي ثانيتهما إثني عشر نصا باعتباره، أي المغرب، كأي قطر عربي آخر، صوتا من بين أصوات عديدة تؤلف فيا بينها، على مابين أصحابها من التفاوت في (سلم الشعر) الطويل، النغم الذي يبلور واقع الشعر العربي بعامة وهو ما استهدفه الدكتور مونتابث والدكتورة ليونور من اختياراتها الشعرية فإن مؤلفي هذه الأنطلوجية الثالثة أفردوها بالمغرب واجتهدوا في أن تكون معرضا، ليس فقط للإبداع الشعري خاصة، ولكن لكافة ألوان النتاج الأدبي والفكري المغربي في العصر الحديث، ومن هنا فقد جاءت هذه الأنطلوجية مؤلفة من أقسام أربعة، نستعرضها فيا يلي :

1 - البحث Ensayo :

وقد أدرج مؤلفو الأنطلوجية في هذا القسم أربعا وعشرين بحثا للأربع وعشرين باحثا. وإذا صرفنا النظر عن البحوث التي تدور حول الأدب المغربي والتي سنعود للحديث عنها في فقرة أخرى من هذا العرض وجدنا بقيتها، وهي تؤلف نحو النصف من عدد البحوث المترجمة في الأنطلوجية، تتوزعها موضوعات مختلفة، تاريخية حينا، من مثل (مراكش

28) فضلا عن الاشعار التي ترجمت لهذين الشاعرين في منتخب الدكتورة ليونور وفي بعض المجلات الشعرية، فقد ترجم لأولها وهو عبد الله كَنون كتابه «النبوغ المغربي في الأدب العربي» وترجم لثانيهما كتاباه «شجرة النار» و«أنا والقمر».

أهم المراكز الثقافية بالمغرب في القرن السادس عشر) لمحمد حجي و(ذكرى معركة الوادي) لعبد المجيد بن جلون، وفكرية، حينا آخر، من مثل (الأسرة) لعلال الفاسي و(غائية ابن خلدون غائية متميزة) لمحمد عزيز الحبابي، ولغوية، حينا ثالثا، من مثل (أثر اللغة العربية في اللغة السواحلية) لمحمد الفاسي و(الإمامة في الأندلس وفي شمال إفريقيا) لمحمد بن شريفة.

ومن المؤكد أن الاختلاف الذي يلاحظ بين البحوث المترجمة سواء من حيث طبيعة الموضوع المطروق، أو من حيث أسلوب التناول والمعالجة من شأنه أن يسعف القارئ الإسباني على استجلاء جوانب من اهتمامات الدارسين المغاربة وشواغلهم العلمية والفكرية.

2 - القصة Narrativa :

يطالع القارئ في هذا القسم من الأنطلوجية واحد وثلاثون نصا لواحد وثلاثين قاصا، القليل منهم يمثل الجيل الذي خرجت من معاطف رجاله القصة المغربية في الأربعينات، والكثير يمثل الجيل الذي فتح معاطفه لرياح التجديد التي عرفتها القصة منذ سنوات غير قليلة وأسلم لها الزمام.

وبقدر ما عكست النصوص المترجمة تنوعا في الاتجاه الفكري عكست، بالآن عينه، تنوعا في الرؤية والتصور الفكريين. أما من حيث الموضوعات المعالجة في هذه النصوص فيسترعي نظرنا من بينها الموضوع الوطني على حد ما نقرأ في قصة (أرضنا الحبيبة) لمحمد الخضر الريسوني أو (النور الأرجواني) لمحمد العربي الخطابي.

وإلى جانب النصوص الكاملة لبعض القصص القصيرة لم يغفل مؤلفو الأنطلوجية ترجمة نصوص جزئية من أعمال روائية مطولة مثل الفصل الثامن من رواية (دفنا الماضي) لعبد الكريم غلاب أو مختارات من (رواد المجهول) لأحمد البقالي أو من (شقراء الريف) لعبد العزيز بنعبد الله.

3 ـ الشعر Poesio :

ضم هذا القسم في الأنطلوجية ثلاثة وثلاثين نصا لستة وعشرين شاعرا، أغلبهم من جيل ما بعد الاستقلال، وإذا استثنينا كنون، والصباغ، والطبال فإن الباقي من الشعراء يترجمون لأول مرة إلى الإسبانية.

ويمكن القول بأن مؤلفي هذه الأنطلوجية استطاعوا أن يطلعوا القارئ الإسباني على التنوع الذي يعرفه الشعر المغربي من حيث الشكل، والأسلوب، والموسيقى حين تعمدوا في اختياراتهم أن تكون ممثلة، بنسب متفاوتة، للعمودي، والتفعيلي والمرسل، غير أنهم حين قصروا أو كادوا يقصرون اختياراتهم على فئة من الشعراء ذوي تصور إيديولوجي معين حرموا القارئ الإسباني من الاطلاع على إسهامات فئة أخرى من الشعراء تمارس عملية الإبداع من خلال رؤية عقدية متميزة وتصور لا شرقي ولا غربي للإنسان، والمجتمع، والحياة، والكون من أمثال علال الفاسي، والأمراني والريسوني، وابن عمارة، والرباوي، وغيرهم.

أما من حيث الموضوعات التي تعالجها النصوص المترجمة فإنها، على اختلافها، ليست تعدم ما يربط بينها من حيث الاهتمامات والشواغل التي تلح على الشاعر المغربي. غير أننا نستطيع أن نميز من بين موضوعات النصوص المترجمة موضوعا يمكن وصفه بالموضوع المغربي ـ الإسباني، وهو

موضوع نستبين فيه جوانب من علائق العدوتين : المغرب وإسبانيا، تطالعنا في نصوص كهذه التي استلهم فيها أصحابها الأندلس ممثلة في رجالاتها[29]، ومدنها[30]، وكهذه التي استوحى فيها أصحابها سير أعلام إسبان في الأدب والفن من مثل بيكير[31]، ولوركا[32]، وبيكاسو[33]، أو كهذه النصوص التي تمجد النضال والثورة، من خلال إسمين بهيين من أسمائها المغربية هما اسم عبد الكريم الخطابي[34] ومعركته الخالدة (أنوال)[35].

4 ـ المسرح El teatro :

يقدم هذا القسم من الأنطلوجية سبعة مؤلفين مسرحيين، تناولت الاختيارات من نتاجهم أربعة نصوص، واحد منها كامل[36]، والثلاثة عبارة عن مقتطفات من فصول أو مشاهد[37]، كما تناولت الاختيارات نماذج من آراء بعض المؤلفين المسرحيين ووجهات نظرهم مما تضمنته استجوابات أجريت معهم[38] أو مقدمات كتبها بعضهم لأعماله المسرحية[39].

29) انظر، Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos. p. 382

30) نفسه، 425.

31) نفسه، 224.

32) نفسه، 263.

33) نفسه، 409.

34) نفسه، 368.

35) نفسه، 357.

36) نفسه، 459.

37) نفسه، 479، 488.

38) نفسه، 433.

39) نفسه، 429.

ومع أن هذه الاختيارات تضمنت نماذج لا يرقى الشك إلى تمرس أصحابها بالكتابة المسرحية نثرا على حد ما نقرأ عند عبد الكريم برشيد[40] أو شعرا القسم عند حسن الطريبق[41] إلا أنها، أي الأنطلوجية، في الوقت الذي قدمت في هذا القسم أسماء ليس لأصحابها حضور متميز في الكتابة للمسرح أغفلت أسماء أخرى، لبعضها فضل الريادة[42] ولبعضها فضل الاستمرار[43]، ولبعضها فضل الحرص على التجديد[44].

وعلى ما قد يكون في هذه الأنطلوجية من مآخذ نبهنا إلى بعضها، وأشار إلى بعضها صديقنا الأستاذ فرناندودي أكريدا في المقدمة التي صدر بها هذه الأنطلوجية[45] فإنها، أي هذه الأخيرة، تعتبر خطوة لها قيمتها في مجال تعريف القارئ الإسباني بألوان من النتاج الفكري والإبداع الأدبي في المغرب المعاصر.

3 ـ الآثار الكامله :

إن ما نشر في العقود الثلاثة الأخيرة، وهي التي شهدت العناية الإسبانية بالأدب العربي الحديث ومن ضمنه الأدب المغربي، من آثار أدبائنا

---

40) نفسه، 488.

41) نفسه، 479.

42) مثل عبد الخالق الطريس.

43) مثل عبد الله شقرون.

44) مثل عبد القادر السميحي.

45) انظر ص ص XLVII – XLVIII

في القصة والرواية، والمسرحية، والشعر، والمقالة وافر، يعد بالعشرات[46]، ومع ذلك فإن ما ترجم من هذه الآثار إلى الإسبانية قليل للغاية، لا يكاد يتجاوز أصابع اليد.

وربما تكون رواية (طه) التي كتبها صاحبها أحمد حسن السكوري سنة 1941[47] أول ما ترجم من آثار الأدب المغربي الحديث الكاملة، وفي مجال الفن الروائي خاصة، إلى الإسبانية : غير أنها لم يكتب لها من الذيوع والانتشار في هذه اللغة، بل وحتى في لغتها الأصلية، ما كتب لآثار أخرى ترجمت بعدها بسنوات وسنوات، وأشهرها عملان شعريان لمحمد الصباغ، هما :

أ ـ شجرة النار **El arbol de fuego** :

وقد صدر بالإسبانية سنة 1954 بترجمة المؤلف والشاعرة طرينامر كادر قبل أن يصدر في لغته الأصلية، ويضم ستة عشرة قصيدة نثرية، استلهم في بعضها وجدانه، وفي بعضها وجدان أمته، ولاشك أن معرفة الصباغ بالشعر الإسباني المعاصر وإعجابه بشعراء جيل 98 وجيل[48] 97

---

46) انظر حول ذلك، فهرسة المجاميع القصصية المغربية 1947 ـ 1978 من إعداد مصطفى يعلى مجلة «المورد» مج ■ ع 2 (1979) ص ص 391 ـ 394، و«الأدباء المغاربة المعاصرون» دراسة بيبليوغرافية إحصائية ـ تأليف عبد السلام التازي. منشورات الجامعة ـ 1983، و«بيبليوغرافيا الفن الروائي المغربي (1930 ـ 1984)من إعداد مصطفى يعلى، مجلة «آفاق» ع 3 ـ 4 (دجنبر 1984) ص ص 74 ـ 82، و«الأدب المغربي الحديث «لعبد الرحمن طنكول، منشورات الجامعة (دجنبر 1984).

47) انظر هامش.

48) انظر عن هذين الجيلين في تاريخ الأدب الإسباني المعاصر دراستنا المنشورة بعنوان «أضواء على الأدب الإسباني المعاصر» الحلقات 1 ـ 5 مجلة «دعوة الحق» الأعداد : 2,1 4,3 س 8.

كان في مقدمة ما دفع به إلى الخوض في تجربة كتابة قصيدة النثر[49]. وإذا كان النقد المغربي قد رأى في نشر ديوان (شجرة النار) بالإسبانية قبل نشره بالعربية ما يدل على تهيب الشاعر (من صدم الذوق العربي في المغرب الذي لم يكن قد تعود على قراءة واستساغة القصيدة النثرية)[50] فإن النقد الإسباني قد رأى في ذلك ما يدل بوضوح على التأثير الذي كان للشعر الإسباني المعاصر في جيل الشعراء الشباب بالمغرب يومئذ[51].

ب ـ أنا والقمر La luna y yo :

وهو ديوان من الشعر المنثور يضم ثمانية وعشرين قصيدة، عنيت بترجمته الدكتورة ليونور مرتينث مرتين أستاذة اللغة العربية بآداب برشلونة، وصدرت الترجمة بتطوان سنة 1956 وهي نفس السنة التي ظهرت فيها الطبعة العربية، وإذا كان القارئ الإسباني قد تعرف في (شجرة النار) على الشاعر وهو يمتاح من وجدان أمته كما يمتاح من وجدانه الذاتي فإنه في (أنا والقمر) قد التقى به وهو يحلق بأجواء ذاتية مشبوبة، ويطوف، بآفاق رومانسية شفافة.

ومن الحق أن نذكر، هنا بأن (شجرة النار) و(أنا والقمر) لم يلقيا هوى في نفس القارئ المغربي يومئذ ولم ينالا من إعجابه ما نالت كتب أخرى للصباغ من مثل (العبير الملتهب) أو اللهاث الجريح)، وجميعها صدر في فترات متقاربة، في حين نجد هذين الديوانين نفسيهما، أي (شجرة النار)

---

49) انظر، محمد الصباغ، اللهاث الجريح : 60 ـ 63.

50) انظر، عبد العلي الودغيري، قراءات في أدب الصباغ : 46.

51) انظر، تقديم سلسلة «اعتماد» للترجمة الإسبانية لـ «شجرة النار».

و(أنا والقمر) كانا هما اللذان أظفرا الصباغ لدى الأوساط الأدبية الراقية في إسبانيا بإعجاب وتقدير بالغين عبر عنها أحد أعلام الشعر الإسباني المعاصر وهو فيثنطي أليكسندري حين كتب : (في شعر محمد الصباغ أريج قديم يمتزج بفوح جديد. وإن شيئا ما يمسنا عن قرب في صوت هذا الشاعر العربي الغض الاهاب الذي يرفع صوته وسط أمته بأغان مميزة مثلما تبلور عاطفته الملتهبة تبلور بذات الوقت مشاعر التضامن والالتحام مع شعبه)[52] كما عبر عن هذا الاعجاب والتقدير اللذين حظيا بها أدب الصباغ لدى القارئ الإسباني شاعر آخر، يعتبر هو كذلك من مرموقي شعراء إسبانيا المحدثين، وهو خراردو دييكو الذي كتب قصيدة سماها (أنت والقمر) (La luna y Tu) أهداها للصباغ ليصدر بها الترجمة الإسبانية لديوانه (أنا والقمر)[53].

وعلى الرغم من أن ما عرف طريقه إلى الإسبانية من الأدب المغربي الحديث، سواء ما صدر منه في المجلات الشعرية والأدبية، أو ضمن كتب الاختيارات الأدبية ومجاميعها، عامة أو خاصة، أو ما نشر في آثار كاملة، كان معدودا فإنه قد حقق فائدتين اثنتين، أولاهما إطلاع القارئ الإسباني على ألوان من الإبداع الأدبي والشعري في المغرب، وثانيتهما وضع جملة صالحة من النصوص الأدبية والشعرية في متناول النقاد والدارسين مما كان له أثره في توجيه هؤلاء وأولئك إلى العناية بهذا الأدب على نحو ما سنرى في فقرة أخرى من هذه الدراسة.

---

52) انظر، ص الغلاف الثانية من الترجمة الإسبانية لـ «شجرة النار».

53) انظر، La Luna y yo. pp. 9 – 10

ومع ذلك فإن من يستعرض الفقرات المتقدمة يلاحظ أن الترجمة الإسبانية على محدوديتها، أولت اهتمامها لكافة الأشكال والأجناس التي عرفها أدبنا الحديث، فمن القصيدة، عمودية كانت أو حرة أو مرسلة، إلى القصة القصيرة، بمختلف اتجاهاتها، ومن المسرحية، نثرية وشعرية، إلى الرواية، إلى المقالة والبحث الأدبيين، كما يلاحظ أن الموضوعات التي انتظمتها هذه الترجمة متنوعة ومتعددة، فيها الذاتي، وفيها الاجتماعي، وفيها الوطني، وفيها القومي، وفيها الإنساني، وفيها الأدبي، وفيها التاريخي، وفيها اللغوي.

وفضلا عن ذلك فإن هذه الترجمة لم تقصر عنايتها على جيل دون آخر من أدبائنا بل حرصت على أن تنتقي نماذج من النتاج المتنوع الذي عرفه أدبنا خلال هذا القرن انطلاقا من شعراء العشرينات إلى الفترة الراهنة، وربما يكون هذا الحرص، في جملة دوافع أخرى، هو الذي جعل هذه الترجمة تعنى، أحيانا، بنتاج تنقصه شروط (الأدب) وقيمه.

على أنه تنبغي الإشارة إلى أن أوفر الأدباء حظا من عناية هذه الترجمة كان هو محمد الصباغ، فإلى جانب ديوانيه (شجرة النار) و(أنا والقمر) ترجمت له نصوص متعددة نشر بعضها في أشهر مجلات إسبانيا الشعرية والأدبية وأرقاها من مثل مجلة (كراكولا)، ومجلة (إنديثي)، ومجلة (المنارة) وغيرها، ونشر بعضها الآخر في كتب الاختيارات الشعرية والأدبية ومجاميعها. ولقد كانت لهذه العناية الخاصة التي شملت بها الترجمة الإسبانية أدب الصباغ أسباب، في مقدمتها معرفته باللغة الإسبانية أتاحت له الاطلاع على الشعر الإسباني المعاصر في دواوين أعلامه الكبار أمثال خيمنيث، وأليكسندري، وهرنانديس، كما أتاحت له ربط علاقات صداقة

بعض الأدباء والشعراء الإسبان في المغرب أمثال طرينا مركادر وبيوغومث نيثا وخاثينشو لوبيث خورخي، وفي إسبانيا أمثال أليكسندري وخرأردو دييكووليوتور مرتين مرثينيث وپدرو مونتابيث، كما أتاحت له تلك المعرفة باللغة أن يشارك في ترجمة بعض آثاره كـ (شجرة النار) وتقديم قراءات شعرية في بعض النوادي الأدبية بإسبانيا[54].

وإذا ذكرنا أن ما تم نقله إلى الإسبانية من نصوص أدبية ما بين شعر ونثر، أزيد من مائة نص، يختلف من حيث الطول والقصر، ومن حيث الشكل والصياغة، ومن حيث الموضوع والمضمون، بل ومن حيث نصيبه من الإبداع والابتكار أو التقليد والاجترار، ثم إذا ذكرنا، إلى ذلك، أن الذين تولوا نقل هذه النصوص من العربية إلى الإسبانية يتفاوتون من حيث حظ كل منهم من التمكن في اللغتين : المنقول منها والمنقول إليها. ويتفاوتون من حيث ما كان لدى كل منهم من موهبة فنية، وطاقة إبداعية، وقدرة على تقمص شخصية الأديب الذي ينقله والشعور بشعوره. ثم إذا ذكرنا، إلى هذا وذاك، عسر الترجمة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة. مما قد حمل البعض، كما هو معروف، على القول باستحالتها[55] إذا ذكرنا ذلك كله أمكننا ونحن نتساءل عن حظ هذه الترجمة من الدقة والأمانة، ونصيبها من التوفيق والسلامة. أن نتصور ما قد يثيره مثل هذا التساؤل من قضايا وإشكاليات تستلزم بحثا خاصا ودرسا مستقلا ليس يسعها المقام هنا.

---

54) نفسه، 5.

55) يقول الجاحظ الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حول تقطع نظمه ويظل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب) انظر، الحيوان 1 : 75.

على أننا، مع ذلك، لن ننهي الحديث عن هذه الترجمة دون أن نشير إلى أن ماتميزت به، أو تميز به بعضها. على الأصح، من الدقة والسلامة يرجع، في جانب منه، إلى أن أفرادا ممن قاموا بها أمثال مونتابيث والخطيب اللذين كانت معرفتها باللغتين بالدرجة التي كانت تتيح لها إنجاز ترجمة بارعة لم يملك معها مستعرب مثل غرسية غومث وشاعر مثل فيثنطي أليكسندري إلا التنويه والإشادة بعملها[56]. كما أن ما توافر لبعض هذه الترجمة من الأمانة والتوفيق يرجع، في جانب آخر، إلى أن أفرادا من الذين كانوا يشتغلون بها أمثال مركادر والصباغ كانا، إلى معرفتها باللغتين، على تفاوت بينهما، يملكان من الموهبة الأدبية ما استطاعا به أن ينجزا ترجمة وصفت بأنها (جليلة، ومحيطة بالأصل)[57]، كما كان مما حقق لجملة من هذه الترجمة حظا من السلامة والتوفيق أن بعض من أنجزوها، وفي مجال الشعر خاصة، من مثل الدكتورة ليونور مرتينيث التي حرصت، إلى جانب عنايتها البالغة بنقل المعاني، والصور، والأخيلة، والمحافظة على روح الأثر المنقول، أن تصوغ بعض ما ترجمته من شعر، وهو في لغته مرسل، لا وزن له ولا قافية، في موسيقى وأوزان عروض اللغة المنقول إليها مما أظفرها بالتنويه[58]، وأظفر، لاشك، الشعر المترجم بالقبول والحظوة لدى بعض قراء الشعر من الإسبان.

---

56) انظر، Martinez Montavez, Pedro, Poesia àrabe contemporanea, p. 17
وانظر، مجلة المعتمد، ع 26 ص 3.

57) انظر، Pio Gomez Niza, El arbol de fuego. Revista Al-Motamid Nº 28 p. 9. (Septiembre, 1954).

58) انظر، تقديم الترجمة الإسبانية لـ «أنا والقمر» ص 5.

ومع هذا وذاك فإن ما يكتنف الترجمة الأدبية في مجال الشعر خاصة من صعوبة وعسر يجعل حظها مما تحوزه من رضى القراء يتفاوت من طبقة إلى أخرى. ولعل هذا التفاوت في الرضى بهذه الترجمة أو تلك هو ما دفع بمترجم مثل خوسي فاثكيث إلى أن يصف ترجمة ليونور لقصيدة عبدالله كَنون عن (القنبلة الذرية)[59] بأنها غير دقيقة[60] ويعيد ترجمتها من جديد[61]. كما أن هذا التفاوت في الرضى بالترجمة المنجزة لهذا العمل أو ذاك هو ما دفع بأديبة مثل كارمن كوندي إلى أن تكتب بعد قراءاتها لبعض ما ترجم إلى الإسبانية من نتاج بعض الشعراء المغاربة : (كم أود معرفة لغتهم لأتعرف عليهم جيدا)[62].

II ـ الاستفتاء :

لاشك أن الاستفتاء الأدبي، خاصا كان أو عاما، يوفر، بما يسلط من ضوء على السيرة الذاتية للكاتب أوالشاعر، وبما يعكسه من حياته الفنية سواء من حيث روافدها أو توجهاتها، مادة صالحة ينتفع بها الباحثون فيما يعدون من دراسات وبحوث حول الأدب، موضوع الاستفتاء، وظواهره وأعلامه.

ومن هنا فقد عني بعض الدارسين والمستعربين الإسبان، فضلا عما كانوا ينجزونه من ترجمة ألوان من الابداع المغربي في الشعر والقصة،

59) انظر Leonor, M.M., Antologia de poesia àrabe cotemporanea. p. 226 – 227

60) انظر، .Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos. p. 356

61) نفسه، 356.

62) انظر، المعتمد، ع 27 ص 4.

باستكشاف جوانب من حياة الكتاب والشعراء المغاربة واستطلاع آرائهم في الأدب والفكر من خلال ما كانوا يجرونه معهم من استجوابات واستفتاءات.

وقد ميزنا فيا عرفته اللغة الإسبانية من ألوان الاستفتاء عن الأدب المغربي الحديث نوعين اثنين، أحدهما خاص، وثانيهما عام.

أما أولهما فهو هذا الاستفتاء الذي خص به أديب ما بقصد تعريف القارئ الإسباني بحياة هذا الأديب وإبداعه، ونكتفي في التمثيل لهذا الاستفتاء بمثالين هما :

أ ـ استفتاء أديب، وهو محمد الصباغ، أجرته معه جريدة إسبانيا[63]، وقد عكس هذا الاستفتاء تصور الصباغ لواقع الشعر أواسط الخمسينات ومستقبل حركة التجديد من خلال قوله (أما الشعر المغربي وأعني به الشعر الجديد فله رواد من شعراء الشباب الذين استيقظوا عن صرخة التجديد في صدورهم، وبفضل ثورتهم على القديم سيصلون بفنهم إلى ما يهدفون، وأنا متفائل بهذه الجماعة وبمستقبل الشعر في وطني)[64]، كما عكس هذا الاستفتاء تصور الصباغ لرسالة الشاعر في مجتمعه حين قال : (ومن الطبيعي، بل من الواجب على الشاعر الحقيقي أن يشارك في أحزان أمته وأفراحها، وأن يعمل على إيقاظ الحماس في أصلابها إن كانت خائرة، وأن يهديها إلى منابع الجمال، والحق، والنور، فالشاعر هو مزمار أمته في أفراحها، ورعدها وبرقها في أتراحها)[65].

---

63) انظر، مجلة «كتامة» ع 9 ص 4.

64) نفسه، ع 9 ص 5.

65) نفسه، ع 9 ص 5.

ب ـ استفتاء كاتب مسرحي وهو أحمد الطيب العلج، وقد تضمن إشارات مفيدة إلى تجربة الكتابة للمسرح في المغرب والتي يؤلف فيها (الاقتباس) مرحلة أولية، يتحدث عنها العلج في نطاق تجربته الخاصة، فيقول : (أما الاقتباس فو بالنسبة لي مدرستي الأولى في الكتابة للمسرح، ولكنه لم يكن سوىمرحلة تعليمية في الممارسة فقط، على أني لم أقتصر على اقتباس مسرحيات موليير وحده بل اقتبست لجل رجال المسرح الافذاذ : شكسبير، ماي فوكوتولين، لابشيت، كوكول، بيكيت، بريجت، رونيار، جيل رومان وغير هؤلاء كثير...)[66].

كما يتضمن الاستفتاء إشارات إلى تصور العلج للتأليف للمسرح من حيث المضمون كقوله : «إنني أستلهم واقع الشعب وقضايا الناس في مجتمعي العربي المغربي الإفريقي... لقد دأبت على أن أضع في اعتباري إنسان العالم الثالث وكل المسحوقين بصفة عامة)[67]. أو من حيث البناء كقوله : (عندما كتبت مسرحية «الشطاب» أي الكناس سنة 1956 كنت إذ ذاك شابا في بداية عهدي بالمسرح اعتمدت بطريقة عفوية أسلوب اللوحات وهو نوع من المسرح يتحرر من قيود وحدة الزمان والمكان... واعتمدت أيضا أسلوب الأغنية الشعبية في المواقف الحرجة والغناء الجماعي)[68].

وأما الاستفتاء العام فهو الذي استقطب بسؤاله أو بأسئلته الموحدة طائفة من الأدباء، غالبا ما تكون توجهاتهم واهتماماتهم متباينة مع ما قد

---

66) انظر، Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos. P. 434
وانظر، النص العربي في مجلة «الأقلام» العراقية ع 11 ص 12 ص 23.

67) نفسه، 24.

68) نفسه، 24.

يكون من تواطؤهم على الفن الواحد من فنون القول الذي يوثرونه بالكتابة دون غيره.

وقد أتيح للقارئ الإسباني أن يتعرف على واقع الأدب المغربي الحديث وآفاقه من خلال استفتاءين عامين، هما :

أ ـ استفتاء (المعتمد) :

لقد كان من بين مظاهر اهتمام مجلة (المعتمد) بالأدب المغربي الحديث وبالشعر خاصة تنظيمها استفتاء توجهت به إلى عدد من الدارسين والأدباء في صيغة السؤال التالي : «لماذا تجد الشبيبة المغربية (الإسلامية) تتلقى الشعر باهتمام قليل بينما هي تنتمي إلى جنس يحمل بذور الشعر في نفسه ؟ إن المغرب بوصفه شعبا فتيا ذا عراقة أدبية يتعين عليه إحياء شعره وأدبه»[69]. وتحت عنوان في البحث عن الشعر الفتي في المغرب En busca de La joven poesia en Marruecos شرعت المجلة في نشر الأجوبة ابتداء من عددها الثامن عشر[70]، وقد بلغ مجموع الأجوبة سبعة، ستة منها لدارسين وأدباء إسبان أغلبهم كان يقيم بالمغرب، وإجابة واحدة لكاتب مغربي هو عبد الله كنون أما الإسبان فهم طوماس غرسية فيغراس، وخاثينتولوپش خورخي، وبيوغومث نيسا وإلاديوسوس، وميجيل فرناندس، وفرنثيسكو سلكيرو.

ولقد كان في بعض ما أدلى به هؤلاء الدارسون والأدباء من أجوبة على السؤال المطروح ما يدل على معرفة أصحابها بواقع الشعر المغربي من

69) انظر، المعتمد ع 18 ص 6 (يوليو 1949).

مثل ما نقرأ في إجابة طوماس غرسية فيغراس : (مما لاشك فيه أن الموضوع على جانب كبير من التعقد، أنا لا أظن أن تكون الشبيبة المغربية قليلة الاهتمام بالشعر، وإن ما يمكن أن نذكره من أسماء الشبان المغاربة الذين يتداولون الشعر في الوقت الحاضر لتؤكد ذلك)[71]. أو من مثل ما نقرأ في إجابة فرنثيسكو سالكيرو (الشعر المغربي ذو تلقائية سليمة وأساسية وصلبة مثل أرض المغرب، وهو إلى ذلك متفتح ومتنور كمائه، متحرر من التأثير الأندلسي، ذو شخصية قوية تعبر عنها صيحات الثورة الملتهبة...)[72].

على أننا نجد من بين هذه الأجوبة ما يدل على جهل أصحابها بواقع الشعر المغربي وحاضره، ومن ذلك ما ورد في إجابة خاثينتولويث خورخي : (...ليست الشبيبة المغربية وحدها التي لا تهتم بالشعر، بل تشاركها في ذلك الشبيبة الإسبانية أيضا، على أن إسبانيا، مع ذلك، تمتلك شعرا وأدبا عصريين خاصين بها، أما المغرب فليس يملك ذلك، والإسبان معروفة لدى أي شخص ومدركة لكل فرد. فالمغرب بحاجة إلى أن يبعث شعره وأدبه من جديد، ولكن : أين الشعراء ؟ أين الأدباء ؟...)[73]، ومثل هذا تكشف عنه إجابة ميجيل فرنانديث[74] والاديوسوس[75].

وقد تصدى الأستاذ محمد بن عزوز حكيم لمثل هذه الاجابات في مقال نشر في (المعتمد) مشيرا في أوله إلى أن صيغة سؤال الاستفتاء تتضمن تصورا خاطئا لواقع الشعر في المغرب أي أنه يتضمن حكما مسبقا من طرف

(71) نفسه، ع 18 ص 6.
(72) نفسه، ع 24 ص 5.
(73) نفسه، ع 20 ص 6.
(74) نفسه، ع 23 ص 6.
(75) نفسه، ع 22 ص 7.

واضعته، وهي الشاعرة طرينامركادر مديرة المجلة، بأن الشبيبة المغربية لا تولي الشعر أياهتام، ثم مضى ينتقد تلك الاجابات التي أبانت عن جهل أصحابها بماضي الشعر المغربي وحاضره، وختم مقاله مشيرا إلى أن الشباب المغربي يقوم بنشاط أدبي وشعري كنظيره الإسباني مثلا، غير أن نتاجه الذي يكتبه باللغة العربية لا يطلع عليه الشاعر أو القارئ الإسباني، وإذا صح أن الشبيبة المغربية لها هذا الموقف من الشعر فإنها في ذلك ليست بدعا، فإن الشبيبة الإسبانية بدورها، كا يقول خاشينتولويث خورخي لها مثل هذا الموقف. ومع ذلك فإننا نعرف في صفوف الشباب المغربي حاليا عددا من الشعراء أثبتوا أصالتهم وتفوقهم[76].

ومهما يكن من المآخذ على استفتاء (المعتمد) فقد كان له فضل السبق إلى هذا المجال من مجالات استطلاع الرأي، واستجلاء التصور، لئن فاته فيه تقديم صورة جلية لواقع الأدب والشعر المغربيين المعاصرين فإنه لم يفته أن يلفت الأنظار إليهما ويثير الاهتام بهما.

ب ـ استفتاء «دي أكريدا» :

وهو ثاني استفتاء عام عرفته اللغة الإسبانية حول الأدب المغربي الحديث، وقد أنجزه الأستاذ فرناندودي أكَريدا، بعد نحو عشرين سنة من الاستفتاء الأول، ضمن أطروحة جامعية عن (الفن الروائي في الأدب المغربي الحديث)[77].

---

76) نفسه، ع 25 ص 6.

77) أعدها بإشراف الدكتور بدرومارتينث مونتايث ولم تنشر إلى الآن.

وقد تحدث صاحب الاستفتاء عن الدواعي التي حدت به إلى إنجازه فقال : (إن فكرة هذا الاستفتاء نبعت من اشتغالي بإعداد رسالتي للإجازة في الآداب ذلك أنني لما كنت أرغب في الاحاطة بموضوع مثل «الفن الروائي المعاصر في المغرب» وهو موضوع ليس تعدل سعته إلا جدته وطرافته بالنسبة للقارئ الإسباني، قررت أن أستطلع رأي المبدعين أنفسهم لهذا النتاج الذي هو هدف الدراسة)[78].

أما مضمون هذا الاستفتاء فهو يتناول، حول محور رئيس هو «القصة القصيرة»، مظاهر رئيسية ثلاثة للعمل الأدبي، هي : أ ـ ترجمة حياة الكاتب. ب ـ نشاطه الأدبي. ج ـ قضايا أدبية عامة. وقد أجاب عن هذا الاستفتاء طائفة من الأدباء[79] تجمعهم الكتابة القصصية وتتوزعهم الاهتمامات الأدبية الأخرى ما بين شعر، ونقد ومقالة، كما تتوزعهم التصورات الفكرية والاتجاهات الأدبية. ومرد هذا التوزع كما تكشف عنه الاجابات، إلى التباين في ثقافة المجيبين ومقروئهم.

وتتجلى أهمية هذا الاستفتاء ليس فقط في كونه أجري بعد الاستفتاء الأول بما يقرب من عشرين سنة، أي في فترة كان الأدب المغربي يعرف

78) انظر. De Agreda Burillo, Fernando, Encuesta sobre La Literatura marroqui actual. Revista « Almenara » Nº 2 P. 133

79) هذه أسماؤهم بحسب ترتيبها عند المؤلف في كتابه الذي جمع فيه أجوبتهم ونشره المعهد الإسباني ـ العربي للثقافة بمدريد سنة 1975 : عبد الله كنون وعبد القادر السميحي وأمينة اللوه وحسن الوراكلي وإبراهيم الإلغي وخناثة بنونة ومحمد اشماعو ومحمد الآمري المصمودي ومحمد برادة ومحمد بيدي ومحمد إبراهيم بوعلو ومحمد عز الدين التازي ومحمد شكري وفدوى ميحات وعبد العزيز بنعبد الله وأحمد الجاطي ومحمد عنيبة الحمري ومحمد الخطابي ومحمد الرجراجي.

فيها من ألوان الابداع والتطور ما لم يكن له به عهدحين أجرت مجلة (المعتمد) استفتاءها، ولكن تتجلى في كونه، أي استفتاء دي أكريدا، حقق بما تضمنت إجاباته من معلومات وبيانات، للقارئ الإسباني فرصة، لم يعرف لها مثيلا من قبل، للتعرف على طائفة بعينها من كتاب المغرب وأدبائه هم القصاصون والروائيون من خلال حديثهم عن حياتهم الخاصة وحياتهم الأدبية ولا سيا في مجال الفن القصصي.

وإذا ذكرنا أن عدد ما تضمنه نص هذا الاستفتاء من أسئلة سبعة عشر سؤالا[80]، فيها البسيط والمركب، وأن عدد المجيبين عنها تسعة عشر قاصا يختلفون ثقافة، ومقروءا، واتجاها أدبيا، أدركنا مدى أهمية هذا الاستفتاء في استجلاء كثير من العوامل الأدبية والسوسيولوجية التي أثرت،

---

80) هذا نصها الكامل :

1) الترجمة الشخصية.

- الإسم واللقب.
- المحيط العائلي : هل هناك سوابق أدبية ؟
- الدراسة، المستوى والمكان.
- المهنة الحالية : هل الأدب كاف كوسيلة للمعيشة ؟
- القراءة والأسفار : الكتب المفضلة والبلدان.
- ما هي اللغات التي تجيدونها ؟

2) النشاط الأدبي الشخصي.

- إلى أي نوع من الأدب تميلون ؟
- ماذا تفضلون في الكتابة ؟ اللغة الكلاسيكية أو الدارجة ؟ وكيف تستعملونها في القصة ؟
- هل لديكم اتصال بالأدب العربي الشرقي ؟ والإسباني ؟
- أتعتقدون في استمرار وجود كتاب بالفرنسية والعربية في آن واحد في المغرب ؟

على نحو لافت، في إبداعها الأدبي بعامة، والقصصي بخاصة. ومن هنا يمكن القول بأن هذا الاستفتاء، بما كشف من خلفيات الأدباء المغاربة الاجتماعية والفكرية، وآفاقهم الفنية والجمالية، وضع بين يدي القارئ الإسباني أداة بالغة الفائدة في فهم وتذوق ما ترجم إلى لغته من إبداع الكتاب المغاربة الأدبي والقصصي منه خاصة(81).

III - الدراسة :

سواء في مجال الترجمة أو في مجال الاستفتاء فإن الجهود المبذولة، على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة، ذات قيمة بالغة ليس من سبيل إلى إنكارها، فإليها، أي الجهود، يعود الفضل ليس فقط في إطلاع القارئ الإسباني على ألوان من الابداع الأدبي في الشعر، والقصة، والرواية، والمسرح، والمقالة مما كتبه الأدباء المغاربة المعاصرون ولكن لأنها وضعت بذلك بين أيدي النقاد والدارسين مادة أدبية لم تثن بعضهم محدوديتها عن إجالة النظر

---

3) حول الأدب عامة.

- أتظنون أن في المغرب أدبا شبيها بما يسمى في الغرب «قصة» ؟
- إذا كان كذلك : فمتى ظهر بالمغرب ؟
- ما رأيكم في الجمهور المغربي كقارئ ؟ ما هي ميوله في الأدب ؟ هل يفضل الكتاب المغاربة عن سواهم ؟
- ما رأيكم في الكتاب المغاربة الحاليين ؟ وما هي المشاكل التي تعترض طريقهم ؟
- أتعتقدون بوجود حركة نثرية عربية بالمغرب ذات قيمة ؟
- أتؤمنون بوجود حل للفارق بين العربية الفصحى والدارجة ؟
- ما هي الحلول التي ترونها لفكرة : لغة عربية لعالم عربي ؟

81) انظر، مقدمة الدكتور مونتابيث ومدخل الأستاذ دي أكريدا للاستفتاء.

فيها وتناولها بالدرس نقدا وتحليلا مما لانشك في أنه أعان القارئ الإسباني على تذوق ما قرأه مترجما من ذلك الأدب إلى لغته.

وإذا صرفنا النظر عن جملة عروض تعريفية ببعض النتاج الشعري والقصصي المغربي[82] مما كانت تنشره بعض المجلات «المعتمد» و«المنارة» فإننا نقع على مقالات وبحوث أراد بها أصحابها إلى رسم صورة عامة للأدب المغربي الحديث من خلال شخصياته وفنونه. ويمكن أن نميز في هذه المقالات والبحوث نوعين اثنين، أحدهما خاص بفنون معينة، وثانيهما عام، شامل.

أما النوع الأول فقد عرفنا منه مما دار حول الشعر مقالين اثنين، أحدهما كتبه مانويل بينيو بعنوان «نحو شعر مغربي[83] Hacia ▬ poesia de Marruecos» أفاد فيه مما كانت مجلتا (المعتمد) و(منظيال) قد نشرتاه من نتاج لبعض الشعراء المغاربة مترجما للإسبانية، وثانيهما هو المقال الذي كتبه خوسي أنخيل فالنطي بعنوان «الشعر العربي المعاصر في المغرب[84] Poesia arabe de hoy en Marruecos» وهو كسابقه من حيث اقتصاره على ذكر طائفة من أدباء الشمال وشعرائه ممن كانت المجلات الصادرة في هذه المنطقة يومئذ من مثل المجلتين آنفتي الذكر ومجلة (الأنيس) و(الأنوار) تنشر لهم نتاجهم الأدبي، لكنه يتميز عن المقال السابق بما سلط من ضوء على نهضة الشعر العربي في المشرق والمهجر وما كان لشعراء هذا وذاك من أثر على

---

82) انظر، «المعتمد» ع 28 ص 9، و«المنارة» ع 3 ص 285، ع 4 ص 261، 269، ع 5 ـ 6 ص 308، ع 9 ص 289، ع 10 ص 236.

83) انظر مجلة Africa ع 105 ص ص 404 ـ 406 (شتنبر 1950).

84) انظر مجلة Indice ع 84 ص 28 (شتنبر 1955).

الشعر المغربي كما يعكس ذلك نتاج محمد الصباغ ولا سيما كتابه (شجرة النار).

وعرفنا مما دار حول الفن القصصي والروائي ثلاثة أعمال[85]، أحدهما رسالة جامعية للأستاذ فرناندودي أكَريدا، لم تنشر بعد، وهي «القصة القصيرة في الأدب المغربي الحديث[86] La narrativa breve en La Literatura moderna marroqui» وأما العملان الأخران فقد كتبها الدكتور عبد الرحمن شريف الشركَي بالإسبانية أفرد بأحدهما رواية «المعلم علي»[87] لغلاب، وخص بثانيها رواية «إكسير الحياة»[88] للهيابي. وقد عني في العمل الأول باستجلاء المظاهر السوسيولوجية والنفسية، والابداعية في فن غلاب الروائي من خلال «المعلم علي». وعني في العمل الثاني باستكشاف ثلاثة أبعاد، هي البعد النفسي، والبعد الاجتماعي، والبعد الميتافيزيقي في رواية «إكسير الحياة».

أما النوع الثاني، وهو العام، من هذه المقالات والبحوث فقد عرفنا منه ثلاثة أعمال، أقدمها المقال الذي كتبه الأستاذ محمد ابن عزوز حكيم بالإسبانية بعنوان «أدباء المغرب المحدثون[89] Literatos modernos de Marruecos» وقد قصر فيه حديثه، خلافا لعنوانه، عن أدباء شمال المغرب

---

85) باستثناء ما درس فيه أصحابه الأدب الشعبي مثل «القصة في الأدب الشفوي بالمغرب» للدكتور رودلفوخيل كَريماو، وهي دراسة أعدها لنيل الإجازة في اللغات السامية من آداب مدريد.

86) أعدها صاحبها بإشراف الدكتور بدرومارتينث مونتابيث لنيل الإجازة من آداب مدريد.

87) انظر، مجلة المنارة ع 3 ص ص 152 ـ 164.

88) انظر، مجلة المنارة ع 9 ص 187 ـ 199.

89) انظر، مجلة Africa ع 133 ص ص 14 ـ 15 (يناير 1953) وقد أعيد نشر المقال في كتاب Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos ص ص 64 ـ 68.

بخاصة من أمثال عبد الله كَنون، والتهامي الوزاني، وإبراهيم الالغي، وعبد القادر المقدم، وغيرهم، ومع أن التعليقات التعريفية التي نجد الكاتب يعقب بها على بعض الأسماء لا تنم عن معرفة بالنتاج الأدبي للفترة كما لا تدل على ذائقة أدبية أو منظور نقدي عنده إلا أنه، أي المقال، كان ذا فائدة محققة بالنسبة للقارئ الإسباني الذي لم يكن إلى عهد قريب من تاريخ نشر المقال المذكور، يعرف شيئا عن أدباء المغرب وآثارهم.

أما العمل الثاني من هذا النوع العام فهو الذي كتبه الدكتور رودلفو خيل كَريما وبعنوان «حول الأدب المغربي المعاصر[90] En torno a La Literatura marroqui actual» وهو عبارة عن دراسة بناها صاحبها على مقدمة صور فيها الأوضاع والملابسات التي تكتنف الأدب المغربي الحديث كالازدواجية اللغوية، وأزمة النشر وغيرهما، وألم فيها بذكر طائفة من الأدباء والكتاب الذين تألقت أسماؤهم في الشعر، والقصة، والرواية، مشيرا إلى الاتجاهات والتيارات الأدبية التي يعرفها الأدب المغربي وإلى الموضوعات التي يعني بتناولها ومعالجتها. أما في القسم الثاني فقد حاول الدكتور خيل أن يستكشف إحدى السمات الرئيسية التي تتلبس، برأيه النتاج الابداعي المغربي في أكثر من مجال واحد، وهي سمة «الشاعرية»، وفي ذلك يقول : (...في الاحساس كما في التعبير نفسه نزوع إلى ما هو شاعري يتراءى بجلاء. وإنه لمن المنطق أن يكون الأمر كذلك حين يكون الموضوع، أو ما تستلزمه معالجته، شعرا، غير أنه يبدو لأول وهلة مجانبا للمنطق حين يتعلق الأمر بظاهرة اجتماعية أو موضوع تاريخي، أي حين تنصرف العناية بإلحاح

90) كتبه سنة 1978. ويظهر أنه أذيع ضمن البرنامج الإسباني بالإذاعة الوطنية ولم ينشر، وقدتفضل كاتبه الصديق الدكتور خيل فأهداني نسخة منه مضروبة على الآلة الكاتبة.

إلى بلورة أوضاع الطبقات التي تعاني من شراسة الكدح أوالتهميش، أو حين تجيش المشاعر صراخا يندب غياب مسقط الرأس عن العين. إن الشعر يترقرق في أعطاف هذه الكتابات،ويتدفق، في صفاء، وأحيانا بين جمل وعبارات لم تكن تريد : في البداية، أن تكون شاعرية، مثلها مثل الأرصفة التي تريد، بدورها أن تكون معشوشبة، لكن العشب يأبى إلا أن ينبت بين تشققاتها)[91]. ثم يمضي الباحث، بعد ذلك، يلتمس لهذه السمة الشعرية أمثلة للتطبيق في نتاج الأدباء المغاربة كقالة «تطوان، تفاحة وحمامة وحديقة»[92] لمحمد العربي الخطابي، ورواية «الغربة المنفردة La reclusion solitaria» للطاهر بن جلون، وكتاب «عندلة»[94] لمحمد الصباغ، وقصة «الصياد»[95] لإبراهيم بوعلو، و«أغاني نساء فاس القديمة»[96] التي جمعها ونشرها محمد الفاسي، وسواء في القسم الأول من هذه الدراسة حيث استعرض الباحث الملابسات الفاعلة في الابداع الأدبي المغربي، أو في القسم الثاني حيث تتبع سمة «الشاعرية» في الآثار المتقدمة الذكر، يكشف لنا الدكتور خيل عن معرفة بالأدب المغربي الحديث تعطي آراءه حظها من السداد كرأيه في أن تأثر الأدب الروائي المغربي بنتاج المشارقة والغربيين مما يعوق ظهور شخصية مغربية أصيلة من شأنها أن تسهم بعطاء مغربي حق في الأدب العربي والعالمي كذلك، وليس معنى هذا، في رأي الدكتور

---

(91) انظر، En torno a La Literatura marroqui actual p. 8

(92) نفسه، ص ص 8 ـ 10.

(93) نفسه، ص ص 10 ـ 12.

(94) نفسه، ص ص 12 ـ 13.

(95) نفسه، ص 13.

(96) نفسه، ص ص 14 ـ 15.

خيل، أن على الأدباء المغاربة أن يتركوا جانبا الموضوعات والأشكال التي يبدعون فيها أدبهم ليستلهموا تراثهم الشعبي فقط، فهذا مما لا يخطر ببال، ولكن من المؤكد أنه يكن في الذاتية المغربية، وفي نظرتها للحياة، وفي أدبها الشفوي الخصب، وفي تاريخها المعقد من الدواعي، والحوافز، والشخصيات. مالو استغل، لعكس، على نحو رائع، الموضوعات والمضامين التي يحاول الأدباء المغاربة اليوم تقديمها لنا[97].

أما العمل الثالث الذي عرفناه ضمن البحوث العامة حول الأدب المغربي الحديث فهو المدخل الذي كتبه الدكتور عبد الرحمن شريف الشركَي لكتاب «الأدب والفكر المعاصران في المغرب» ولاشك أن الباحث أراد أن يكون هذا المدخل تقويما عاما لمختلف ألوان الإبداع المغربي من شعر، وقصة، ومسرح، ورواية، ومقالة ليكون، أي التقويم، عونا للقارئ الإسباني على فهم وتذوق ما تضمنته الأنطلوجية من نماذج ذلك الابداع، لكنه لم يوفق في بنائه حين فسح لحديثه عن الفن الروائي والقصصي حيزا لم يفسح مثله لباقي الفنون الأخرى مجتمعة، وإذا كان هذا مما ينال من منهجية الباحث فإنه لا ينال، بحال، من المدخل في جانبه التحليلي والنقدي حيث تطالع القارئ نظرات نقدية يقوم بها الباحث بعض الأعمال الأدبية وخاصة الروائية منها من مثل رواية «دفنا الماضي»[98] ورواية «إكسير الحياة»[99] للحبابي، وغيرهما.

---

97) نفسه، ص ص 7 ـ 8.

98) انظر Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos ; pp. XXI – XXII

99) نفسه، ص XXIV

والحق أن هاتين الدراستين تعتبران، إلى الآن، بما اشتملتا عليه من معرفة بالمادة الأدبية وقدرة على تحليلها أهم ما أنجز في الإسبانية ونشر من مقالات وبحوث عن الأدب المغربي الحديث.

على أنه ينبغي ألا يفوتنا في ختام هذا العرض أن نشير إلى أنه بجانب هذه المقالات والبحوث المكتوبة أصلا بالإسبانية ترجمت أعمال مما كتبه بعض الدارسين المغاربة عن أدبهم من مثل دراسة الدكتور عباس الجراري عن «الشعر المغربي في عصر النهضة»[100]، ودراسة الدكتور إبراهيم السولامي عن «وطنية شاعر الحمراء»[101]، ودراسة الأستاذ عبد العلي الودغيري عن أدب الصباغ[102]، ودراسة الأستاذ محمد التازي عن «دور الأدب المغربي في المعركة ضد الامبريالية والصهيونية[103] ودراسة الأستاذ أحمد الصفريوي عن «الرواية المغربية المكتوبة بالفرنسية»[104] فهذه البحوث جميعها، إلى سواها مما كتب أصلا في الإسبانية، سواء كان مما أعده دارسون إسبان أو مغاربة، أسهمت، إلى جانب الابداع المترجم، والاستفتاء الأدبي، في تقديم الأدب المغربي الحديث للقارئ الإسباني.

تطوان **د. حسن الوراكلي**

---

100) نفسه، ص ص 103 ـ 109.

101) نفسه، ص ص 112 ـ 124.

102) نفسه، ص ص 139 ـ 141.

103) نفسه، ص ص 69 ـ 83.

104) نفسه، ص ص 16 ـ 28.

المراجـــع

– Cherif-Chergui Abdorrahmàn : Tres dimensiones de la novela « El exilir de la vida » del Dr. Lahbàbi.
Revista Almenara Nº7-8 pp. 39-78.
– Cherif-Chergui Abdorrahmàn :Sociologia, psicologia, literatura en ùltima novela de « Abd al-Krim Gallab.
Revista Almenara, Nº?? pp. 152-164.
– De Agreda Burillo, Fernando : Envuesta sobre la literatura marroqui actual. Ed. Instituto Hispano-Arabe de Cultura, Madrid, 1975.
– Grimau, Gil Rodolfo : En torno a la literatura marroqui actual. Rabat, 1978.

خورخي، خاتينتو لويث

ـ الشعر العربي والإسباني في رحلة التواصل.

ترجمة : أحمد المطلوب.

العلم الثقافي ع 704 ص 5/4 (6 ذي القعدة 1494 هـ 4 غشت 1984).

–Matinez Martin, Leonor : Antologia de la poesia arabe contemporanea. Ed. Espasa-Calpe. Col. « Austral ». Nº1518 pp. ??? Madrid, 1972.
– La poesia actual àrabe : Revista de la Universidad Complutense XXIII, 93, Sept.-Oct. 1974.
– Martinez Montavez,Pedro : Poesia àrabe contemporanea.
Ed. Exelir. Col. 21, Nº17 Madrid, 1958 pp.???
–Intruduccion a la literatura àrabe moderna : Ed. Almenara, Madrid, 1974.
– Las relacions literarias hispano-àrabe contemporaneas.
Revista Estudios de Asia y Africa. El Colegio de Mexico, Nº43, vol. XV, Enero-marzo (1980) pp. 102-123.
– Pinillos, Manuel : Hacia una poesia de Marruecos.
Africa, Nº 105 (1950).
– Sabbag,Mohammad : El àrbol de fuego, version del autor y de trina Mercader. Ed. Al-Motamid, (Colleccion Itimad 1) Tetuan, 1954.
– La luna y yo (poemas) : Trad. Dra. LeonorMartinez Martin. Tetuan, 1956.
– Seminario de literatura y pensamiento : Lieteratura y pensamiento marroquies contemporaneos.
Ed. Instituto Hispano-Arabe de Cultura y Facultad de Letras de Rabat, 1981. Serie « Antologias ».
– Valente, José Angel : Poesia árabe dehoy en Marruecos.
Revista « Indice de Artes y Letras » Nº 85. Octubre 1955.

ـ الودغيري، عبد العالي.

قراءات في أدب الصباغ.

دار الثقافة ـ الدار البيضاء (1977).

وصليت في «الطاح» للمتعال!

محمد الحجوي الثعالبي

عيـون الشعـوب تشـد إليـك ... وأنت تحـل بـأرض «العيـون»،
قلـوب رعـايـاك خـافقـة ... تفيض ولاء، وتنـدى الجفـون،

وعـدت، ووعـدك وعـد الكرام ... فـوفيت حقـا وفـاء الكمـال،
دخلت «العيـون» دخـول الأبـاة ... وصليت في «الطـاح» للمتعـال،

وقفت تمجـد رب السما ... تسبـح حمـدا لـه بخشـوع،
وتسجـد شكرا لـه وثنـا، ... فسـالت عن الـوجنتين الـدموع،

فيـالهـا من لحظـة رسخت ... بـذاكرتي، وثنـايـا الفـؤاد !
سـأذكر روعتهـا كل حين ... وأرى جمـالهـا في كل نـاد !

إذا كنت صليت فعـلا هنـا ... قريبـا تصلي «بقـدس» شريف،
يحرر مـا حـول مسجـده ... وتـدخلـه في ركاب منيف،

يحفـــك أعضـــاء «لجنتـــه» تقـود خطـام، وأنت الإمـام،
بفضـل الإلـه العلي الكبير مجيب الـدعـاء، ورب الأنـام،

دخلت «عيونـك» مستفتيـا فكان الجـواب «نعم !» بـالتمام،
وشـاهـد إجمـاع أمتنـا عـدو عنيـد، حليف الخصـام،

فشلت يـداه لرؤيتـه وأصبـح عيـا، سليب الكـلام،
تبخر حلم لـه بغتـة وحصحص حـق لنـا لا يضـام !

تجليت في مـوكب للصـلاة فـأبهر مـوكبـك «الـزائرين»،
تسلمت من مجلس «النـائبين» بيـانـا بـاجماعـه المستبين

يـؤكـد وحـدة أوطـاننـا ويبعثهـا للمليـك «الحسن»
ويثبت حـق حـدود لنـا مسطرة من قـديم الـزمن،

تعرفهـا «العـدل» رغم العـدا وسرنـا إليهـا بروح السـلام،
شعـار مسيرتنـا خضرة وذكر حكيم وغصن الحمـام،

وتم اللقـاء بـإخـواننـا فشمرنـا عن سـاعـد للبنـاء،
وحققنـا في تسعـة عجبـا بعـون الإلـه وفيض العطـاء.

وزرت «الجدار» حـزام الأمـان ونـوهت بـالجيش والحرس،
فـزاد الحمـاس، وزاد الصمـود وأشرق نـور على الأنفس !

حبـــاك العلي بنصر عـــزيـــز «تقود» الجنـــود، وترعى الحـــدود،
فتبـــا لأعـــداء وحـــدتنـــا وسحقـــا لكل حســـود لـــدود !

وحفظـــا من اللـــه سبحـــانـــه لمـــولاي سبـــط الرســـول الأمين،
وأنجـــالـــه الشم قـــاطبـــة وأمتـــــه، أمـــــة المسلمين !

الرباط محمد الحجوي الثعالبي

دراسة مقارنة سريعة عن قصيدتي
الرندي وخورخه مانريكه*

د. حكمة علي الأوسي

ما كان في نيتي أن ألبي هذه الدعوة الكريمة لحضور ندوتكم هذه لأن الدعوة إليها وصلت إلي متأخرة جدا وفي وقت كنت منشغلا فيه بالاستعداد للسفر إلى القطر المغربي للالتحاق بعمل جامعي فيه موفدا من حكومة الجمهورية العراقية.

على أني، وبتشجيع من أديب مغربي كريم، رأيت أن أشارك ببحث موجز يتناول جانبا محددا من جوانب مهمة وواسعة في الدراسات المقارنة العربية الإسبانية، هو هذا الموضوع الذي يسعدني أن أعرضه أمام هذه النخبة الممتازة من الباحثين الفضلاء.

---

*) نص البحث الذي شارك به الكاتب في اللقاء العلمي في موضوع تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان بتاريخ 21 ـ 25 محرم 1402 الموافق 19 ـ 23 نونبر 1981 بالرباط.

إن حقول الدراسة المقارنة في مجال العلاقات الثقافية واللغوية والأدبية والاجتماعية الإسبانية العربية هي حقول في غاية الخصوبة والثراء. فالتأثيرات المتبادلة عبر ثمانية قرون من التعايش بين العرب والإسبان هي منجم بل مناجم متنوعة المواد نفيسة المحتوى للدراسات التاريخية والحضارية المقارنة. وفيها، من الناحية الإنسانية، كشف لحقائق مهمة من حقائق التفاعل الحضاري الإنساني، وفيها من الناحية القومية، توضيح وإبراز لجوانب فاعلة وثرة من جوانب الشخصية العربية والعبقرية الإسلامية وسبر أعماق تأثيرها الحضاري في الحضارة العالمية.

يتناول البحث عرضا لآراء بعض كبار الباحثين في مسألة تأثير قصيدة أبي البقاء الرندي (601 ـ 684 هـ = 1204 ـ 1285م) النونية الشهيرة التي رثى بها مصير الإسلام في الأندلس، في قصيدة الشاعر الإسباني الشهير خورخه مانريكه (1440 ـ 1479م) التي رثى بها والده.

ثم يتناول البحث القصيدتين بالتحليل، ثم يخلص إلى نتيجة.

آراء الباحثين الأوربيين :

لقد ترجم دون خوان فاليرا قصيدة الرندي شعرا رقيقا إلى الإسبانية عن ترجمة ألمانية قام بها البارون دي شاك، وكانت الترجمة الشعرية هذه بنفس البحر الشعري الذي نظم فيه خورخه مانريكه قصيدته في رثاء والده، وقد أشار فاليرا إلى الشبه الموجود بين كثير من التفاصيل والأفكار في هاتين القصيدتين فقال :

(إن الشبه الموجود بين كثير من التفصيلات والأفكار التي تحتويها هذه القصيدة وقصيدة خورخه مانريكه لا يمكن أن يكون، في اعتقادي، محض صدفة. وهكذا فاني أعتقد بأن خورخه مانريكه لابد أن يكون قد أطلع على قصيدة الشاعر الرندي وقلدها)[1].

في حين أن المستشرق الإسباني الكبير كو نثالث بالينثيا يري أنه (ربما كان التشابه بين القصيدتين موجودا فقط في ترجمة فاليرا الرائعة لقصيدة الرندي أكثر مما هو موجود في الأصل)[2].

وكان دون ليون كاربو نيرواي صول أستاذ اللغة العربية في جامعة اشبيلية، قد ترجم قصيدة الرندي هذه نثرا، قبل فاليرا، وأبدى عليها بعض الملاحظات يبدو منها أنه يميل إلى الاعتقاد بأن خورخه ما نريكه قلد قصيدة الرندي.[3]

بعد هذا العرض الموجز لآراء الباحثين الإسبان ماذا يقرر لنا تحليل القصيدتين ؟

أولا : تحليل قصيدة الرندي :

في الأبيات الخمسة الأولى يقرر حقيقة إنسانية واجتماعية قررها قبله الفلاسفة والكتب السماوية جميعا وهي المصير المحتم الذي يؤول إليه كل شيء في هذا الكون وهو التغيير والفناء. وهو في الشطر الأول من البيت الأول يعبر عن ظاهرة اجتماعية تاريخية حارت في تفسيرها عقول علماء الاجتماع

---

1) دي شاك : الشعر العربي في إسبانيا وصقليه. (الترجمة الإسبانية) 208/1.
2) بالينثيا : تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس ص 132 والأصل الإسباني ص 107.
3) دي شاك 208/1.

والتـاريـخ تلـك هي ظـاهرة نمـو الأمم وحضـاراتها ثم اكتمالها ثم ضمـورهـا واضمحلالهـا التـدريجي بشكل يكاد يكـون منظما يشبـه الأدوار التي يسلكهـا الإنسان الفرد في نموه البيولوجي.

وهو بعد أن يقرر هذه الحقيقة الإنسانيـة بهـذا الأسلوب القوي الـذي يتصف بالبساطة التعبيرية المحببة، يتوجه بندائـه إلى الإنسـان الفرد طـالبـا منه أن يعي هذه الحقيقة الكبرى فلا يدع للغرور إليه سبيلا.

ثم ينتقل في البيت الثاني إلى التعبير عن وجـه آخر من هـذه الحقيقـة الأزليـة الأبـديـة ذلـك هو التغير المتصـل الـذي لا يعرف الجمـود، والتحـول المتتـابع الـذي لا يـألف السكون، يعتري كل شيء ويتغلغـل في كل أمر من أمـور هـذه الحيـاة، فـلا يكاد شـأن من شؤونها يستقر على حـال، أو على الأصح لا يكاد يبدو للناظر أنه قـد استقر على حـال، حتى يـدول عنـه إلى غيره وقد يدول إلى نقيضه. والشيء الذي يتأكد في نفس المتأمل لأمور هذه الدنيا هو أن السرور فيها قليل، والحزن عليها غالب، وهـذا يعني، بطبيعـة الحال، أن الخير، في الـدنيـا، أقل من الشر، وأن على المرء أن يتوقع بعـد كل أمر يدخل على نفسه السرور، أمورا تشيع في نفسه الحزن والأسى.

وفي الأبيـات الثلاثـة التـاليـة يعبر تعبيرا مبـاشرا عن حقيقـة القضـاء المقضي به على الناس جميعا وهو الفنـاء وعـدم البقـاء، ثم يكرر المعنى الـذي عرضه في صدر البيت الثاني حول التغير الذي تتصف بـه أمور الحيـاة. وهو يحس في أعماقه بهذا القانون الزمني الدهري الـذي يبسـط سلطـانـه على كل شيء فيحيلـه إلى فنـاء ويمـزق كل مـا يحـاول الإنسـان أن يتقي بـه هـذا السلطـان القـدير الـذي يصطنـع، ليبسـط نفـوذه، كل أداة يمكن أن تبلغـه

الغاية، وهو يفرض نفوذه هذا وينزل قضاءه الذي لا مرد له على الملوك في قصورهم المنيعة وعلى عامة الناس سواء بسواء.

وفي الأبيات الثلاثة التالية وهي السادس والسابع والثامن لجأ إلى الأسلوب الإنشائي الاستفهامي بعد الأساليب الخبرية التي سلكها في الأبيات المتقدمة، والاستفهام هنا ليس حقيقيا وإنما قد خرج إلى عرض مجازي يفيد الاخبار المنفي لا الإنشاء وهو يعني به أن ملوك اليمن القدامي، على عظمتهم، لم يبق شيء منهم ولا من الأكاليل التي كانوا يزينون بها عروشهم، ولا من التيجان التي كانوا يضعونها على رؤوسهم. وأن ما بناه قدامى الملوك من الصروح والقصور وما جمعه أغنام من ذهب لم يبق له أثر، كما لم يبق أحد من الشعوب القديمة.

والسبب في هذا يوضحه في البيت التاسع وهو أن القضاء الذي لا مرد له قد أتى عليهم جميعا فأحالهم إلى لا شيء فكأنهم لم يوجدوا إطلاقا، وفي البيت العاشر بين الحال التي صار إليها أمر الملوك وما امتلكوا فهي حال الحلم الذي يحكيه الحالم كله تصورات ذهنية ليس لها واقع محسوس. وفي البيت العاشر يقرر أن مشاهير ملوك الفرس، ويقصد هنا أعاظم ملوك الأرض جميعا، لم يسلموا من غائلة الزمان.

وفي البيت الثاني عشر إشارة لطيفة إلى الصعاب التي تواجه الإنسان في الحياة فيذللها بما يبتكر من وسائل لذلك، ولكن صراع الإنسان هذا مع الصعاب، وتذليلها أمامه بما يعالجها به من أسباب، كل هذا يغدو، بعد فناء الإنسان، وكأنه لم يكن له وجود. وسليمان الذي ملك الدنيا كلها كأنه، وقد قضى، لم يكن له ذلك السلطان العريض.

وفي البيت الثالث عشر يبين أن المصائب التي تصيب الناس متنوعة في أسبابها وفي نتائجها، وأن الزمان، ومدلوله واسع هنا يشمل الحياة بمختلف مظاهرها، فيه ما يسر الناس وما يحزنهم.

وفي البيت الرابع عشر ينتقل انتقالا فنيا حسنا من ذلك السياق التقريري المفعم بالتأملات العاطفية التي لا تبحث عن العمق الفكري وإنما تبغي التعبير عن الألم الذاتي في نطاقه الإنساني العام لا مجاله الفردي الخاص ببساطة محببة وعفوية جميلة، ينتقل إلى وصف حزين مؤلم لما حل ببني قومه في جزيرة الأندلس من الرزء الذي لا سلوان له، مع أن لحوادث الحياة وأحزانها سلوانا من المسرات التي يجود بها الزمن من حين لآخر، يمكن أن يهون من وقعها على النفس، ويلطف من مرارتها في القلب.

والأبيات من الخامس عشر إلى الرابع والعشرين سرد أدبي لما أصاب جزيرة الأندلس من البلاء الذي لا عزاء له. وفيها تشخيص للجمادات من جبال ومدن ومحاريب ومنابر بإضفاء الصفات الإنسانية عليها. واستفهامات تفيد التحسر والتألم بسبب ما أصاب المدن الإسلامية من ذل، وما لحق بالإسلام فيها من إهانة. ويلاحظ أن تحسره وألمه هذا ليس لأنها مدن إسلامية سقطت بيد من يعادي الإسلام وإنما أيضا، لما تمتاز به من تقدم في العلم مثل قرطبة، ولما تشتمل عليه من جمال طبيعي يشدها إلى القلوب مثل «حمص» أي اشبيلية فالبكاء عليها بكاء على العلم والجمال الذي انخذل أمام الباطل. وهكذا تختلط في هذه الخسران المتصاعدة البواعث المادية والروحية معا.

وفي الأبيات الثلاثة التي تلي أي من الخامس والعشرين إلى السابع والعشرين تقريع يبدو أنه موجه لمن ترك بلاده في الأندلس بعد سقوطها بيد العدو ورحل إلى مدن أخرى ظهرت له بعيدة عن يد الأعداء فعاش هناك في غفلة ومرح، فالشاعر ينبه هذا الغفلان إلى أن ما حل ببلاده إنما هو مصيبة عظيمة تنسى، أو ينبغي أن تنسي ذا الروح الواعية المتحسسة، كل ما أصاب الإسلام قبلها من مصائب، وينبغي أن لا تنسى أبدا.

وفي الأبيات التالية حتى البيت الخامس والثلاثين يتوجه الشاعر إلى من بيده السلطان في شمال إفريقية، فيحثه على نجدة الأندلس، وينادي الفرسان هناك والسكان المطمئنين الوادعين، يناديهم نداء ملؤه اللوم والحث على التكاثف، باسم الدين، مع من استضعف وانتهكت حرماته من أهل الأندلس فاستغاث بأهل الشمال الإفريقي دون أن يجد مغيثا. ثم يسوق إليهم عتابا شديدا بصورة الاستفهام الإنكاري لانقطاع الصلة الروحية الإسلامية بينهم وبين من يستنجد بهم من سكان الأندلس الإسلامي، ثم يحضهم على أن يتصفوا بالأباء، أباء الظلم الذي يحيق بعقيدتهم، ويحفز هممهم لنصرة الخير وعونه.

ثم ينتقل بعد هذا حتى آخر القصيدة يعبر عن تألمه الشديد لما أصاب أهل الأندلس من ذلة بعد عز، وعبودية بعد سيادة فيهوله أمرهم وهم يساقون للبيع بيع النخاسة. ثم يرسم صورتين من صور المأساة تلك تغلب عليها النزعة الإنسانية أكثر من النزعة الدينية وهما : صورة الأم التي ينتزع منها طفلها ليباع كل على انفراد فيصور هذا الانتزاع في هوله وشدته ومرارته وكأنه انتزاع للروح من الجسد.

والصورة الثانية هي تلك الفتاة الحسناء المشرقة الحسن فكأنها ياقوت يشع ومرجان يروع يسوقها من أصبحت حصته من غنيمة الحرب راغمة مكرهة وليس في مستطاعها إلا أن تبكي عينها ويحار قلبها.

ثم يختتم تصويره للمأساة بحث جديد للقلوب المؤمنة المسلمة على التعاطف والنجدة.

ومن هذا التحليل لقصيدة الرندي تبرز لنا الأفكار الرئيسية التي تعبر عنها القصيدة كما يلي :

الفكرة الأولى هي فكرة الفناء الذي يحيق بكل شيء في هذه الدنيا التي تتصف باحتوائها على المسرات القليلة والأحزان الكثيرة. وهذه الفكرة ينتهي التعبير عنها في البيت الثالث عشر. وطابعها إنساني شامل يبكي مصير النوع الإنساني كله بعد التأمل فيه، ويتخذ من هذه الحقيقة التي تتقرر بالتأمل مبررا لترك الغرور الدنيوي ولفهم الحياة فهما واقعيا.

الفكرة الثانية تعبير عن الألم القومي، ورابطة القوم هنا عقائدية روحية لا نسبية عنصرية. والتعبير عنها ينتهي بالبيت الرابع والعشرين.

الفكرة الثالثة تتفرع من الثانية وهي لوم وتقريع لمن غفل من القوم عن الاهتمام بمصالحهم العامة، ولمن لم يقدر المصيبة التي حلت بهم قدرها الحقيقي.

الفكرة الرابعة حض ولوم لمن بقي له سلطان من القوم خارج الجزيرة ولم يعمل على نجدة إخوانه فيها وتنتهي هذه الفكرة بالبيت الخامس والثلاثين.

ثم الفكرة الختامية وفيها تختلط المشاعر القومية والإنسانية معا في محاولة لا ثارة النخوة القومية والاباء الإنساني. والعناصر الإنسانية في هذه الفكرة هي الغالبة إذ ليس للعنصر القومي فيها إلا عبارات ثلاث هي قوله في عجز البيتين السادس والثلاثين والسابع والثلاثين «أحال حالهم كفر وطغيان» و«اليوم هم في بلاد الكفر عبدان» وذكره كلمة «طغيان» في العبارة الأولى يقلل العنصر القومي فيها إلى النصف. ثم عجز البيت الأخير. أما العنصر الإنساني فيتمثل في إبراز ذلة القوم بعد عز، وخضوعهم بعد سلطانهم، وحيرتهم ومعاناتهم للذل وبكاءهم، وهم الأعزة، عند بيعهم كما يباع المتاع، ثم رسمه لهاتين الصورتين الإنسانيتين المعبرتين عن آلام إنسانية قبل تعبير هما عن مأساة قومية : صورة الأم التي حيل بينها وبين طفلتها، وصورة الحسناء التي تقاد إلى المكروه ذليلة ضائعة فكأنها بمض السوام.

تحليل قصيدة ما نريكه :

تتألف هذه المرثاة من أربعين مقطوعة (coplas) المقطوعات الخمس عشرة الأولى تأملات فلسفية حول الحياة والموت. وهو يلاحظ أن السرور، في الدنيا هذه، سريع الزوال، وأن الزمن الحاضر لا يلبث أن يصير ماضيا لا يمكن إرجاعه، فلذلك يرى أن من الحصافة أن نعتبر المستقبل ماضيا أيضا، لأن كلا من الزمنين سيؤول سريعا إلى زوال وإلى ماض منته. فلا ينبغي، إذن، أن ينخدع أحد بالمستقبل فيظن أن ما يأمله من المستقبل سوف يكتب له الدوام. إن المستقبل لا يمكن أن يدوم قياسا على أن الحاضر والماضي. لم يدم منهما شيء. سنة الحياة التي لا تبديل فيها. وقضاء يجب أن يمضي على هذه الصورة.

وحياة البشر ما هي إلا انهار لابد لها من أن تصب في بحر الموت. وهناك يتساوى الجميع.

وفي غمرة التأملات هذه يحس الشاعر أن لابد له من أن يتوكل على قوة إلهية منقذة، فيعلن أن توكله وتوسله مقصوران على ذلك السيد الذي عاش في الدنيا دون أن يعرف أحد له قدره وجلاله، يعني السيد المسيح.

إن الدنيا ما هي إلا طريق نسلكه إلى عالم آخر ليس فيه من أحزان. وأن الناس لتسرع بالسفر إلى العالم الآخر ذاك منذ اللحظة الأولى لولادتهم وعندما يصلون، في نهاية الرحلة هذه، إلى الهدف : الموت، فإنما هم يصلون إلى الراحة التامة.

هذه الدنيا ليست إلا وسيلة نكسب عن طريقها الأخرى، فلو سلكت فيها كما يجب، لكانت طيبة لنا.

وهذا العالم غادر ماكر، وكل ما فيه تافه لا قيمة له، ومع هذا كله فإن الناس يتنافسون على توافه أشيائه، ويعانون من جراء ذلك شقاء وبؤسا عظيمين، حتى أن سراة القوم وصفوتهم يضعفون أمام هذه التوافه التي تغريهم بها الحياة.

وماذا عن هذا الجمال الرائع الباهر الذي يتصف به بعض الناس من نعومة بشرة ونصاعة بياض يزينه احمرار جميل ؟ عندما تقبل عليه الشيخوخة فماذا تبقي منه ؟ وهذا النشاط النشيط والحذق الحاذق والحركة الخفيفةالرشيقة والقوة الجسدية القوية التي يتمتع بها الشباب، كل هذا لا

يلبث أن يصير إلى ضده حينما تقارب الشيخوخة شرفاء الناس لا يلبثون حتى يفقدوا عظمتهم في هذه الحياة، فتؤول حالهم إلى انحطاط في أعين الناس، وانكسار شديد، يدفعانهم إلى أن يقيموا أودهم عن طريق مهن لا تليق.

الثروة والمكانة الاجتماعية يتعبان الناس ويضيقان عليهم. فلا ينبغي أن نطلب منها البقاء الدائم ذلك لأنها مشدودان إلى عجلات عربة الحظ المسرعة يدوران معها كيفما تدور فلا قرار لها على حال دائم.

وحتى لو رافقت مغريات الحياة هذا صاحبها إلى القبر، فماذا يجديه منها ؟ إن الحياة ماضية كالحلم، مسراتها موقتة زائلة أما العذاب الذي تورثنا إياه في الآخرة فخالد أبدا.

متع هذه الحياة عابرة والموت هو الشيء الحقيقي فيها، وحينما نتبين أننا مخدوعون بها، لا نجد للتراجع مجالا.

جمال الجسم فان وجمال النفس خالد، ولو كنا نملك، عن طريق العناية، أن نصير ما ليس بجميل جميلا، لا نصرفت عنايتنا إلى جمال الجسم الفاني، ولا هملنا جمال النفس الخالد.

لقد مضى أولئك الملوك ذووا السلطان الواسع والجاه العريض ولم يبق منهم إلا ذكر باهت في كتابات الغابرين. ذلك لأنه ليس من شيء قوي في هذه الدنيا. وأن الموت ليسلك مع الأباطرة والبابوات نفس السلوك الذي يسلكه مع فقراء الرعاة.

إلى هنا ينتهي هذا السياق الإخباري من التأملات الفلسفية في الحياة والموت. وينتقل بعده إلى أسلوب جديد كل الجدة على الأدب الإسباني، لم

يعرف له وجود إلا في هذه القصيدة المانريكية ذلك هو الأسلوب الإنشائي الذي يسلك سبيل الاستفهام للتعبير عما يشعر به من مرارة يسببها الوعي العميق بمصير الإنسان المحتوم. ويسوق سلسلة من الاستفهامات، يؤكد، مضمونها، على المصير المحقق الذي ينتهي إليه جميع من في هذه الحياة وجميع ما فيها التغير والفناء.

وتنتهي هذه السلسلة من الاستفهامات بنهاية المقطوعة الرابعة والعشرين وكانت كلها تمهيدا يهون على النفس هول الفاجعة بتقريره أن كل شيء وكل أحد، في الدنيا، فان، وأن البقاء في هذه الحياة، مهما طال أمده ما هو إلا كالفترة الزمنية التي تتلألأ فيها قطرات الندى فلا تلبث أن تتبدد عند أول إشراقة شمس.

وفي المقطوعات الخامسة والعشرين حتى الثالثة والثلاثين يأتي رثاؤه لوالده على الشكل المعروف في الرثاء عامة وفي الرثاء في الأدب العربي خاصة : وهو عبارة عن إطراء ومديح للمرثي بصيغة الماضي، يبين فضائله من تقوى وبسالة وإخلاص للأصدقاء وعطف على الأقرباء وصلابة مع الأعداء وفظاظة مع اللؤماء. وما كان يتصف به من حلم ووقار وطيبة وسخاء وشدة ووفاء وبلاغة وطيب سلوك، وثبات ونشاط وإيمان وحب للوطن. وهو يشبهه، في هذا كله، بابطال من التاريخ عرفوا بهذه الصفات وصاروا مضرب المثل فيها.

وليس فخره بما خلف من كنوز عظيمة أو بما حصل عليه من ثروات طائلة، أو بما اقتنى من أوان وتحف، فلم يكن له من هذا شيء، ولكن فخره الحقيقي إنما يأتيه من شنه الحرب على العرب وما استطاع أن يحصل عليه،

نتيجة هذه الحرب، من جزية وخراج. ويأتيه الفخر كذلك من مخاطرته بحياته، من أجل القانون، ومن أجل أن يقدم خدمة ممتازة لملكه.

وفي المقطوعات التالية حتى الثامنة والثلاثين حوار رائع بين الموت وبين والده، يبين الموت فيه أن الدنيا مخادعة وأن فيها نوعين من الحيوات :

الحياة التي يشترك فيها البشر جميعا وهي حياة قصيرة ليست بذات خطر، وحياة الشهرة والمجد، وهي، وإن لم تكن خالدة ولا حقيقية ولكنها أفضل من الحياة المؤقتة الفانية.

وإلى جانب هاتين الحياتين الدنيويتين هناك حياة الآخرة وهي الباقية الخالدة أبدا. ولقد كسب دون رود ريكو مانريكه هاتين الحياتين الأخيرتين فما عليه إلا أن يواجه الموت بثقة تامة وإيمان كامل وأمل لذيذ. وبعد حديث الموت هذا إليه يستسلم بسرور لإرادة الله.

وفي المقطوعة التاسعة والثلاثين يتوجه إلى السيد المسيح بصلاة مستعطفة يطلب فيها الرحمة والغفران.

ويختم خورخه مانريكه قصيدته بالمقطوعة الأربعين مبينا إدراك والده العميق لحكمة الموت الإلهية، ومعزيا نفسه وأهله بما خلف لهم من ذكراه الطيبة.

العناصر المشتركة بين القصيدتين :

يتبين لنا من تحليلنا للقصيدتين أن هناك مجموعة كبيرة من العناصر الفكرية والأسلوبية المشتركة بينها، ويمكننا أن نلخص هذه العناصر بما يأتي :

1 ـ فكرة التغير والفناء والزوال واغراء الحياة للناس :

وهي فكرة تعبر عنها الأبيات الخمسة الأولى من قصيدة الرندي ثم تؤكدها وتقررها الأبيات التالية لها من السادس إلى الثاني عشر.

ويقابلها في قصيدة مانريكه مضمون المقطوعات الخمس عشرة الأولى وهو مضمون مطابق تماما لمضمون أبيات الرندي، ويؤكدها في المقطوعة الرابعة والثلاثين (دع الدنيا الخادعة ومداهنتها).

2 ـ فكرة التساوي بالموت وأن الحياة حلم :

وتعبر عن هذه الفكرة الأبيات من العاشر إلى الثاني عشر. ويقابلها في قصيدة مانريكه مضمون المقطوعات الحادية عشرة والثانية عشرة والرابعة عشرة. (إن الحياة ماضية كالحلم، ومسراتها موقتة زائلة...). (إن حيواتنا هي الأنهار التي تجري لتصب في البحر الذي هو الموت).

3 ـ أسلوب إنشائي (أسلوب أين الأولى) يعبر عن فكرة التأسي أمام حقيقة التغير والفناء الذي هو مصير الجميع :

يستغرق هذا التعبير الأبيات من السادس إلى التاسع عشر (أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان ؟) وهو أسلوب معروف في الأدب العربي.

أما في الأدب الإسباني والأوربي فهو فريد من نوعه برز أول ما برز في قصيدة خورخه مانريكه هذه، إذ يتجلى في المقطوعة السادسة عشرة

بقوله (إلى أي شيء صار الملك دون خوان) ويستمر إلى المقطوعة الرابعة والعشرين.

■ - **الأفكار الدينية العامة : وهي ظاهرة في القصيدتين معا.**

العناصر المختلفة بينهما :

1 - إن قصيدة الرندي مرثاة قومية رثى فيها قومه من خلال رثائه مدنهم، فهي ذات صبغة قومية عقائدية جماعية تتخللها مضامين إنسانية رائعة.

أما قصيدة مانريكه فهي مرثاة فردية في أساسها تتخللها بعض المضامين القومية والإنسانية من خلال التأملات الفلسفية.

2 - العنصر الإنساني في قصيدة الرندي أظهر من العنصر القومي وأبعد عن الفردية.

وفي قصيدة مانريكه يبدو العنصر الفردي، من خلال رثائه لوالده، هو الا ظهر.

الخلاصة :

إن البحث لا يستطيع أن يحدد طرق انتقال هذه الأفكار من الرندي إلى مانريكه ولا أن يؤكد حصول ذلك تاريخيا، لأن الوثائق التي تثبت ذلك تنقصنا، ولكن يكفي أن نعين نقاط التلاقي الدقيقة بين القصيدتين والتي لا تكاد تدع مجالا للشك في تأثر الثانية منها بالأولى. وهذه هي

الخطوة الأولى الضرورية لقيام دراسة نقدية مقارنة تكمل هذا البحث بأن تستقصي سبل هذا التأثر والتأثير وتحدد وسائلها، أن تيسر لها من الوثائق ما يعين على ذلك.

1 ـ لكل شيء إذا ما تم نقصان | فلا يغر بطيب العيش إنسان
2 ـ هي الأمور كما شاهدتها دول | من سره زمن ساءته أزمان
3 ـ وهذه الدار لا تبقي على أحد | ولا يدوم على حال لها شأن
4 ـ يمزق الدهر حتما كل سابغة | إذا نبت مشرفيات وخرصان
5 ـ وينتضي كل سيف للفناء ولو | كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
6 ـ أين الملوك ذوو التيجان من يمن | وأين منهم أكاليل وتيجان
7 ـ وأين ما شاده شداد في ارم | وأين ما ساسه في الفرس ساسان
8 ـ وأين ما حازه قارون من ذهب | وأين عاد وشداد وقحطان
9 ـ أتى على الكل أمر لا مرد له | حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
10 ـ وصار ما كان من ملك ومن ملك | كما حكى عن خيال الطيف وسنان
11 ـ دار الزمان على دارا وقاتله | وأم كسرى فما آواه إيوان
12 ـ كأنما الصعب لم يسهل له سبب | يوما ولا ملك الدنيا سليمان
13 ـ فجائع الدهر أنواع منوعة | وللزمان مسرات وأحزان
14 ـ وللحوادث سلوان يهونها | وما لما حل بالإسلام سلوان
15 ـ دهى الجزيرة أمر لا عزاء له | هوى له أحد وانهد ثهلان
16 ـ أصابها العين في الإسلام فارتزئت | حتى خلت منه أقطار وبلدان
17 ـ فاسأل بلنسية ما شأن مرسية | وأين شاطبة أم أين جيان
18 ـ وأين قرطبة دار العلوم فكم | من عالم قد سما فيها له شأن
19 ـ وأين حمص وما تحويه من نزه | ونهرها العذب فياض وملآن
20 ـ قواعد كن أركان البلاد فما | عسى البقاء إذا لم تبق أركان
21 ـ تبكي الحنيفية البيضاء من أسف | كما بكى لفراق الألف هيمان
22 ـ على ديار من الإسلام خالية | قد أسلمت ولها بالكفر عمران
23 ـ حيث المساجد قد صارت كنائس ما | فيهن إلا نواقيس وصلبان
24 ـ حتى المحاريب تبكي وهي جامدة | حتى المنابر ترثي وهي عيدان
25 ـ يا غافلا وله في الدهر موعظة | إن كنت في سنة فالدهر يقظان
26 ـ وماشيا مرحا يلهيه موطنه | أبعد حمص تغر المرء أوطان

27 ـ تلك المصيبة أنست ما تقدمها — وما لها مع طول الدهر نسيان
28 ـ يا أيها الملك البيضاء رايته — أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
29 ـ يا راكبين عتاق الخيل ضامرة — كأنها في مجال السبق عقبان
30 ـ وحاملين سيوف الهند مرهفة — كأنها في ظلام النقع نيران
31 ـ وراتعين وراء البحر في دعة — لهم بأوطانهم عز وسلطان
32 ـ أعندكم نبأ من أهل أندلس — فقد سرى بحديث القوم ركبان
33 ـ كم يستغيث بنو المستضعفين وهم — أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
34 ـ ماذا التقاطع في الإسلام بينكم — وأنتم يا عباد الله إخوان
35 ـ ألا نفوس أبيات لها هم — أما على الخير أنصار وأعوان
36 ـ يا من لذلة قوم بعد عزهم — أحال حالهم كفر وطغيان
37 ـ بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم — واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
38 ـ فلو تراهم حيارى لا دليل لهم — عليهم من ثياب الذل ألوان
39 ـ ولو رأيت بكاهم عند بيعهم — لهالك الأمر واستهوتك أحزان
40 ـ يا رب أم وطفل حيل بينهما — كما تفرق أرواح وأبدان
41 ـ وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت — كأنما هي ياقوت ومرجان
42 ـ يقودها العلج للمكروه مكرهة — والعين باكية والقلب حيران
43 ـ لمثل هذا يذوب القلب من كمد — إن كان في القلب إسلام وإيمان

خورخه مانريكه 1440 ـ 1479م

قصيدة في رثاء والده

خورخه مانريكه

ترجمة الدكتور حكمة الأوسي

1

نبه النفس النائمة،

وأيقظ العقل واشع فيه النشاط،

متأملا،

كيف تمضي الحياة،
وكيف يأتي الموت،
صامتا،
تأمل السرور كم هو خفيف الحركة في ذهابه،
وكيف أنه يؤلمنا عندما نتذكر ساعاته،
وكيف أن أي وقت مضى يبدو لنا أنه كان أفضل من الحاضر،

2

لو نظرنا إلى الحاضر وكيف أنه، وفي لحظة، يصير ماضيا ومنتهيا،
ولو حكمنا على الأمور بحصافة، لاعتبرنا ما في ضمير الغيب ماضيا،
لا ينخدعنّ أحد، أبدا، ولا يظنن أن ما يأمله سوف يدوم، فإن ما رآه لم يدم، ذلك لأن كل شيء يجب أن يمضي على هذه الشاكلة.

3

إن حيواتنا هي الأنهار التي تجرى لتصب في البحر الذي هو الموت.
إلى هناك يذهب السادة المحترمون، مباشرة، لكي يفنوا وينتهوا.
هنالك تكون الأنهار الكبيرة والمتوسطة والصغيرة كلها سواء،
والذين يعيشون بسواعدهم مثل الأغنياء سواء بسواء،

4

إنني لأدع جانبا توسلات مشاهير الشعراء والخطباء،
فلست مهتما لتخيلاتهم التي تجلب معها أعشابا سرية الطعم،
لا أتوكل إلا على ذاك وحده، ولا أتوسل حقيقة إلا إليه،
ذلك الذي كان يعيش في هذه الدنيا دون أن يعرف أحد جلالة قدره،

5

إن هـذا العـالم طريق إلى العـالم الآخر الـذي هو منزل ليس فيـه من أحزان،

على أنه علينا أن يكون سلوكنا حكيما لكي نجتاز هذا الطريق بـدون خطأ،

إننا لنشرع بالسفر إلى الحياة الأخرى منذ اللحظة التي نولد فيها،

ونظل نغذ السير إليها، في أثناء حيـاتنـا، حتى نصل إلى الزمن الـذي ينتهي أجلنا فيه،

وهكذا فإننا عندما نموت، إنما نحن نستريح،

6

هذه الدنيا كانت تكون طيبة، لو أننا سلكنا فيها كما يجب،

لأنها، على ما نعتقد، وسيلة لكسب الأخرى التي عنها نبحث،

7

انظروا كم هي تافهة تلك الأشياء التي نمشي وراءها ونركض،

فإننا لا زلنا، في هذا العالم الغادر، نفقدها في اللحظة التي نموت فيها،

يبلينـا الزمن بسبب ركضنـا وراءهـا، وتعترينـا حـالات من الشقـاء والبؤس،

ويضعف علية القوم أمام الصفات التي تبهرنا بها تلك الأشياء،

8

خبروني : عن جمال الوجه اللطيف ذي الخد الأسيل والبشرة الناعمة،

والبياض الناصع، والاحمرار الجميل،

حينما تأتي الشيخوخة ماذا يبقى من هذا كله،

الحذق والنشاط وخفة الحركة والقوة الجسمية التي يتمتع بها الشباب،
كل هـذا لا يلبث أن يستحيـل إلى حركـة متثـاقلـة ومظهر جـدي،
عندما نصل إلى ضواحي الهرم والشيخوخة،

9

دم «الغوط» ونسبهم وشرفهم المؤثلان،
بكم من الطرق والأساليب يفقد عظمته في هذه الحياة،

ما أشد انحطاط بعضهم، في أعين الناس،
وما أشد انكسار أنفسهم لقلة من يحميهم،
والبعض الآخر، لضيق ذات يده،
يقيم أوده،
عن طريق مهن غير لائقة،

10

المنزلة الاجتماعية والثروة تتركاننا في ضيق وتعب،
ومن يشك في ذلك ؟
فلا تطلب منها البقاء، لأنها ملك لعربة الحظ الدائمة الانتقال،
يدوران مع عجلاتها المسرعة كيفما تدور،
فلا يقر لها قرار،
ولا هي على حال تدوم،

11

على أنني أقول : لترافق هذه الأشياء صاحبها ولتصل معه إلى القبر،
فهل يجدى هذا شيئا ؟
لذلك لا ينبغي أن نخدع أبدا، فإن الحياة تمضي مسرعة كالحلم،

والمسرات التي نسر بها، هنا، مؤقتة زائلة،
أما العذاب الذي ننتظره «هناك» بسببها فخلد.

12

اللذات والمتع التي لنا في هذه الحياة المتعبة،
ليست إلا أمورا عابرة،
أما الموت فهو الكمين الذي نقع فيه،
وبدون أن نفكر فيما سيلحقنا من أذى، نركض مطلقي العنان، بلا توقف،
وحينما نتبين أننا مخدوعون، ونريد أن نرجع عن غينا،
لا نجد مجالا لذلك،

13

لو كان في مقدورنا أن نصير الوجه جميلا،
كما في مقدورنا أن نجعل النفس ماجدة ملاكا،
أي نشاط حي كان يكون لنا، كل ساعة،
في العناية بالجمال الفاني : جمال الجسم،
مهملين الجمال الخالد : جمال النفس ؟.

14

أولئك الملوك ذوو السلطان العريض، الذين نراهم خلال الكتابات الغابرة،
بسبب أحداث مؤلمة مبكية انقلبت سعادتهم الطيبة إلى بلاهة وسقم،
وهكذا فليس من شيء قوي، وأن الموت ليتعامل مع البابوات والأساقفة والأباطرة،

تماما كما يتعامل مع فقراء رعاة الماشية،

15

لندع الطروادبين، فلسنا نرى مساوئهم ولا أمجادهم،

لندع الرومانيين، ولو أننا نسمع ونقرأ أخبارهم،

إننا لا نشفى من الشوق لمعرفة ما حدث في القرن الماضي وما كان من أمره،

لندع ذلك كله ولنأت إلى ما في الأمس،

فإنه منسي أيضا،

مثل ذاك،

16

إلى أي شيء صار الملك دون خوان ؟[4]

أمراء أركَون إلى أي شيء استحالوا ؟[5]

ماذا عن الندماء وعن إبداعاتهم الكثيرة التي ابتدعوا في التسرية عن الملوك ؟

هل كانوا إلا لهوا عابثا وتزجية للوقت ؟

هل كانوا إلا خضروات العصور ؟

هل كانوا إلا مباراة في مبارزة ؟

هل كانوا إلا حلية وزينة ؟

---

4) هو الملك دون خوان الثاني، ملك كاستيليا (1406 ـ 1454م).

5) أمراء أركَون هم : دون هنري ودون خوان ودون بيدرو، أولاد الملك دون فرنانادو الأول، الذي كان ملكا على مملكة (أركَون)، بين سنتي 1412 و1416م.

17

إلى أي شيء استحالت السيدات المحترمات بهندامهن وملابسهن وعطورهن ؟

إلى أي شيء استحالت ألسنة نيران المحبين المتأججة ؟

إلى أي شيء استحال ذلك الشعر الذي كانوا به يتغنون وتلك الموسيقى التي كانوا يعزفون ؟

إلى ماذا استحال ذلك الرقص الجميل، وتلك الملابس المموهة بالمعادن البراقة التي كانت تلبسها الراقصات ؟

18

والآخر، وريثه دون هنري[6]، أي سلطان كان له !

كم كان الدهر لينا معه، متملقا له بمسراته !

ولكنك ترى الآن كيف أظهر له ضد ما كان قد أراه : عداء شديدا وقسوة فظة،

فما أقل ما دامت له تلك الأشياء التي أعطاه إياها حينما كان له صديقا،

19

الهبات السنية المغرقة في الافراط،

والقصور الملكية الضخمة الممتلئة ذهبا،

والأدوات المصقولة لموائد الطعام،

الجوهرات والعملات الذهبية،

---

6) هو هنري الرابع ملك (كاستيليا) 1454 ـ 1474م) وابن الملك خوان الثاني.

الأفراس المطهمة وما عليها من زينة رائعة،
أين نستطيع أن نراها ؟
وهل كانت إلا قطرات من ندى الحقول ؟

20

وأُخوه، السليم الطويه[7]، الذي جعلوه،
وليا لعهده، في أثناء حياته، ما كان أروع بلاطه !
وكأين من السادة العظماء تبعه !
ولكن، وإذ كان فانيا، فقد وضعه الموت في مصهره،
إيه، ايتها الحكة السماوية، لقد سكبت الماء عندما كانت النار أشد ما تكون إتقادا،

21

إن ذلك الضابط العظيم[8]، رئيس كوكبة من الفرسان،
الذي عرفناه عن كثب، لا يجازى بأن يتحدث عنه،
ولكننا إنما نبين فقط كيف رأيناه مذبوحا،
كنوزه التي لا تنفد، وقراه التي لا تعدد،

---

7) هو دون الفونسو أخو هنري الرابع، توجه أعداء هذا الأخير ملكا، ولكنه مات بعد تتويجه بقليل، وكان عمره أربع عشرة سنة، وذلك في سنة 1468م.
وعائلة مانريكه كانت من بين المؤيدين له.

8) هو دون آلفارودي لونا، من مشاهير المقربين للملك خوان الثاني، ضرب رأسه في مدينة، فاليا دوليد، في سنة 1453م.
وكلمة «ضابط» هنا ترجمة للكلمة الإسبانية كونديستابل Condestable وكان يراد بها رتبة عسكرية معينة هي رئاسة الميليشا، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى لقب شرفي في كل من مملكة أركون ونافارا ونابولي.

إقطاعياته الشاسعة، وسلطاته الواسعة،

هل كانت لـه إلا دوافـع للبكاء، وهـل كانت، وقـد خلفهـا وراءه، إلا أسبابا في زيادة آلامه ؟

22

وشقيقاه الآخران،[9] اللذان كانا رئيسين لكوكبتين من الفرسـان أيضـا، وذوي سطوة وثراء كالملوك، واللذان أخضعا أوساط الناس،

وعظماءهم إلى قوانينهما،
ذلك الفوز الباهر الذي مجد لهما وعظم،
هل كان إلا سناء أطفيء وهو أشد ما يكون إشراقا ؟

23

كثرة كهذه من ((الدوقات)) المعظمين، وكثرة كهذه من ((الماركيزات)) و((الكوندات)) والسادة المبجلين ذوي السلطان الواسع والجـاه العريض، قل، أيها الموت، أين تخبئهم وتخفيهم ؟

ومآثرهم الناصعة التي قاموا بها في أوقات الحرب وأزمنـة السلام، أتيت عليها، أيها الموت، فجاء، مميزا غيظا، فاذعرتها بقوتك الفاشمة، وبددتها،

---

9) هما المايستري دي سانتيـاكو ودون خولان دي بـاجيكو. (المايـستري) هو لقب عسكري كان يطلق على رئيس أية منظمة عسكرية.
وقال ((الآخران)) لأنـه سبق لـه أن ذكر أمراء أركون الثلاثـة (المقطوعـة 16) وهنري الرابـع (المقطوعة 18) وأخاه الأمير الفونسو (المقطوعة 20).

24

العـدد الـذي لا يحصى من الجيـوش، والرايـات والاعـلام والبيـارق، الحصـون المنيـة والأسـوار، الابراج المرتفعـة والحـواجـز، الخنـادق العميقـة والموانع، أو أية عقبة أخرى كأداء،

كل هذا ماذا يجدى ؟

فإنك إذا ما أتيت هائجا، تخترقه كله بسهمك النافذ.

25

إن ذلك الذي كان ملجأ رحيا للناس، ومحبوبـا بينهم لتقواه، هو دون رودريكو مانريكه الشهير الباسل، ورئيس كوكبة من فرسان،

أعمالـه البطوليـة الحيـة لا يوفي حقهـا الثنـاء، ولست بمريـد أن أسبغ عليها من الصفات ما يجعلها نادرة المثال،

ذلك لأن العالم أجمع يعرف ماذا كانت.

26

أي صديق لأصدقائه، وأي سيد لخدمه وأقربائه !

أي عدو للأعداء، وأدى أستاذ للبواسل والأقوياء،

أي عقل للعقلاء ! وأية ظرافة للظرفاء !

وأية حصافة !

أي شفيق على الأسراء ! وأي هزبر مع الأفظاظ واللؤماء !

27

في حب الخاطرة كان اكتافيوس،

وجوليوس قيصر في المعارك،

في الفضيلة كان افريانو،
وهانيبال في المعرفة والعمل،
في الطيبة تراخانو،
تيتو في السخاء الممتزج بالسرور،
في شدة ذراعة آوريليانو،
وماركو آتيليو في الوعود التي كان يلتزم بها،

28

انتونيو پيو في الحلم،
وماركو آرپليو في وقار المحيا،
أدريانو في البلاغة،
وتيودوسيو في الإنسانية وطيب السلوك،
آوريليو آليخاندرو كان في الثبات على المبدأ وفي النشاط الحربي،
وكوتستا نيتنو في الإيمان،
وكاميلو في حبه المظيم لتربة وطنه،

29

لم يخلف كنوزا عظيمة،
ولا حصل على ثروات طائلة،
ولم تكن له أواني تحفية،
ولكنه شن الحرب على العرب،
مستوليا على حصونهم وقصورهم،
كم من العرب ومن الخيل فقدوا في المعارك التي تغلب فيها !
وفي مهنته هذه غنم ما أدوه له من جزية وخراج.

30

كيف استطاع أن يدبر أمره في الحفاظ على شرفه والدفاع عن مكانته، في تلك الظروف القاسية التي مرت به ؟

حينما تخلى عنه الملوك، واصل الكفاح بمساعدة إخوانه وخدمه،

وبعد أن انجز أعمالا مشهورة في نفس هذه الحرب التي كان يخوضها،

توصل إلى معاهدات مشرقة أضافت إلى أرضه مساحات أكثر مما كانت له،

31

أخباره القديمة هذه،

التي رسمها بذراعه، إبان شبابه،

جددها بانتصارات أخرى جديدة حققها في شيخوخته،

بمهارته الفائقة،

وفضائله الجمة وشيخوخته الخبيرة،

استحق وسام الشرف الرفيع ((مدالية الفروسية واستعمال السيف)).

32

مساكنه وأراضيه وجدها محتلة من قبل الظالمين،

ولكنه، بالحصار والحرب وبقوة يديه، استردها،

أما إذا كان ملكنا الطبيعي قد انتفع بالأعمال الجبارة التي انجزها أم لم ينتفع،

فليقل ذلك ملك البرتغال والمؤيدون له في كاستيليا،

33

بعد أن خاطر بحياته، هذه المرات العديدة، من أجل القانون،

بعد أن خدم تاج ملكه الحقيقي خدمة ممتازة،

بعد تلك المآثر الكثيرة التي لا يمكن أن يحيط بها عد،
إلى مسكنه الذي في ((أو كانيا)).
أتى الموت ليطرق بابه.

34

قال له الموت : ((أيها السيد الطيب، دع الدنيا الخادعة ومداهنتها وليظهر قلبك الفولاذي شجاعته المشهورة، في هذا الرزء.
إنك، من أجل المجد، لم تحسب كثير حساب لحياتك ولا لصحتك،
فاجتهد، إذن، أن تتمسك بالفضيلة، لكي تكابد الإساءة هذه التي تناديك،

35

المعركة المخيفة التي تنتظرك،
لا تجعلها مرة بهذا المقدار،
فإن لك حياة أخرى أطول،
حياة من الشهرة الماجدة ستخلفها هنا،
((ومع أن حياة الشرف هذه ليست بخالدة ولا حقيقية،
ولكنها، مع ذلك كله، أفضل بكثير من الحياة الأخرى المؤقتة الفانية)).

36

((إن العيش الخلد لا يدرك بظروف دنيوية،
ولا بحياة المتعة والسرور، حيث تستكن ذنوب جهنمية،
ولكن المتدينين الطيبين يكسبونه بالصلوات وبالبكاء،

ومشاهير الفرسان يكسبونه بأعمالهم وبما يقاسونه
من العذاب في حربهم ضد العرب)).

37

((وأنت، أيها السيد الطاهر، قد أسلت الكثير
من دماء الكفار،
فانتظر الجزاء الذي حصلت عليه،
في هذه الدنيا، بيديك،
وبهذه الثقة، وبالإيمان الكامل،
الذي لديك،
أمضي بأمل لذيذ، فإن هذه الحياة الثالثة ستكسبها أيضا)).

(رئيس كوكبة الفرسان يجيب)

38

لم يبق لنا من وقت ننفقه في هذه الحياة التعيسة،
وأن إرادتي لمتفقة مع الإرادة السماوية في كل شيء،
إنني لأومن بموتي بإرادة مسرورة، واضحة ونقية،
فإن إرادة الإنسان أن يحي،
حينما يريده الله أن يموت،
ضرب من الجنون،

(صـــلاة)

39

يا أنت الذي بسبب شرورنا،
اتخذت شكلا متواضعا،

وتسميت باسم،
أنت الذي ضممت إلى صفاتك السماوية صفات الإنسان السافلة،
أنت الذي تعرضت للمواصف الموجاء فكابدتها، دون أن تبدى لها مقاومة،
ليس بسبب استحقاقي، بل برحمتك وحدها اغفر لي)).

النهاية

40

هكذا، وبمثل هذا الادراك العميق،
وتلك المشاعر الإنسانية الطيبة،
قريبا من زوجته وأولاده،
من إخوته وخدمه،
أسلم الروح إلى من كان قد أعطاه إياها،
فجعلها في جنته السماوية،
وإن يكن قد فقد حياته،
فلقد خلف لنا من ذكراه،
عزاء كافيا.

د. حكمة علي الأوسي

مَصَادر تاريخ زاوية أبي الجَعد
(الزاوية الشرقاوية)

أحمد بوكاري

مدخل :

تستهدف هذه الدراسة التعريف بتاريخ زاوية من أهم الزوايا المغربية،(*) ومن خلالها الإطلالة على تاريخ منطقة من مناطق المغرب الحيوية؛ ونعني بها منطقة تادلا بسبب التأثيرات المتبادلة بين هاته المؤسسة الدينية ومجتمعها القريب منها. علما بأن نفوذ هاته الزاوية تجاوز تادلا إلى مناطق أوسع؛ كما هو ماثل إلى الآن في مختلف مظاهر الولاء الروحي لقبائل شتى مثل الشاوية ودكالة وبعض مناطق بلاد الغرب[1].

---

*) يوجد كتاب «الزاوية الشرقاوية» الآن تحت الطبع وهو في الأصل بحث لنيل دكتوراة السلك الثالث شعبة التاريخ تحت عنوان : زاوية أبي الجعد أو الزاوية الشرقاوية.

1) خصصت الباب الرابع للحديث عن علاقة الزاوية بمجالها القبلي سواء تعلق الأمر بتادلا أو الشاوية أو دكالة ومناطق أخرى...

قد يكون من العبث الاستعانة بالكتابة التاريخية الاستعمارية... إلا أنه وجب التساؤل عن سكوت هاته الكتابات عن الخوض في تاريخ زاوية في مستوى وأهمية الزاوية الشرقاوية.. خاصة وأنهم أولوا أهمية قصوى لزوايا أقل أهمية[2].

وإذا كان من الواجب الإشارة إلى ما كتبه ل.بروڤنصال.[3] فإن هذا فقط من أجل توضيح بعض الأخطاء التي وقع فيها؛ بسبب اعتماده على بعض التقارير التي كتبها موظفو الإدارة الاستعمارية عن الزاوية في إطار مهامهم التي كلفوا بها هنالك[4].

...بيد أن حظ الزاوية من الاهتمام في وقتنا الحاضر أحسن من مطلع القرن الحالي؛ ذلك أن حركة الاستشراق الحديثة وجدت في الزاوية ومجتمعها مجالا خصبا للاستثمار نظرياتها وأطروحاتها الجديدة في إطار ما يعرف بالنظرية الانقسامية أو التجزئية «la théorie de la ségmentarité»

---

2) لاشك أن أشهر دراسة حول الزوايا والطرق الدينية بالمغرب هي ماكتبه : G. Drague في مؤلفه: Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confreries et Zounia. Paris (1952):

3) ل. بروڤنصال : «شرقاوة» تعريب الشنتاوي، دائرة المعارف الإسلامية بيروت. مجلد 13 صفحة : 203، 204.

ـ نفسه : مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي.

الرباط (1397 / 1977) صفحة 236.

4) أهم هذه التقارير ما كتبه كل من.

Cimetière (J) ; Notice sur Boujad R.M.M. Tome : 24 (1913) pp : 277-290.

Niègle ; La Medersa et les bibliothèques de Boujad. R.M.M. Tome : 24 (1913) pp : 290-297.

وفي هذا الإطار يجب إدراج بحث الأستاذ. ايكلمان عن زاوية أبي الجعد كمركز وقطب توجه للعديد من القبائل ونعني به :

Eickehman D,F ; Moroccan Islam. Tradition and Society in a Pelgrimage center. Texas, Press 1976.

تحتوي هذهّ الدراسة على ثمانية فصول بالإضافة إلى ملحق ثم ذيل أطروحته ببعض الهوامش والشروح؛ كما تتضمن عددا من الرسوم والخرائط التوضيحية... وتأتي خطورة هذه الدراسة، من كونها توجه نقدا لاذعا إلى المؤلفات التاريخية المغربية التقليدية إلى درجة نفي أي قيمة علمية لها؛ مع إعطاء أهمية كبرى للوصف والرواية الشفوية ومختلف التعابير المتضمنة لها، ليخلص بعد ذلك إلى الإقرار بأنه في «مجتمع إسلامي مركب» يجب أن يعتبر التاريخ والانتروبولوجية الاجتماعية ميدانين متكاملين..»[5].

وإذا كان نصيب التاريخ قليلا بسبب طبيعة أطروحته؛[6] إلا أنه سخر مجموعة من الأحداث التاريخية بمعزل عن إطارها وظرفها لخدمة نسق تفكير معين.. انصب على تحليل أوضاع الزاوية خلال القرن 19م حتى عام 1912م بل وإلى ما بعد هذا التاريخ دون الإشارة لامن قريب أو بعيد

5) ايكلمان؛ المرجع السابق؛ صفحة : 17 وكذلك صفحة : 31 ـ 37.

6) المرجع السابق؛ انظر الفصل الرابع والسابع والملحق بالإضافة إلى المقدمة وفي الأقسام التي تحتوي بعض المعلومات التاريخية خاصة بعض الظهائر والمراسلات المخزنية التي تبادلها أشياخ الزاوية مع الملوك العلويين إبان القرن 19 بصفة خاصة.

وتتكامل هاته المعلومات مع مقال آخر عن نفس الزاوية (الزاوية الشرقاوية عنوانه :

Eickelman ; D.F., Quelques aspects de l'organisation politique et économique d'une Zaouïa marocaine au XIXe siècles.

B.S.H.M ; n° 4-5 (1972-73) C.U.R.S. Rabat.

لمصادر الزاوية المخطوطة، والتي هي ترجمة لحياة أشياخ الزاوية، في إطار كتب التراجم والمناقب بسبب موقف مبدئي منها.. إلا أننا خلال بحثنا عن تاريخ الزاوية انطلقنا من هذه المصادر؛ فكانت المادة الأولية والرئيسة؛ وهو الاقتناع الذي تأكد لدينا علميا وموضوعيا عندما أنهينا البحث.

مصادر تاريخ الزاوية

قسمنا هذه المصادر إلى الأقسام الآتية :

أ - مصادر خاصة : وتتضمن :

1 - كتب التراجم والمناقب.

2 - وثائق رسمية.

3 - تآليف أخرى.

ب - مصادر عامة : ونقني بها مختلف المؤلفات المغربية من كتب تراجم وفهارس وتواريخ عامة التي أشارت للزاوية وأشياخها بشكل أو آخر.

أ - المصادر الخاصة :

1 - كتب التراجم والمناقب :

أولا : كتاب «المرقي في مناقب سيدي محمد الشرقي».

لمؤلفه عبد الخالق بن محمد العروسي (عاش خلال قرن 12 هـ / 18) وهو من أبناء الزاوية الشرقاوية وأحد تلامذتها ومريديها[7].

7) تعرضنا بتفصيل لترجمة هاته الشخصية في إطار الحديث عن أطر الزاوية؛ كما فصلنا القول عن كتاب المرقي سواء في القسم المتعلق بمصادر الدراسة أو ضمن تراث الزاوية الفكري (الباب الثالث).

توجد من هذا المخطوط عدة نسخ سواء بمكتبات الزاوية الخاصة أو بالخزانة العامة بالرباط (مثلا رقم : 1911 ك) كما توجد نسخة أخرى بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : 2888، وقد اعتمدنا في بحثنا على نسخة عبد القادر الشرقاوي (أطلقنا عليها نسخة أبي الجعد) بعد مقارنتها بنسخ أخرى؛ فتأكد لنا قدمها.. وهي من الحجم الكبير ومكتوبة بخط مغربي واضح، عدد صفحاتها 307، دون وجود تاريخ للتأليف أو النسخ أو اسم الناسخ عكس نسخة الرباط (الخزانة العامة) بخط المزغراني وعدد صفحاتها 508 من الحجم المتوسط في حين أن نسخة الخزانة الحسنية 240 ورقة من حجم (33 ـ 19). وقد أشار ل.بروفنصال إلى اسم هذا المؤلف نقلا عن كتاب «السلوة» للكتاني محمد بن جعفر، دون ذكر لمكان وجوده. في حين أن ابن سودة صاحب الدليل، اقتصر على القول : «يوجد عند حفدته بكثرة»[8].

قسم عبد الخالق العروسي مؤلفه إلى خمسة أبواب : وكل باب يحتوي على فصول؛ وإذا كان الباب الأول قد خصصه للحديث عن فضل سيد الوجود محمد ﷺ؛ فإنه قد ختمه بفصل عنوانه : كون طائفة فيها (في أمته) أقطابا وأبدالا ونجباء؛ كتمهيد للتعريف بشيخ الزاوية الأول ومؤسسها محمد الشرقي... في حين خصص الباب الثالث لطريقته وسلسلة أشياخه والباب الرابع في ذكر كراماته، وفي الباب الأخير ذكر بعض صلحاء الوقت الذين عاصرهم محمد الشرقي، ومن بينهم بعض تلامذته ومريديه؛ ووعد أن يختم الكتاب بشيء من كلام الشيخ الشرقي، إلا أنه لم يفعل.

---

8) عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى. الدار البيضاء 1960) ط 2 ج 1 : صفحة : 220.

ثانيا : «الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد الصالح»[9].

وهو المشهور بكتاب «الروض الفائح» لمؤلفه الحسن بن محمد المداجي المعداني المتوفى بعد عام 1180 / 1766؛ وهو بدوره من تلامذة الزاوية وأطرها..[10] ألفه للتعريف بشيخه محمد الصالح مجدد زاوية أبي الجعد أواخر القرن 11 هـ / 17م ومطلع قرن 12 / 18.

توجد من هذا المخطوط نسخ قليلة بأبي الجعد؛ نذكر منها نسخة الحاج عبد القادر الشرقاوي ونسخة الحاج مصطفى الشرقاوي وهي أحدث من الأولى. في حين أن نسخة الخزانة الحسنية رقم 61 توجد في جزأين. الأول نسخ عام 1289 هـ والثاني في : 1290 هـ. وقد اعتمدنا على نسخة أبي الجعد بعد مقابلتها بالنسخ السابقة ونسخ أخرى.[11] وهي تقع في : 482 صفحة من الحجم المتوسط؛ مع ذكر اسم المؤلف وتاريخ الانتهاء منه وهو عام 1179 هـ. في حين أن «صاحب الدليل» جعل تاريخ الانتهاء منه عام 1159 وهو ما لم يتأكد لنا.[12]

قسم محمد المعداني مؤلفه إلى مقدمة وخاتمة (هكذا) كل منها تحتوي على ثلاثة فصول. فبعد تعريف وجيز بفضائل الأولياء وما قيل في الكرامة

9) زاوية أبي الجعد؛ التراث الفكري.

10) تعرضنا لترجمته أثناء الحديث عن الأطر المتخرجة من الزاوية.

11) أشار الأستاذ محمد المنوني إلى نسخ أخرى من نفس المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 1835 ك و 2260 ك و 2369 ك.
المحاضرة السادسة عشرة. المصادر المدونة في العصر العلوي الثاني.
نشرة داخلية (شعبة التاريخ) كلية الاداب ـ الرباط، بدون تاريخ صفحة : 7.

12) ابن سودة، الدليل؛ ج 1، صفحة : 214.

يخلص بعد ذلك إلى موضوع الكتاب في شبه التزام تام بالعنوان؛ معرفا بالشيخ محمد الصالح من حيث تربيته وتعليمه وأشياخه ومن عاصره من كبار العلماء والأولياء ومنهم الفقيه العالم الحسن بن رحال المعداني الذي نسب إليه ل.بروفنصال هذا الكتاب !.. ثم يتعرض بعد ذلك لما كان بين شيخ الزاوية وبين هؤلاء الأشياخ والعلماء من مكاتبات ومراسلات ولقاءات... ليختم ذلك بالحديث عن مختلف إنتاجات محمد الصالح الأدبية والدينية مع إعطاء نماذج منها؛ في حين خصص الفصل الثاني من الخاتمة للتعريف بوالده محمد المعطي بن عبد الخالق الشرقاوي ونسبه الشرقاوي العمري لينهي كتابه بذكر بعض كرامات الشيخ الجد محمد الشرقي.

وعلى العموم فكتاب الروض يعتبر بالإضافة إلى ماسبق؛ سجلا حافلا لتراث الزاوية الفكري في فترة تعتبر من أهم الفترات في حياة الزاوية وأشياخها من حيث العطاء والإشعاع.

ثالثا : يتيمة العقود الوسطى.

وعنوانه الكامل كما أورده مؤلفه محمد بن عبد الكريم العبدوني المتوفى حوالي 1189 / 1775 :[13]

يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطي ومناقب أبيه سيدي محمد الصالح»[14].

---

13) تعرضنا لترجمة محمد بن عبد الكريم ضمن الحديث عن الأطر المتخرجة من الزاوية؛

14) إلا أن الاسم الشائع هو «يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطي» مما يجعلنا نرجع أن بقية العنوان من وضع الناسخ؛ إلا أن هذا لا يتناقض مع مضمون الكتاب. وقد تعرضنا للتعريف بالكتاب وتحليل موضوعاته ضمن قسم تراث الزاوية (الباب الثالث).

توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 283 ك؛ وهي من الحجم الكبير إلا أن حالتها جد رثة بسبب تآكل عدد من أوراقها. ويظهر أنه أكثر قدما من نسخة أبي الجعد المعتمدة في البحث بعد مقارنتها بنسخ أخرى بالزاوية وكذلك بنسخة الرباط الثانية رقم : 305 ك بالخزانة العامة.[15]

يبلغ عدد صفحات مخطوط الحاج عبد القادر الشرقاوي (نسخة أبي الجعد) 400 صفحة من الحجم الكبير دون ذكر لاسم الناسخ أو تاريخ النسخ أو التأليف.

قسم ابن عبد الكريم مؤلفه إلى أربعة أبواب خصص معظمها للحديث عن الشيخين محمد الصالح (الأب) ومحمد المعطي (الإبن) سواء تعلق الأمر بنشأتها أو أشياخها في علم الظاهر والباطن؛ كما تعرض لنسب الأسرة الشرقاوية العمري وظروف استيطان أجداد هذه الأسرة بمنطقة تادلا العليا؛ مع الإحاطة بشيء من التفصيل بكرامات أشياخ الزاوية؛ في حين أن الباب الرابع الذي عنونه بـ : «ذكر أحزابهم ووظائفهم وتآليفهم الجليلة، ومن تخرج على أيديهم من أكابر العلماء وأرباب الأحوال والمقامات» أقول : لم نجد لهذا القسم من الكتاب أي أثر مما دفعنا في البداية إلى إيعاز ذلك إلى بتر أصاب نهاية الكتاب، وبعد التحري والمقارنة؛ ثبت أن ظروف المؤلف الصحية (مرض بصره) هي التي حالت بينه وبين إتمام كتابه؛[16]فضاع بذلك

15) أشار الأستاذ محمد المنوني إلى نسخ أخرى من الكتاب (مخطوطات) بنفس المحاضرة السالفة الذكر؛ ص : 8 وهي كالتالي : خ.ع.ك : 2306 / خ.ع.ك :961.

16) العبدوني : اليتيمة؛ ص :14.

المكي الشرقاوي : اختصار اليتيمة؛ م.خ.ع : رقم ؛ ج ؛ 509. المقدمة.

جانب هام من تراث الزاوية ومن التراث العلمي والتاريخي بصفة عامة.. وبذلك يتوقف الكتاب عند ذكر بعض كرامات الشيخ الشرقي في نهاية الباب الثالث.

رابعا : اختصار اليتيمة :

قام باختصار كتاب اليتيمة الفقيه المرابط محمد المكي بن الشيخ محمد المعطي (توفي بعد عام 1190 / 1776).[17]وقد عثرنا منه على نسخة وحيدة بالخزانة العامة بالرباط وسط ترتيب أرقام «أسفار الذخيرة» (من تأليف الشيخ محمد المعطي الشرقاوي المتوفى 1180 / 1766) تحت رقم 509 ج. وهو من الحجم الكبير وحالته جيدة؛ وهو غير مرقم؛ يحتوي على 74 ورقة من الحجم الكبير.

يقول محمد المكي : إنه كان ينوي نسخ الكتاب كله، لأن المؤلف قد توفي «قبل إخراجه من المبيضة» إلا أنه اقتصر فقط على ذكر كرامات والده مؤلف الذخيرة وجده محمد الصالح؛ دون التزام بترتيب الكتاب الأصلي؛ بل أضاف معلومات أخرى لم تكن موجودة، متجاوزا بذلك الإطار الزمني للكتاب، ليتحدث عن أشياء وقعت بعد وفاة المؤلف وعاصرها محمد المكي من بعده.

خامسا : «الفتح الوهبي في مناقب الشيخ العربي»[18].

---

17) عرفنا بهاته الشخصية وبمؤلفها؛ في المقدمة وضمن تراث الزاوية؛ وفي مواضع أخرى (الباب الثالث.

18) زاوية أبي الجعد :التراث الفكري.

من تـــأليف حفيـــده العربي بن داوود بن العربي، المتـوفى 1316 / 1898.

توجد من هذا المخطوط عدة نسخ بأبي الجعد بسبب قربه الزمني؛ ذلك أنـه ألف خلال النصف الثـاني من القرن 13 / 19. قـال عنـه ابن سـودة : «رتبه على مقدمة وستة أبواب وخاتمة، يقع في مجلـد وسـط، يوجـد بخزانتنـا الأحمدية» كما ذكر أن محمد عبد الحي الكتاني قد اختصره في كراسة[19].

توجد نسخة منه بالخزانة العامـة بـالربـاط تحت رقم 2312 ك، وقـد اعتمدنا على نسخة أبي الجعد بعد مقابلتها بنسخ أخرى؛ وهي بخط أحمد عواد بتاريخ 14 جمـادى الثـانيـة عـام 1303 هـ. وهـذا الأخير نقلـه بـدوره عن نسخة أخرى بخط الفقيه أحمد بن الطالب بن سودة مؤرخة بِـ 8 شوال عـام 1298 هـ[20].

يقـع كتـــاب الفتـح الـــوهبي في 327 صفحـــة من الحجم الكبير؛ وأهم مـلاحظـة حـول محتوى الكتـاب ومنهجـه؛ أن المؤلف لم يخصص لصـاحب الترجمة الموضوع من أجلـه الكتـاب إلا جـزءا يسيرا (من الصفحـة 191 إلى صفحة 212) مع ذكر عـدد قليل من كرامـاتـه؛ في حين أن قسما هـامـا من مؤلفـه خصصـه للحـديث عن الأوليـاء وكيفيـة سلـوك الطريـق، وضرورة الاعتقاد فيهم... في حين أن الباب الثالث وهو الأوفر (من الصفحـة 54 إلى صفحة 190) أعاد فيه ما كتبه سابقوه عن أشياخ الزاوية الذين عـاشوا قبل الشيخ محمد العربي.

---

19) ابن سودة : الدليل؛ ج 1، ص : 137.

20) العربي الشرقاوي : الفتح الوهبي؛ ص : 326، 327.

ونختم هذا النوع من المصادر الخاصة بالإشارة إلى بعض التآليف المكملة التي لم يكلل البحث عنها بالتوفيق. ويتمثل ذلك في المؤلفات الآتية :

☆ «التعريف المفيد في مناقب الشيخ الصالح بن المعطي وجده القطب أبي عبيد»[21] من تآليف أحمد بن فتوح التازي، أحد أطر الزاوية العلمية في عهد الشيخ محمد الصالح؛ وقد حفل كتاب المرقي بعدد من أشعاره ومنظوماته في الزاوية وأشياخها.

☆ مسرة الإخوان بذكر الشيخ الرباني[22] : وهي منظومة شعرية في التعريف بالشيخ محمد الشرقي وأولاده وذكر طريقتهم وأسانيدهم؛ توارد عليها عدد من الشعراء من تلامذة الزاوية ومريديها؛ كان آخرهم الفقيه محمد بن عبد الكريم مؤلف اليتيمة.

☆ الموائد السنية والأسانيد السنية :

من تأليف محمد المعطي بن عبد الخالق والد الشيخ محمد الصالح. نقل منها صاحب الروض الفائح. بعض آرائه وأقواله وكذلك ترجمة بعض أشياخه، مؤكدا على أن مؤلفها لم يتيسر له أن يتم مؤلفه المذكور.[23]

ونختم الحديث عن المصادر الخاصة ببعض الملاحظات والاستنتاجات الأولية.

1 ـ اعتقد ل. بروفنصال أن أول كتاب ألف في تاريخ الزاوية هو كتاب «الروض الفائح»؛ كما زعم أن كتاب اليتيمة ألف بعد المرقي، وقد تأكد من خلال البحث والتعامل مع هذه المصادر؛ أن ل. بروفنصال لم يطلع قط

---

21) ابن سودة : الدليل؛ ج : 1، ص : 199.

22) المرجع السابق؛ ج : 2، ص : 412.

23) زاوية أبي الجعد : التراث الفكري؛

على هذه المؤلفات وبالتالي جاءت معلوماته عنها غير منسجمة مع مضمونها بالرغم من أن بعضها يحمل تواريخ التأليف.. وعلى ذلك وجب الإقرار أن كتاب «المرقي» يعتبر أول مؤلف في تاريخ الزاوية؛ وأنه ألف قبيل وفاة الشيخ محمد الصالح بسنة أو سنتين أي حوالي 1138 هـ؛ في حين أن الكتاب الثاني وهو «كتاب الروض» وقع الانتهاء منه عام 1179 هـ كما صرح بذلك مؤلفه في نهاية الكتاب؛ في حين بقي ابن عبد الكريم يؤلف كتابه «اليتيمة» إلى ما بعد وفاة شيخه محمد المعطي (توفي 1180 هـ) دون أن يتمكن من إتمامه بسبب مرض بصره أولا ثم وفاته بعد شيخه ببضع سنوات.

2 - ان المصادر السابقة تكمل بعضها البعض من حيث الإطار الزمني؛ إلا أن عدم معاصرة بعض المؤلفين للفترة التي كتبوا عنها؛ قد أثر تأثيرا واضحا في أهمية وقيمة معلوماتهم التاريخية؛ وبالتالي في منهج كتاباتهم، فالمرقي الذي ألف بعد وفاة الشرقي بحوالي 128 سنة، جاء في معظمه كتاب تصوف؛ يستغل ذكر كرامة من الكرامات ليستفيض في تحليلها وذكر مثيلاتها عند باقي كبار المتصوفة؛ مستعرضا آراء العلماء والفقهاء حول موضوعها.. إلا أنه مع ذلك قد لخص لنا ما كان شائعا ومعروفا في عصره عن مؤسس الزاوية محمد الشرقي سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الوطني؛ إذ نجده يأخذ عن كتاب «المرآة» لمحمد العربي الفاسي وعن «الممتع» لمحمد المهدي الفاسي وكذلك عن كتاب «المحاضرات» لليوسي.. في حين أن صاحب «الفتح الوهبي» يعتذر عن قلة باعه وعلمه وقصور معلوماته عن جده القريب من عهده ! ومع ذلك فإن أهمية مؤلفة تكمن فيما تضمنه من إجازات علمية حصل عليها الشيخ محمد العربي أثناء رحلته للحج والعلم عام 1190 هـ.

ويظهر أن معاصرة كل من حسن المعداني الهداجي، ومحمد بن عبد الكريم العبدوني للشيخين محمد الصالح ومحمد المعطي؛ جعلت مؤلفيها «الروض» و «اليتيمة» متكاملين؛ وفي نفس الوقت يعتبران سجلا حافلا لنشاطات الزاوية الدينية والعلمية والاجتماعية والسياسية؛ ولذلك شكلا معا أهم مادة علمية وتاريخية لدراستنا عن تاريخ زاوية أبي الجعد وزاد من قيمة معلوماتها؛ احتكاكهما شبه اليومي بشيخي الزاوية، بل والمشاركة الفعالة في نشاطاتها المختلفة.

وتقترن هذه الفترة تاريخيا بالقرن الثاني عشر الهجري / 18م؛ وهي المرحلة التي اصطلحنا على تسميتها بفترة «الإشعاع الديني والعلمي» والتي سجلت اتساع نفوذ الزاوية، سواء في تادلا أو خارجها على جميع المستويات وبالخصوص الجانب الديني والثقافي والتعليمي.

3 - يظهر من عناوين الكتب المصادر السالفة الذكر؛ انها تندرج ضمن كتب المناقب.. إلا أن قراءة متأنية لها جعلتنا نتبين قيمة معلوماتها من حيث :

- طبيعة التصوف النظري والعملي للزوايا المغربية.
- أهمية المعلومات التاريخية المرتبطة بحياة أشياخ الزاوية، مع التعرض لترجمات عدد هام من العلماء والفقهاء والصلحاء، بعضهم له أهميته الوطنية والبعض الآخر يكشف عنه النقاب لأول مرة.
- التعرض لأحداث ووقائع تاريخية ذات طابع جهوي إلا أن معضمها له ارتباط بالتاريخ المغربي، ومن تم تتسع دائرة المعرفة التاريخية ويتم إغناء بعض المعلومات الموجزة أو التي وردت بصفة عرضية في كتب التاريخ التقليدية.

ــ ان معظم هاته المعلومات قد تمت صياغتها في إطار «الكرامات»؛ ومن ثم وجب التعامل مع هاته المصادر بشيء من التركيز والحذر واتساع الأفق.. لأن الكرامات بالرغم من طبيعتها الصوفية؛ إلا أنها لم تجد مهربا عن الإطار الجغرافي والبشري الذي نشأت فيه وأنتجت من أجله.. بل انها أحيانا ـ كما هو في الروض واليتيمة ـ تطبع بطابع المذكرات والمشاهدات اليومية؛ ولا يبقى لمدلول الكرامة إلا الاسم فقط.

4 ـ قد يبدو بعد كل ما سبق أنه ليس من الضروري التأكيد على قيمة هذا النوع من الكتابات والمصادر كتُراث يزخر بالمعلومات التاريخية في جميع المجالات المعرفية؛ إذ يصبح من الصعب الحديث عن مختلف التطورات التاريخية الثقافية والحضارية منها في إطارها الشمولي بمعزل عن مساهمات هاته المراكز الفرعية التي من أهمها الزوايا؛ كمؤسسات دينية وعلمية وتعليمية ساهمت بشكل أو آخر في توسيع ونشر الثقافة الإسلامية بانسجام مع المراكز الثقافية الكبرى التقليدية؛ دون إغفال طبيعة المجتمع الذي تعاملت معه هاته المراكز الزوايا بسبب طبيعة أماكن توطنها وتواجدها. وبذلك تعاملت مع الثقافة لا كمجموعة من الآراء والنظريات البحتة، بل كممارسة وتطبيق في إطار مهمتها التي تقتضي منها الاستجابة الفورية والشاملة لكل متطلبات البيئة القروية في بساطتها وتعقدها أحياناً.

مراكش **أحمد بوكاري**

وفودُ البيعة بين يديّ الرّسول ﷺ

(2)

د. فاروق حمادة

5 ـ وفد عبد القيس :

ومع ريح الأحزاب، واندحار شجعان مكة ومن والاهم وانتشار هذه الأخبار في أرجاء الجزيرة العربية أصبحت كثير من القبائل مهيأة نفسيا لقبول الدين الجديد، لاسيا الذين كان لهم احتكاك وصلة ومعرفة بديانات السماء، وكان كثير منهم في أطراف الجزيرة العربية شرقها وغربها على هذه الحال، ومنهم بنو عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وهم من قبيلة كبيرة ذات بطون عديدة.[1]

أما مساكنهم فكانت في البحرين ونواحيها، وكانت النصرانية قد شاعت في تلك الربوع. لذلك كانوا من المسرعين إلى الدعوة.

ومن أسباب هذا الإسراع أن الأشج العصري كان يجلس إلى صديق له راهب فكان يلقاه في كل عام. فلقيه عاما بالزارة فأخبر الأشج أن نبيا

---

1) انظر جمهرة الأنساب لابن حزم ص 295.

يخرج بمكة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه علامة، يظهر على الأديان، ثم مات الراهب فبعث الأشج ابن أخت له من بني عامر بن عصر يقال له : عمرو بن عبد القيس، وكان ختنه على ابنته أمامة بنت الأشج، وبعث معه تمرا ليبيعه، وملاحف وضم إليه دليلا يقال له الأريقط فوصل مكة عام الهجرة، فلقي النبي ﷺ وتأكد من العلامات، فأسلم وعلمه النبي ﷺ، الحمد، واقرأ باسم ربك الذي خلق، وقال له : ادع خالك إلى الإسلام، فرجع إلى بلاده، وأقام دليله بمكة، فدخل عمرو إلى منزله فسلم بتحية الإسلام فخرجت امرأته إلى أبيها فقالت له : إن زوجي صبأ فانتهرها وقال : إني لأبغض المرأة تخالف زوجها، وجاء الأشج فأخبره الخبر، فأسلم الأشج وكتم الإسلام حينا، ثم خرج في رهط من أهل هجر، من بني عصر، ومن بني صباح، ومن بني محارب، ومن بني عابس، ومن بني مرة ومن غيرهم من البطون وكانوا ثلاثة عشر، أو ستة عشر نفرا.[2] وتوجه هذا الوفد نحو المدينة المنورة بزعامة الأشج (المنذر بن عائذ).

البشري بقدومهم : وبعد أن تنفس المسلمون بريح الفرج الذي أنقذ وجودهم في غزوة الأحزاب استشعروا أن نصر الله قد أقبل عليهم، وأكد الرسول ﷺ لهم ذلك فكان يثبتهم ويعدهم هذا النصر في كل مناسبة، ومن ذلك أنه بينما كان جالسا مع أصحابه يحدثهم قال لهم : سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق، فقام عمر بن الخطاب يتوجه في ذلك الوجه، فلقي ثلاثة عشر راكبا، فرحب وقرب، وقال : من القوم ؟ قالوا :

2) انظر الإصابة 177/2 واقتبسه عن ابن شاهين بإسناده من طريق حسين بن محمد حدثنا أبي، حدثنا جيفر بن الحكم العبدي عن صحار بن العباس، ومزيدة بن مالك في نفر من عبد القيس، وانظره بدون إسناد في ابن سعد 564/5.

نفر من عبد القيس، قال : فما أقدمكم هذه البلاد، التجارة ؟ قالوا : لا، قال : فتبيعون سيوفكم هذه ؟ قالوا : لا، قال : فلعلكم إنما قدمتم في طلب هذا الرجل ؟ قالوا : أجل، فمشى يحدثهم حتى إذا نظر إلى النبي ﷺ قال : هذا صاحبكم الذي تطلبون، فرمى القوم بأنفسهم عن رحالهم[3].

وعند ابن سعد أن رسول الله ﷺ نظر إلى الأفق صبيحة ليلة قدموا وقال : ليأتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام، قد أنضوا الركاب، وأفنوا الزاد، بصاحبهم علامة، اللهم اغفر لعبد القيس، أتوني لا يسألوني مالا، هم خير أهل المشرق[4] وتحققت البشرى وأقبل القوم بقلوب صافيه إلى رسول الله فسر بهم أيما سرور، وفرحوا بذلك فرحة الناجي من الكفر إلى الإيمان.

فرحة اللقاء :

ولما رأى أعضاء الوفد رسول الله ﷺ، لم يتمالكوا أنفسهم فانحدروا عن رواحلهم فنهم من سعى ومنهم من هرول ومنهم من مشى حتى أتوا إليه، فأخذوا بيده فقبلوها وقبلوا رجليه[5] وقعدوا إليه، فأوسع القوم لهم

---

3) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 345/20 من حديث مزيدة العصري، وأبو يعلى في مسنده قال الهيثمي في مجمع الزوائد 388/9 ورجالها ثقات، وفي بعضهم خلاف، وقال الحافظ في الفتح 85/8 : أخرجه البيهقي عن مزيدة والبخاري في الأدب المفرد عن رجل من عبد القيس.

4) انظر الطبقات 314/1.

5) انظر ذلك في سنن أبي داوود رقم / 5225 / والأدب المفرد للبخاري رقم / 975 / وهو من طريق أم أبان بنت الوازع عن جدها الزارع العبدي أحد رجال الوفد قال ابن عبد البر : روت عن جدها الزارع حديثا حسنا، الاستيعاب 581/1 وقال في مجمع الزوائد 390/9 : روى لها أبو داوود وسكت على حديثها فهو حسن.

ورحب النبي ﷺ بهم وقال لهم : (مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى)[6] اللهم اغفر لعبد القيس إذ أسلموا طائعين غير كارهين، غير خزايا ولا موتورين إذ بعض قومنا لا يسلموا !! حتى يخزوا ويوتروا[7]ثم سألهم : من سيدكم ؟ فأشرنا جميعا إلى المنذرين عائذ، فقال النبي ﷺ : أهذا الأشج ؟ وكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم بضربة لوجهه بحافر حمار[8] ثم نادى النبي في أصحابه فقال : يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم، فإنهم أشباهكم في الإسلام، أشبه شيء بكم، أشعارا وأبشارا[9].

خصال يحبها الله :

وتخلف الأشج عن القوم وكان أصغرهم فعقل رواحلهم، وضم متاعهم، ثم أخرج عيبته[10]، فألقى عنه ثياب السفر، ولبس من صالح ثيابه، ثوبين أبيضين ومسح لحيته بدهن له، ثم أقبل إلى النبي ﷺ، وقد بسط النبي ﷺ رجله واتكأ، فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له، وقالوا : ها هنا يا أشج، فقعد عن يمين النبي ﷺ فرحب به وألطفه[11]، وكان رجلا دميا فنظر إليه، فقال : يا رسول الله إنه لا يستسقى في مسوك الرجال، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه وقلبه[12] فقال له رسول الله ﷺ : إن فيك

6) انظره في البخاري 129/1 ومسلم 47/1. الخزايا. جمع خزيان. وهو الذي أصابه الخزي، والندامى جمع نادم، وفي ذلك بشرى الخير العاجل لأنهم لم يخزوا ويقهروا، والآجل، لأن الله رفع بذلك مكانتهم ويحسن عاقبتهم.

7) انظره في مسند أحمد 206/4.

8) المصدر السابق.

9) انظر مسند أحمد 206/4.

10) مستودع ثيابه.

11) انظره في مسند أحمد 432/3، 206/4.

12) انظر طبقات ابن سعد 314/1، 558/5 ومسوك جمع مسك وهو الجلد.

خصلتين يحبهما الله عز وجل قال : ما هما ؟ قال : الحلم والأناة، فقال : يا رسول الله أقديما كان أم حديثا ؟ قال : قديما، فقال : الحمد لله الذي جعلني على خلقين يحبهما الله ورسوله، وفي رواية : يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ فقال له النبي ﷺ : بل الله جبلك عليهما، فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله[13].

في ضيافة النبي ﷺ في الأنصار : ثم بدأ النبي ﷺ الله عليه وسلم يسائل الأشج عن بلاده وريعه، قرية قرية، فسأله عن الصفا والمشقر، وغيرهما من قرى هجر، فقال الأشج، بأبي وأمي يا رسول الله لأنت أعلم بأسماء قرانا منا، فقال : إني قد وطئت قراكم وفسح لي فيها.

ثم أقبل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال : يا معشر الأنصار، أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام، أشبه شيء بكم أشعارا وأبشارا،

---

13) جاء هنا النص من طرق عديدة، فهو عند مسلم عن ابن عباس 48/1 إلى قوله : الحلم والأناة. والترمذي 149/3 والبخاري في الأدب المفرد رقم /586 / وابن ماجه رقم 4188.

ومن حديث الزارع العبدي : أبو داوود رقم 5225 والطبراني في الكبير 317/5.

ومن حديث أبي سعيد الخدري : مسلم 49/1 وابن ماجه / رقم 4187 / وأحمد 23/3 والبخاري في الأدب المفرد رقم 585.

ومن حديث مزيدة العصري : البخاري في الأدب المفرد رقم 587، والطبراني وأبو يعلى في مجمع الزوائد 388/9.

ومن حديث ابن عمر : عند الطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير نعيم بن يعقوب وهو ثقة وفي الأوسط بإسناد حسن مجمع الزوائد 388/9.

ومن حديث الأشج نفسه ، البخاري في الأدب المفرد رقم 584، ومسند أحمد 206/4 والطبراني في مكارم الأخلاق رقم 29، والنسائي في فضائل الصحابة رقم 201.

ومن طرق أخرى انظر طبقات ابن سعد 558/5.

أسلموا طائعين غير مكرهين، ولا موتورين، إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا.

فلما أصبحوا جاءهم رسول الله ﷺ، فقال : كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم ؟ قالوا : خير إخوان ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ.

فأعجبت النبي ﷺ وفرح بها، ثم أقبل علينا رجلا رجلا، فعرضنا عليه ما تعلمنا، وعلمنا، فمنا من علم التحيات، وأم الكتاب، والسورة والسورتين والسنن[14] ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ بوجهه، فقال : هل معكم من أزوادكم شيء ؟ ففرح القوم بذلك وابتدروا رحالهم فأقبل كل رجل منهم معه صرة من تمر فوضعوها على نطع بين يديه، فأومأ بجريدة[15] في يده كان يختصر بها فوق الذراع ودون الذراعين فقال : أتسمون هذا التعضوض ؟ قلنا : نعم، ثم أومأ إلى صرة أخرى فقال : أتسمون هذا الصرفان ؟ قلنا : نعم، ثم أومأ إلى صرة فقال : أتسمون هذا البرني ؟ قلنا : نعم، فقال : أما إنه خير تمركم وأنفعه لكم[16].

فلما رجعوا إلى بلادهم أكثروا من زراعة البرني حتى صار معظم نخلهم.

التماس دعوة رسول الله ﷺ : وجاء في الوفد الزارع بن عامر العبدي أبو الوازع وحمل معه ابنا أو ابن أخ أو أخت له مجنونا، فلما اطمأنوا

---

14) انظره مسند أحمد 432/3، 206/4.

15) الجريدة هي سعفة النخيل.

16) انظره في مسند أحمد 432/3 و206/4، ومعجم الطبراني 345/20، وقال في مجمع الزوائد 388/9، وأبو يعلى، ورجالها ثقات وفي بعضهم خلاف.

بين يدي رسول الله قال له : يا رسول الله إن معي ابنا لي أو ابن أخت لي مجنونا أتيتك به تدعوا الله عز وجل له، فقال : ائتني به، فانطلق به إليه وهو في الركاب، فأطلقت عنه وألقيت عنه ثياب السفر، وألبسته ثوبين حسنين وأخذت بيده، حتى انتهيت به إلى رسول الله ﷺ فقال : إدنه مني اجعل ظهره مما يليني، ثم أخذ رسول الله ﷺ بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض إبطيه وهو يقول : اخرج عدو الله، أخرج عدو الله، فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول، ثم أقعده رسول الله ﷺ بين يديه فدعا له بماء فسح وجهه ودعا له، فلم يكن أحد في الوفد بعد دعوة الرسول ﷺ يفضل عليه[17].

تعلم الحلال والحرام :

وكانت أرضهم أرضا وخمة باردة، وكانوا يكثرون من شرب الأنبذة والمسكرات، ويستعملون الأواني التي تسرع في اشتداد النبيذ وتحوله إلى مسكر، فقام إليه صحار بن العباس فقال : يا رسول الله ما ترى في شراب نصنعه بأرضنا من ثمارنا ؟ فأعرض عنه نبي الله ﷺ سأله ثلاث مرات حتى قام فصلى، فلما قضى صلاته، قال النبي ﷺ : من سائلي عن المسكر ؟ لا تشربه، ولا تسقه أخاك، فو الذي نفس محمد بيده، أو بالذي يحلف به : لا يشربه رجل ابتغاء لذة سكره فيسقيه الله الخمر يوم القيامة[18].

---

17) أخرجه الطبراني في الكبير 318/5، وهو بعض حديث عند البزار ورجاله ثقات انظر مجمع الزوائد 389/9.

18) أخرجه أحمد في كتاب الأشربة رقم 32 والطبراني في الكبير من حديث طلق بن علي، ورجال أحمد ثقات وانظر مجمع الزوائد 70/5، وابن سعد في طبقاته 87/7، 562/5.

فقال الأشج : يا رسول الله إن أرضنا أرض ثقيلة وخمة، وإذا لم نشرب هذه الأشربه هيجت ألواننا، وعظمت بطوننا، فقال رسول الله ﷺ : لا تشربوا في الدباء والحنتم والنقير، وليشرب أحدكم في سقاء يلاث على فيه، فقالوا : يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان، ولا تبقى بها أسقية الأدم، فقال : وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، فقال له الأشج بأبي وأمي يا رسول الله رخص لنا في مثل هذه - وأومأ بكفيه - فقال : يا أشج إني إن رخصت لك في مثل هذه وقال بكفيه هكذا، شربته في مثل هذه وفرج يديه وبسطها يعني أعظم منها حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فهزر[19] ساقه بالسيف، وكان في الوفد رجل من بني عضل يقال له الحارث قد هزرت ساقه في شراب لهم في بيت من الشعر تمثله في امرأة منهم فقام بعض أهل ذلك البيت فهزر ساقه بالسيف فقال الحارث : فلما سمعت رسول الله ﷺ جعلت أسدل ثوبي فأغطي الضربة بساقي وقد أبداها الله تبارك وتعالى[20].

فاندفع القوم نحو رسول الله يسألونه أكثر ما يمكنهم قبل أن يغادروه، ليعودوا وقد توضحت أمامهم معالم الحلال والحرام، وأخذوا بأساسيات هذا الدين بعد أن تعلموا قسطا من القرآن والسنن، فقالوا : يا رسول الله إنا هذا الحي من ربيعة وإنا نأتيك من شقة بعيدة وإن بيننا وبينك المشركين من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام[21]

19) هزر : الهزر هو الضرب الشديد بالخشب وغيره.

20) انظر مسلم 49/1 وأحمد 432/3 و206/4.

21) هو شهر رجب وكانت مضر تبالغ في تعظيمه.

فرنا بأمر فصل، أو يحمل من الأمر ـ نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة فقال : آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع :

آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس[22].

وأنهاكم عن أربع : عن الدباء، والنقير، والحنتم والمزفت[23].

احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم[24]، قالوا : يا نبي الله، وما علمك بالنقير ؟ قال : بلى جذع تنقرونه، فتقذفون فيه من القطيعاء، أو

---

22) ذكر الشهادتين وهما أساس الإيمان تبركا، ولم يذكر الحج لأنه لم يكن فرض آنئذ.

23) الدباء : القرع اليابس، والنقير : أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء، والمزفت : ماطلي بالزفت والحنتم : الجرار الخضر.
قال الحافظ في الفتح 134/1 : وفي مسند أبي داوود الطيالسي عن أبي بكرة قال : أما الدباء، فإن أهل الطائف كانوا يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت، وأما النقير : فإن أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم ينبذون الرطب والبسر، ثم يدعونه حتى يهدر ثم يموت وأما الحنتم فجرار كانت تحمل إلينا فيها الخمر، وأما المزفت : فهذه الأوعية التي فيها الزفت. وإسناده حسن، أي المطلية بالزفت.
ثم قال : وتفسير الصحابي أولى أن يعتمد عليه من غيره لأنه أعلم بالمراد.
وقد كان هذا النهي من النبي ﷺ عن الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصها لأنها يسرع فيها الإسكار، وتذكرهم بالخمر التي كانت متمكنة من قلوبهم وحياتهم. ثم ثبت بعد ذلك الرخصة في الانتباذ في كل وعاء مع النهي عن شرب كل مسكر. انظر البخاري مع الفتح 57/10.

24) هذا النص أخرجته كثير من مصادر السنة المعتمدة وهو في البخاري في مواضع عديدة انظر 129/1 84/8، 85، ومسلم 47/1 ـ 49.

قال : من التمر ثم تصبون فيه من الماء، حتى إذا سكن غليانه شربتموه، حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف[25].

ثم قفل القوم عائدين بعد أن قضوا أياما في رحاب المدينة، تعلموا فيها وسألوا، وعاشوا الحياة الإسلامية الكاملة بين ظهراني إخوانهم من الأنصار والمهاجرين فلما وصلوا إلى بلادهم، حولوا بيعة كانت في ربوعهم مسجدا وأعلوا نداء التوحيد، واجتمعوا عليه، وأقاموا أول صلاة جمعة في الجزيرة العربية بعد مسجد النبي ﷺ، قال ابن عباس : إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله، في مسجد عبد القيس بجؤاثي من البحرين[26] ولا شك أن هذا كان باستئذان منه ﷺ.

وهذا يدل على أن النفر الكريم قد أقبلوا في عهد مبكر، وقبل أن تسلم مضر والقبائل المحيطة بالمدنية من جهة البحرين وهجر.

معلم ومرب !

وبعد أن انقلب هذا الوفد إلى بلادهم أرسل رسول الله ﷺ في إثرهم العلاء بن الحضرمي وذلك بعد منصرفه من الحديبية وحمله كتابا إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين ونص هذا الكتاب : (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد : فاني أدعوك إلى الإسلام، فأسلم تسلم، أسلم يجعل لك الله ما تحت يدك،

---

25) هذا النص في مسلم 49/1، وتقذفون : ترمون، والقطيعاء : نوع من صغار التمر.
وفي رواية عن أبي سعيد الخدري : تذيفون فيه من القطيعاء، أي تخلطون، من ذاف يذيف.

26) أخرجه البخاري 379/2، وأبو داوود رقم 1068.

واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر)[27] وقال رسول الله ﷺ للعلاء بن الحضرمي : إن أجابك إلى ما دعوته إليه، فأقم حتى يأتيك أمري، وخذ الصدقة من أغنيائهم فردها في فقرائهم، فقال العلاء : فاكتب لي يا رسول الله كتابا يكون معي، فكتب له رسول الله ﷺ فرائض الإبل، والبقر، والغنم، والحرث والذهب والفضة على وجهها[28].

فقدم العلاء بن الحضرمي عليه فقرأ الكتاب، فقال : أشهد أن ما دعا إليه حق، وأنه لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأكرم نزله، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه وجاء في كتاب :

أما بعد يا رسول الله، فإني قد قرأت كتابك على أهل البحرين[29] فنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث لي في ذلك أمرك فكتب إليه رسول الله ﷺ مرة أخرى وبعث بكتاب العلاء بن الحضرمي : بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك[30] فإني أحمد إليك الله الذي

---

27) انظره في نصب الراية للزيلعي، وقد اقتبسه من كتاب الرده للواقدي قال : حدثني معاذ بن محمد بن ■ أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، قال : بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي بالبحرين لليال بقين من رجب سنة تسع منصرفه عليه السلام من تبوك وكتب إليه كتابا... وساقه، قلت : وقوله تبوك وهم لأن إرساله لأول مرة كان قبل ذلك بكثير أو أن إرساله كان لمرة الثانية، وهذا محتمل لأن الرسائل تواترت بين النبي ﷺ والمنذر كما تراه أعلاه.

28) انظر نصب الراية للزيلعي 420/4، وانظر طبقات ابن سعد 360/4، 263/1.

29) وفي ابن سعد 263/1 : (على أهل هجر).

30) هذه الصيغة خلاف الرسالة الأولى وذلك لأنه أسلم فسلم عليه النبي ﷺ.

لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد : فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح، فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم، فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا، وإني شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية، أو مجوسية فعليه الجزية[31].

وفي نص عند أبي عبيد في الأموال بإسناده إلى عروة بن الزبير : سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد ذلك، فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله والرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فعليه الجزية[32].

وكان هذا الكتاب جوابا على كتاب المنذر المتقدم قبله والله أعلم، وتوفي المنذر قريبا من وفاة النبي ﷺ، كما جاء صريحا عند البلاذري في فتوح البلدان[33].

وكتب معه كتابا يبلغه إلى عبد القيس ونصه : (من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس[34] أنهم آمنون بأمان الله، وأمان رسوله على ما

---

31) انظر هذا النص في ابن سعد 263/1، 276، وابن سيد الناس عيون الأثر 267/2 ونصب الراية 420/4 وزاد المعاد 692/3 عن الواقدي، وقد ذكر الواقدي بإسناد له إلى عكرمة قال : وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته فنسخته، ولا شك أنها وجادة صحيحة إذا وثقنا الواقدي، وهناك خلافات أخرى يسيرة بين هذه المصادر. وصورة هذا الكتاب في الوثائق السياسية رقم 56 كما في الأعلام للزركلي 294/7.

32) انظر الأموال حديث رقم 51.

33) فتوح البلدان ص 110.

34) الأكبر بن عبد القيس لم أجده في كتب التراجم حتى الآن إلا في مصدر هذا النص.

أحدثوا في الجاهلية من القحم[35]، وعليهم الوفاء بما عاهدوا، ولهم أن لا يحبسوا عن طريق المير[36] ولا يمنعوا صوب القطر، ولا يحرموا حريم الثار عند بلوغه، والعلاء بن الحضرمي أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها وسراياها، وما خرج منها، وأهل البحرين خفراؤه من الضيم وأعوانه على الظالم، وأنصاره في الملاحم، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوا قولا، ولا يريدوا فرقة، ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء والعدل في الحكم، والقصد في السيرة، حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما، والله ورسوله يشهد عليهم[37].

وقد استقبل العلاء بن الحضرمي أحسن استقبال هناك، ونزل معززا مكرما، وجمع الصدقات هناك وأموال الجزية وأرسل النبي ﷺ إلى العلاء بن الحضرمي من يأخذ ذلك منه ومن الأموال المجتمعة عند المنذر بن ساوى. ونص الكتاب عند ابن سعد عن الواقدي بأسانيده عن عدد من الأئمة قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بن الحضرمي : أما بعد : فإني قد بعثت إلى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجله وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور والسلام، وكتب أبي[38].

---

35) القحم : واحدتها قحمة وهي الأمور العظيمة التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها.

36) الميرة : هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع.

37) انظر طبقات ابن سعد 283/1، وأخرجه من طريق الواقدي بأسانيده العديدة التي ساقها في 258/1.

38) انظره في ابن سعد 276/1، ويبدو أن إرسال الجزية والصدقات تكرر كل عام إذ جاء في صحيح البخاري أن الذي جاء بالمال أبو عبيدة بن الجراح، وعند الواقدي في الردة. العلاء بن جارية الثقفي.

وكان يحمل هذا الكتاب أبو هريرة وقدامة بن مظعون فلما أتيا العلاء بن الحضرمي أرسل معهما مالا كثيرا لم يأت المدينة المنورة قبله، يصور ذلك لنا أنس بن مالك فيما أخرجه البخاري[39] عنه قال : أتي النبي ﷺ بمال من البحرين فقال : انثروه في المسجد، وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلا، فقال له رسول الله ﷺ : خذ فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال : يا رسول الله أؤمر بعضهم يرفعه إلي، قال : لا، قال : فارفعه أنت علي، قال : لا، فنثر منه ثم ذهب يقله، فقال : يا رسول الله أؤمر بعضهم يرفعه علي، قال : لا، قال : فارفعه أنت علي، فقال : لا، فنثر منه، ثم احتمله فألقاه على كاهله ثم انطلق، فمازال رسول الله ﷺ وسلم يتبعه بصره حتى خفي علينا عجبا من حرصه، فما قام رسول الله وثم منه درهم.

وفي طريق آخر عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين وقد رآهم عند صلاة الفجر قد تجمعوا وتعرضوا له ينتظرون القسمة : أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء ؟ قالوا : أجل يا رسول الله، قال : أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم.

---

39) الصحيح 516/1 وانظره 167/6، 168، 262.

وقد بلغ هذا المال مائة ألف دينار أو نحوها[40].

عود حميد :

ثم كتب النبي ﷺ إلى العلاءين الحضرمي أن أقدم بوفد من عبد القيس، وكان ذلك على الأغلب في السنة العاشرة التي تتابعت فيها الوفود، فقدم العلاء بن الحضرمي بوفد كبير بلغ عددهم أربعين رجلا كما جاء ذلك في حديث أبي خيرة الصباحي[41]، فأقبلوا نحو المدينة تخب بهم الركاب، بعد أن أمنت الطريق، وهدأت نائرات الحروب والثارات، فوصل وفدهم وقد انضم إليهم الجارود، بشر بن عمرو أحد السادات الشرفاء في عبد القيس، وكان نصرانيا فاستقبلهم رسول الله ﷺ أحسن استقبال، وعرف لهم مكانتهم إذا أقبلوا على هذا الدين والناس عنه مدبرون، وأرسلوا له الصدقات والأموال ومن سواهم على حب الدنيا وجمعها يتكالبون، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما لي أرى ألوانكم تغيرت ؟[42] ثم قال لهم : اللهم اجعلنا من عبادك المنتخبين الغر المحجلين، الوفد المتقبلين، فقالوا : يا رسول الله، ما عباد الله المنتخبون ؟ قال : عباد الله الصالحون، قالوا : فما الغر المحجلون ؟ قال : الذين يبيض منهم مواضع الطهور، قالوا : فما الوفد المتقبلون ؟ قال : وفد يغدون مع نبيهم إلى ربهم تبارك وتعالى[43].

---

40) عند البلاذري عن حميد بن هلال، ثمانين ألفا انظر فتوح البلدان ص 111، وعند ابن أبي شيبة عنه مائة ألف وانظر فتح الباري 517/1.

41) أخرج ذلك ابن منده في معرفة الصحابة، والدولابي في ألاسماء والكنى انظر الإصابة 54/4، وفتح الباري 85/1.

42) أخرجه ابن حبان انظر فتح الباري 86/8.

43) أخرجه أحمد في مسنده 431/3 من طريق زيد بن علي أبو القموص العبدي عن الوفد.

ونزل الوفد في دار رملة بنت الحارث[44] فوقف الجارود العبدي بين يدي رسول الله ثم قال :[45].

يا نبي الهدى أتتك رجال...	قطعت فدفدا وآلا فآلا[46]
وطوت نحوك الضحاضح طرا	لا تخال الكلال فيه كلالا[47]
كل دهناء يقصر الطرف عنها	أرقلتها قلاصنا إرقالا[48]
وطوتها الجياد تجمح فيها	بكماة كأنجم تتلالا[49]
تبتغي دفع بؤس يوم عبوس	أو جل القلب ذكره ثم هالا

فأحسن النبي ﷺ والمسلمون نزلهم وأجرى عليه ضيافة ودعا رسول الله الجارود إلى الإسلام وسربه وقربه فقال الجارود : إني قد كنت على دين - أي النصرانية - وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه، فأسلم وشهد شهادة الحق[50] ولم يكن مغموصا عليه في شيء صلبا في عقيدته وله موقف في الردة.

وكان الوفد يطوفون أثناء إقامتهم على الصحابة رضوان الله عليهم يتعلمون الفقه والقرآن ويسائلون رسول الله ﷺ، وكان فيما ساءلوه قالوا :

44) ابن سعد 315/1.
45) قال الحافظ ابن سيد الناس في عيون الأثر 234/2 : وقد روينا خبر قدومه من حديث سليمان بن علي عن علي بن عبد الله عن عبد الله بن العباس وفيه إنشاده النبي ﷺ حين قدم عليه في قومه، وذكر الأبيات، قلت : وهذا في خبر طويل أخرجه البيهقي انظره في اللآلىء المصنوعة 186/1 وقال : وآثار الوضع ظاهرة عليه.
46) الفدفد : الفلاة من الأرض، والآل : السراب.
47) الضحاضح جمع ضحضاح، وهو مارق من الماء على وجه الأرض.
48) الدهناء : الفلاة، أرقلتها قطعتها.
49) الكماة : جمع كمي : وهو الشجاع والمستتر بالدرع.
50) انظر ابن هشام 243/4، وابن سعد 86/7.

يا رسول الله، إنك نهيتنا عن هذه الأوعية فأتخمنا قال رسول الله، فانتبذوا فيا بدالكم، ولا تشربوا مسكرا، فمن شاء أوْكَأَ سقاءه على إثم[51].

وأقاموا في رحاب المدينة عشرا على أحسن حال وفي خير مقام، ثم أمر لهم النبي ﷺ بجوائز وزاد الأشج عليهم فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ونشا - أي نصفا - وزودهم الأراك يستاكون به، فقالوا : يا رسول الله عندنا الجريد، ولكنا نقبل كرامتك وعطيتك، فقال : اللهم اغفر لعبد القيس أسلموا طائعين غير مكرهين، إذ بعض قوم لم يسلموا إلا خزايا موتورين[52].

ولما عزموا على مغادرة المدينة سألوا رسول الله ﷺ الحملان، فصادف ساعة لم يكن عند رسول الله ﷺ فيها شيء، فقال لهم : والله ليس عندي ما أحملكم عليه، فقال الجارود : يا رسول الله فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس أفنبلغ عليها إلى بلادنا ؟ قال : لا، إياك وإياها، فإنما تلك حرق النار[53].

---

51) هذا النص عند أحمد 481/3 بإسناده عن يحي بن غاس التيمي، عن ابن الرسيم عن أبيه وكان في الوفد، وبإسناد آخر عن يحي بن غسان التيمي عن أبيه، وكان في الوفد، وفي هذين الإسنادين كلام انظر الإصابة 186/3، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب 196/3 : في ترجمة غسان العبدي والد يحي هذا، حديثه في الأشربة والأوعية مضطرب.

52) هذا النص هو عند ابن سعد 88/7 عن أبي خيرة الصباحي أحد أعضاء الوفد من طريق خليفة بن خياط، وانظره في المعجم الكبير للطبراني 368/22، والإصابة 54/4.

53) انظر ابن هشام 243/4، وابن سعد 560/5، وقد رواه أحمد في مسنده 80/5، ولفظه : ضالة المسلم حرق النار، وعبد الرزاق في المصنف 131/10 ومن طريقه البيهقي 191/6، والنسائي في الكبرى كما ذكر المعلق على المصنف.
وحرق النار : لهبها، أي إن ضالة المسلم إذا أخذها إنسان يتملكها أدته إلى النار.

خبر قس بن ساعدة الإيادي :

وقد جاء في عدد من المصادر عن ابن عباس وأبي هريرة بأسانيد ضعيفة لا تقوم بمثلها حجة أن النبي ﷺ قال لوفد عبد القيس لما قدموا عليه : أيكم يعرف قس بن ساعدة الإيادي ؟ قالوا له : كلنا نعرفه يا رسول الله، قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك قال : ما أنساه بعكاظ على جمل أحمر، وهو يخطب ويقول :

أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.

إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور وبحار لا تغور، أقسم قس قسما حقا، لئن كان في الأمر رضا ليكونن سخط، إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا ؟ ثم قال : أيكم يروي شعره ؟ فأنشده :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر[54]

- يتبع -

القنيطرة : د. فاروق حمادة

---

54) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 88/12، والأحاديث الطوال ملحق بالمعجم 230/25، والبزار وأبو نعيم في دلائل النبوة 127/1، وأن الوفد هم وفد إياد وفيه بعض الجمل زيادة عما أثبتناه وهو الأقرب والله أعلم واختصره ابن سعد في الطبقات 315/1 وأنهم وفد بكر بن وائل، والبيهقي في الدلائل والزهد والبغوي في معجمه وغيرهم، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة 279/3 : وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس وفيه شعره وخطبته... وطرقه كلها ضعيفة، ومنها ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات الزهد...
وقد حكم غير واحد عليه بالوضع لأنه من طريق محمد بن الحجاج اللخمي، وقد جاء من غير طريقه لكن طرقه ضعيفة كما قال الحافظ ابن حجر، وأمثلها ما أخرجه الإمام محمد بن داوود الظاهري في كتاب الزهرة له من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد رجاله موثقون انظر تنزيه الشريعة لابن عراق 242/1.
وقد قال الجاحظ (ت : 255 هـ) في البيان والتبيين 75/1 ـ 76 : (ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة، وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال، وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيمانه بالبعث، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة) وسياق الجاحظ له يدل على أن خبر قس كان مشهورا في الأقدمين كما يقول ابن عراق والله أعلم.
وانظر مع ما تقدم من المصادر اللآلىء المصنوعة للسيوطي 192/1، والفوائد المجموعة للشوكاني ص 500.

قبل الرحيل

د. صالح الأشتر

قـــد طـــال صـــدك حتى أعيت الحيـــل
ونـــام وحيـــك لا شعر ولا غـــزل
وفر طيفـــــــك من جفني وخلّفني
رهن السهـــاد وستر الليـــل منســـدل
أبكي لغربـــــة أحـــلامي وضيعتهـــا
فـــلا يرق لـــدمعي قلبـــك الثمـــل
يـــا ضيعـــة الأمـــل الـــذاوي بعيـــد هـوى
قـــد كان رف على أفنـــانـــه الأمـــل
وكان حبـــــك يغريني ويـــــوقظني
على الحنـــان وقـــد فـــاضت بـــه المقـــل
فـــأرشف السحر من عينيـــك خمرتـــه
دن على حـــافتيـــه عتـــق الأزل

ويشهـــــد الليـــل فينــــا نجمتي سمر

لا تـــــأفــــلان وإن سماره أفلـــوا

فـــالآن أصحـــو وفي جفنيــــك غمض كرى

عني كأن هـــوانــــا غـــالـــه الأجــل

وعن قريب ينـــــادى للرحيـــل بنـــا

حتى تبـــاعـــد فيا بيننـــا السبـــل !

☆ ☆ ☆

هـــلا صحـــوت للقيــــا لا رقيب بهـــا

على هـــواتـــا، فــلا لـــوم ولا عــــذل

هـــلا صحـــوت ـ وعمر الليـــل منصرم ـ

من قبـــل أن تطفــــأ الأنـــوار والشعـــل

ويشمـــل الكـــون فجر لا يكـــون بـــه

إذا لقيتــــــك إلا الصمت والخجــــــل

ونظرة لـــوداع عـــــاجـــل، ودنـــا

وقت الرحيـــل، فـــلا ريث ولا مهـــل

ولات حين اعتنـــاق عنـــد ذاك لنـــا

فقـــد تبـــوح بمكنـــون الهـــوى القبـــل

☆ ☆ ☆

عمـــا قريب يقـــول القـــائلـــون لكم :

ســـاروا إلى الشرق فجرا عنـــدمـــا ارتحلـــوا

ظلت عيـــونهم للحي شـــــاخصـــــة

فلم يكن منكم في إثرهم رجـــــــــــل

والأعين الخضر ودوا لـــــــــــــــو تشيعهم
لكنهـــــا غفلت عنهم، ومـــــا غفلـــوا
قـــــد خلفـــوا دمعهم قبـــل الرحيـــل لهـــا
وحفنـــــــة من تراب المغرب احتملـــــوا..

د. صالح الأشتر

نصوص أندلسية جديدة
من مخطوطة كتاب «أخبار الفقهاء والمحدثين» لابن حارث الخشني

ابراهيم القادري بوتشيش

إذا كانت المصادر التاريخية الأندلسية تتسم بشحتها قياسا مع نظيرتها المشرقية، فمرد ذلك راجع إلى التأخر الزمني النسبي الذي ميز حركة التدوين التاريخي في الأندلس، وهو أمر بديهي إذا ما وضعنا في الاعتبار أن من دخلوها إبان الفتح كانوا إما جنودا أو فقهاء. غير أن الظاهرة تعزى أيضا إلى كون رجال الفكر في الأندلس عموما، أولوا عنايتهم لفن التراجم والطبقات أكثر من مجال التاريخ.

وإلى مدى غير بعيد، ظل اهتمام الباحثين في تاريخ هذا البلد الإسلامي منصبا على المصادر التاريخية لاستقاء مادة دراساتهم، ولم يوجهوا عنايتهم نحو كتب الطبقات والتراجم إلا في الآونة الأخيرة، وهذا ما يفسر غلبة الطابع السياسي الجاف على معظم الدراسات الأندلسية، وما تردد في الكتابات التقليدية من نغمة «الافتقار» إلى المعلومات التي تمكنها من اقتحام الجوانب الحضارية، بكل معطياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ولا يخامرنا شك في أن كتب التراجم والطبقات، أصبحت اليوم من أهم المظان التي يعول عليها الباحثون في رصد المادة الحضارية والتاريخية، لما تحويه من معلومات اقتصادية واجتماعية قل نظيرها.

وإذا كانت الخزانة الأندلسية زاخرة بكتب من هذا القبيل ككتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (تـ سنة 403 هـ)، وجذوة المقتبس للإمام أبي نصر الحميدي (تـ سنة 488 هـ)، وترتيب المدارك للقاضي عياض (تـ سنة 544 هـ)، وكتاب الصلة لابن بشكوال (تـ سنة 578 هـ)، وبغية الملتمس لأحمد بن عميرة الضبي (تـ سنة 599 هـ)، وكتابي الحلة السيراء والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (تـ سنة 658 هـ)، والديباج المذهب لابن فرحون (تـ سنة 799 هـ)، وغير ذلك من مصادر التراجم، فإن ثمة كتبا أخرى تنتمي لهذا الفن بعينه لازالت مخطوطة[1]، ولعل أهمها كتاب «أخبار الفقهاء والمحدثين» لمحمد بن حارث الخشني (تـ سنة 361 هـ)[2].

ويعد هذا الكتاب من أقدم المخطوطات الموجودة في الخزانة الحسنية، وهو مبتور من أوله، ويتضمن 182 ورقة غلب عليها اللون الأسود، وكادت أن تتلاشى لولا أن تم ترميمها وقد نسخ في القرن الخامس الهجري إذ نجد بآخرة : «تم الكتاب والحمد لله حق حمده وصلى الله على محمد وعلى آله، وكان ذلك في شعبان من عام ثلاث وثمانين وأربعمائة». أما الخط الذي كتب

---

1) مثل كتاب «فقهاء مالقة» أو «أعلام مالقة» لمحمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني المعروف بابن عسكر (تـ سنة 636 هـ). وهو موجود بالخزانة الحسنية (مصور) تحت رقم 11055، ثم كتاب «طبقات المالكية» لمؤلف مجهول عاش ما بعد سنة 1025 هـ، وهو موجود بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3998 D.

2) توجد نسخة منه في الخزانة الحسنية تحت رقم 6916.

به فهو عبارة عن خط أندلسي جيل وواضح. غير أن التآكل الذي حدث بفعل الرطوبة، يجعل مهمة قارئه عسيرة في بعض الأحيان.

ويحوي الكتاب بين دفتيه تراجم عديدة لطبقات الفقهاء الأندلسيين منذ فتح الأندلس حتى عصر المؤلف. وتكمن أهميته في أنه أول كتاب أندلسي في التراجم حسبما نعلم من خلال ما كشف عنه المختصون بالتراث الأندلسي.

ويبدأ مؤلفه التراجم بحرف الألف على عادة المؤلفين في هذا الفن، لكنه يقفز بعد ذلك إلى حرف النون والميم والشين والواو والياء، ثم نجد الموضوع يتغير بعد ذلك، فيتحول إلى كتاب يعالج المسائل الفقهية، فيعرض المؤلف ضمن أبواب خاصة لأحكام العقود وأحكام الرضاع والحج والصلاة الخ... الشيء الذي يستشف منه أن أوراق مخطوطة ثانية قد اختلطت مع أوراق كتاب الخشني، مع أن نفس خط الناسخ يستمر، وهو ما يدل على أن هذا الأخير نسخ النسختين معا. لكن هذه الأغراض الفقهية لا تأخذ حيزا واسعا، إذ سرعان ما يرجع المؤلف مرة أخرى لمتابعة سلسلة تراجمه، فيترجم ليحي بن يحي الليثي، ثم يعقبه مباشرة بترجمة أعلام من حرف الميم والعين والزاي والفاء والميم، ثم يرجع مرة أخرى إلى حرف الألف[3].

ونرجح أن هذه الفوضى في الترتيب لم تكن ماثلة في الكتاب الأصلي الذي ألفه الخشني في القرن الرابع الهجري، شفيعي في هذا الاستنتاج أن ابن الفرضي الذي نقل عن هذا الأخير كثيرا من تراجمه، اتبع نفس الترتيب

3) راجع فهرس قسم التاريخ والرحلات الذي وضعه محمد عبد الله عنان ضمن فهارس الخزانة الحسنية ص 24. طبعة الرباط 1980.

الأبجدي الذي كان عادة سارية، وسنة متبعة لدى أصحاب التراجم. ومعلوم أن ابن الفرضي عاش قريبا من عصر الخشني.

هذا عن وصفه المخطوطة، أما صاحبها فهو محمد بن حارث الخشني، عاش في القرن الرابع الهجري إذ توفي سنة 361 هـ وكان من المقربين من الخليفة الحكم المستنصر غير أنه عرف بنفوره من خدمة السلاطين، وقوله للحق، لا تأخذه في ذلك لومة لائم إلا أنه استفاد من خزانة هذا الخليفة الذي عرف بتعطشه للعلم والعرفان، وعطفه على العلماء. فكان يعتمد على ما فيها من مصادر ووثائق وسجلات يندر وجودها في مكان آخر، ويشغلها في التأليف. كما أن تصفح كتابه يظهر أنه أخذ كثيرا من الروايات من مظانها الأصلية، أو من الأخبار التي كان يتناقلها الناس. أما عن علمه وثقافته الواسعة، فذلك أمر لا يرقى إليه الشك، حتى أن كثيرا ممن نقلوا عنه سواء من مؤرخي الأندلس أو غيرهم، قد أثنوا عليه، وأبرزوا طول باعه في مختلف العلوم.

وقد اتبع منهجا على غرار ما نعرفه لدى أصحاب التراجم، فهو يعرض للشخص المترجم له، ولشيوخه الذين أخذ عنهم. وتلامذته الذين تتلمذوا على يده، ثم يصف رحلاته، ويذكر سنة وفاته، وثمة فقهاء لم يخصص لهم سوى بضعة سطور، بينما نجده يسهب في ترجمة البعض منهم كما هو الحال بالنسبة ليحيى بن يحيى الليثي، وغالبا ما يأتي عند ترجمة كل علم من الأعلام بذكر اثنين أو ثلاثة على الأقل من شجرة نسبه، متوخيا في ذلك الدقة، مع ضبط الأسماء والتواريخ.

والجدير بالذكر أنه اعتمد على مصادر متعددة ذكرها ضمن سرده لأسماء الفقهاء. وأهم من تم الاعتماد عليهم خلد بن سعد الذي يتردد كثيرا ضمن

مصادره، كذا ابن لبابة، وابن حنين، وقاسم بن أصبغ، ومحمد بن أيمن وغيرهم، وفي بعض التراجم يستعمل عبارة «ذكر بعض أهل العلم»، وهي عبارة يستشف منها أنه استقى معلوماته من رجال الدين وليس من المؤرخين، إلا أن ذلك لا ينفي اقتباسه كثيرا من الروايات من رجال الأدب، أو من الحلقات الدراسية التي كانت تعقد في قرطبة، كما أن مصدر السماع شكل حيزا هاما فيما أورده من أخبار، إذ تتواتر كلمة «سمعت» بين الفينة والأخرى، بينما تندر عبارات «حكى لي» أو «قالوا». فإذا حدث أن وردت مثل هذه المصادر المشكوك في صحتها، فإنه يرجعها إلى مظانها الأصلية، الشيء الذي يؤكد اعتماده على مصادر موثوق بها.

ويزيد في قيمة الروايات التي تتضمنها المخطوطة، ما اشتملت عليه من أخبار العوام والبسطاء التي تعز أخبارهم في المصادر المتواترة، وفي تعدد هذه الروايات، وترجيح بعضها عن الأخرى، ما ينهض دليلا على أنه كان يسعى إلى تحري الحقيقة.

وتتجلى قيمة المنهج الذي اتبعه المؤلف كذلك في خلو إنتاجه في الغالب الأعم من التفسيرات الغيبية، وتدخل القوى الخارقة في مجرى الأحداث، الشيء الذي لا يجعله يحيد عن الموضوعية والنزاهة، بل إن الناقد لا يلاحظ عصبية سياسية، أو تملقا لجهة معينة، أو تعصبا ينطق بالهوى، فهو يعرض للفقهاء المالكيين بنفس الوتيرة التي يعرض بها لغيرهم من فقهاء المذاهب الأخرى. كما أن أسلوبه السلس يجعل مهمة الدارس مهمة يسيرة.

وقد أفاد هذا المنهج في ورود نصوص وروايات يندر وجودها في مصادر أخرى، وهي تفيد في تحري التاريخ الاقتصادي الاجتماعي هذا فضلا عن وجود وثائق هامة جدا ترد في بعض صفحات الكتاب مثل الرسالة

التي بعثها الحكم الربضي إلى الفقيه يحي بن يحي الليثي الذي كان قد شارك في ثورة الربض سنة 202 هـ ثم رسالة مماثلة وجهها نفس الأمير إلى الفقيه عيسى بن دينار، مما يجعلنا نؤكد نفاسة المخطوطة التي نحن بصددها كمصدر من مصادر التاريخ الأندلسي.

ونشير أخيرا إلى أن هذه المخطوطة تعتبر من المصادر الهامة التي اعتمد عليها ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الأندلس حيث يلاحظ اقتباسه الواضح منه. وأحيانا نجده يقر بذلك صراحة كما حدث عند ترجمته لزكرياء ابن زرقون حين ذكر العبارة التالية : «قرأت بخط ابن حارث»[4]. وما يقال عن ابن الفرضي يقال كذلك عن القاضي عياض.

وبعد هذا الوصف للمخطوطة ومؤلفها، ومنهجه وأهميته في دراسة التاريخ الأندلسي، نحاول إعطاء بعض النماذج المختلفة والرويات التي تشملها المخطوطة، والتي نعتقد أنها جديدة لم ترد في المصادر الأخرى، وإن وردت فإنما عن طريق النقل والاختصار مما يكشف النقاب عن «أصالتها».

أولا : وثيقتان :

الوثيقة الأولى عبارة عن رسالة بعث بها الحكم الربضي[5] (180 - 206 هـ) إلى الفقيه يحي بن يحي الليثي[6]، وهي تتضمن عفو الأمير المذكور

---

4) انظر : تاريخ علماء الأندلس. القسم الأول ص 151 طبعة مصر 1966.

5) هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن يكنى بأبي العاصي ولد سنة 154 هـ وتولى الحكم بعد موت أبيه عبد الرحمن الداخل سنة 180 هـ وهو ابن ست وعشرين سنة، وقد عرف بقوته وحزمه وخاصة في وقعة الربض التي بطش فيها بعدد من الأرواح. وقد توفي سنة 206 هـ بعد أن دامت خلافته 26 سنة.

6) هو يحي بن يحي بن كثير المكنى بأبي عيسى، وردت ترجمته عند ابن الفرضي في القسم الثاني من كتاب تاريخ علماء الأندلس ص 179 طبعة مصر 1966 وهو الذي وصفه محمد بن عمر بن لبابة بأنه عاقل الأندلس. توفي سنة 234 هـ.

على هذا الفقيه إثر انتهاء ثورة الربض التي حدثت بقرطبة سنة 202 هـ، والتي حرض عليها الفقهاء. وقد وردت في الوجه الأول من الورقة 38 من المخطوطة، وهاك نصها :

«أما بعد، فقد بلغني كتابك عما سألت من أمانك ورجائك[7]. وقد بعثنا إليك بأمانك برد مالك عليك، وتقدمنا إلى أصبغ إلحاق صاحبيك بك إذ وافقك ذلك حسن عائدة عليك والله المستعين».

أما الوثيقة الثانية فهي أيضا رسالة وجهها الحكم الربضي إلي فقيه آخر هو عيسى بن دينار في نفس المعنى. وقد وردت في الوجه الأول من الورقة رقم 162 وهذا هو نصها :

«كتاب من الحكم بن هشام لعيسى بن دينار[8] أني أمنته على دمه وشعره وبشره وأذنت له في اللحاق ببلده أو جبت أحب المقام من جميع كورنا[9]، وجعلت له بذلك عهد الله جل وعز، وذمة النبيئين وذمة محمد ﷺ وذمة الخلفاء رضي الله عنهم ألا أتعقبه بمكروه، ولا أقدم له في سوء ولا أؤخر ما وفى واستقام، وناصح، ولم يحدث حدثا ينقص ما فعلت له، والله عز وجل على ذلك شهيد وبه وكيل».

---

7) وردت في الأصل هكذا : ورج... (كلمة غامضة) اعتقدنا أنها : ورجائك.

8) هو عيسى بن دينار بن واقد، أصله من طليطلة وسكن قرطبة ترجم له ابن الفرضي فقال بأنه كان عالما متفننا مفتيا. وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول فيه : فقيه الأندلس عيسى بن دينار. وقد توفي سنة 212 هـ. انظر عن ترجمته تاريخ علماء الأندلس. القسم الأول. ص 331 وكذلك ترتيب المدارك للقاضي عياض ج 4 ص 105 وما بعدها، طبعة المحمدية.

9) الكور جمع كورة وهي مقاطعات تضم إليها المدن الأندلسية. راجع حسين مؤنس : فجر الأندلس ص 665 وما بعدها طبعة القاهرة 1959.

ثانيا : في التاريخ الاجتماعي :

يمدنا الخشني في كتاب «أخبار الفقهاء والمحدثين» بسيل من النصوص، على جانب عظيم من الأهمية. فقراءة التراجم التي أوردها، تكشف النقاب عن الوضعية الاجتماعية المتألقة التي تميز بها الفقهاء ضمن شرائح المجتمع الأندلسي. فعندما يترجم للفقيه حوشب بن سلمة[10] يقول : «ذكر أن حوشب بن سلمة هذا كان من المشاهير في العلم والفضل والخير والزهد، وكان ذا قدر عظيم ومال عريض وجاه جليل. ولاه الخليفة محمد رضي الله عنه قضاء تطيلة»[11].

وعن فقيه آخر هو ابن زرقون[12] من أهل وشقة يذكر ما يلي : «يكنى بأبي يحي، وكان حسن العلم، وكان مقصودا يجتمع إليه الناس، ويصدرون عن رأيه، ويجلون أمره، ويلتزمون بقوله، وكان ذا جاه عظيم ومال عريض، كانت له هبات وعطايا»[13].

ونفس القول ينسحب على فقيه آخر هو عبد الرحمن بن سعيد التيمي المكنى بأبي زيد[14] حيث يقول عنه الخشني أنه «كان ذا مال واسع، كبير الجاه»[15].

---

10) انظر عن ترجمته كذلك ابن الفرضي : م.س. القسم 1 ص 128.

11) أخبار الفقهاء والمحدثين : ورقة 151 الوجه 2.

12) كانت وفاته في أيام الأمير عبد الله (275 ـ 300 هـ) انظر نفس المصدر ص : 60 الوجه الأول.

13) نفس المصدر والصفحة.

14) كان من المشاورين للأمير محمد وكانت وفاته سنة 275 هـ، انظر ن.م ورقة 54.

15) ن.م.ص.

هـذه إذن نصوص على سبيل المثـال ـ لا على سبيـل الحصر ـ تـوضـح المكانة المرموقـة التي تبوأهـا الفقهـاء اجتماعيـا، وتوضح نصوص أخرى نفوذهم السياسي الذي جاء انعكاسا لنفوذهم الاجتماعي، مكان الأمراء لا يقدمون على أمر أو يؤخرونـه إلا بمشورتهم، وفي هـذا الصـدد يورد الخشني من الروايـات ما يدل على ذلك، ومنها الرواية التاليـة التي وردت في الورقـة 95 : «قـال أحمد بن مخلد[16] : وبعث الخليفة محمد رحمه الله يوما في الفقهاء، وقعد لهم، وسألهم عن إغرام العمال، وأشار عليه بعضهم بمشاطرتهم»[17].

إلا أن أهميـة كتـاب «أخبـار الفقهـاء والمحـدثين» تكمن في أن بعض النصـوص تميـط اللثـام ـ لأول مرة حسبمـا نعلم ـ عن النفـوذ الاجتماعي والسياسي للفقهاء الذين عاشوا في كنف الإمارات الانفصاليـة التي انسلخت عن حكومة قرطبـة، طوال الفترة الممتـدة من سنـة 250 إلى حوالي 300 هـ لأن المصادر الأخرى لم تهتم في الغالب سوى بالفقهاء المحيطين بـأمير قرطبـة. وسنعرض هنا بعض النصوص التي تشير إلى وضعية فقهاء الإمارات المستقلة المعارضة للحكم المركزي.

فعنـدمـا يترجم الخشني لمحـمـد بن جنـادة[18] يقـول : «ثم انفرد بـالعلم والرياسة في الكورة إلى أخريات إبراهيم بن حجاج[19] وكان إبراهيم يـدخل

---

16) هو أحمد بن بقي بن مخلد من أهل قرطبة يكنى أبـا عبـد اللـه وكان قـاضي قرطبـة، اتصف بالزهد، وتوفي سنة 344 هـ. انظر ابن الفرضي : م.س القسم 1 ص 33.

17) أخبار الفقهاء : ورقة 95 الوجه 2.

18) عاش في النصف الثاني من القرن الثـالث الهجري : وكان لـه نفوذ كبير حيث استطـاع أن يعزل أحد العمال الذين عينهم الأمير محمد على اشبيلية انظر عيـاض : ترتيب المدارك ج 4 ص 467.

19) هو إبراهيم بن حجاج أحد حفدة الجنود البلديين الذين تصرفوا للإمارة في قيادة الصوائف، استغل الانتفاضـة التي عرفتهـا مـدينـة اشبيليـة في منتصف القرن الثـالث الهجري بزعـامـة

عليه ويكثر زيارته فلا يتحرك لدخوله ولا لخروجه عنه»[20]، مع أن إبراهيم هذا، كان أميرا لإمارة اشبيلية، مهاب الجانب حتى من قبل إمارة قرطبة، أما عن محمد بن فرج الأموي من أهل ريه فيذكر عنه ما يلي : «كان أشراف الكور من الأموية والجند يقصدونه معظمين ومسلمين عليه»[21].

ولعل النفوذ السياسي للفقهاء في الإمارات المستقلة يظهر بكيفية أوضح في ترجمة منذر بن حزم[22] في إمارة بطليوس التي استقل بحكمها عبد الله بن محمد بن مروان الجليقي[23]، وكذلك الحال بالنسبة لحسن بن شرحبيل[24]. فبالنسبة للأول يقول عنه المؤلف : «كان عريض الجاه، عظيم الحرمة، بصيرا بالرأي والعلم، وكانت تنفذ كتبه في السبي بأرض الحرب... وكان قد فوض إليه أحكام بطليوس عبد الله بن محمد الجليقي، وكان بتلك

كريب بن عثمان أحد أفراد أسرة بني خلدون، وسجن ثم أطلق سراحه واقتسم حكم المدينة مع بني خلدون، إلا أنه استقل نهائيا بحكم المدينة سنة 286 هـ. وعن نسب أسرة بني حجاج انظر ابن حزم جمهرة الأنساب. أما عن أخبار إبراهيم بن حجاج فانظر : ابن حيان : المقتبس القطعة الخاصة بالأمير عبد الله نشر أنطونيا ص 11 وما بعدها، طبعة باريس 1937.

20) الخشني : م.س. ورقة 83 الوجه 2.

21) نفسه ورقة 19 الوجه 2.

22) هو منذر بن حزم يكنى أبا الحكم، سمع من محمد بن وضاح وإبراهيم بن قاسم والخشني وغيرهم كان صاحبا لمحمد بن عمر بن لبابة، حافظا للرأي، ولي الصلاة ببطليوس. انظر ابن الفرضي : م.س. القسم 2 ص 143.

23) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن مروان الجليقي حفيد مؤسس إمارة بطليوس. توفي سنة 311. وعن نسب أسرة الجليقي راجع : عبد الرحمن حجي : أندلسيات. المجموعة الثانية ضمن جداول الأنساب التي يوردها.

24) توفي هذا الفقيه في أواخر عهد الأمير عبد الله.

الحال إلى أن مات»[25]. أما حسن بن شرحبيل فيخصه بهذه الترجمة : «كان فقيها عالما عظيم القدر في موضعه، نافذ الأمر، ماضي العزم وكان صاحب البلد يجله وينفذ أمره»[26].

أما الآن فسنعمل على إثبات الترجمة الأصلية لمحمد بن جنادة، وهي الترجمة التي نقل عنها بعض أصحاب التراجم كالقاضي عياض (تـ نسة 544 هـ) مثلا، وهي تتضن رواية تدل على الوزن السياسي للفقهاء، وتظهر في نفس الوقت استبداد عمال الكور، وهاك نصها :

«قال لي محمد بن غالب (....)[27] الخليفة محمد رحمه الله عاملا من عماله يعرف بابن كوثر اشبيلية، فلما احتل بها، جار وعنف وأساء السيرة، وتحمل وجوه البلد وفيهم محمد بن جنادة إلى باب الخليفة محمد رحمه الله فتظلموا وشكوا، فخرج فتى من عند الخليفة رضي الله عنه إلى القوم وهم في مجلس الوزراء فقال يقول لكم الأمير ما رأينا في أجنادنا ولا في أهل كورنا قوما أكذب منكم، تظلمتم من عاملنا ولم يقم عندكم إلا أربعين يوما، فماذا عسى أن يفعل في أربعين يوما. فاندفع محمد بن جنادة فقال : قد نزل علينا المجوس[28] ثلاثة[29] أيام غنمهم أنفسنا، ونحاربهم بسيوفنا، فما بقي علينا

---

25) الخشني : م.س ورقة 108 الوجه 2.

26) نفسه. ورقة 108 الوجه 2.

27) كلمة غامضة في النص الأصلي وهي : ولي.

28) المجوس هم النورمانديون، وهم البحارة الذين كانوا يأتون من السواحل السكندنافية ويغيرون على السواحل الأوروبية وضمنها سواحل الأندلس. وتشير إليهم المصادر العربية باسم المجوس أو الأردمانيين. ويعتقد المسعودي أن أصلهم من الروس، انظر كتابه مروج الذهب ج 1 ص 163 طبعة 1964 (الرابعة).

29) في النسخة الأصلية : ثلثة.

سيد ولا لبد فكيف بعدما سلك لا نكلمه بلسان، ولا نرفع إليه يدا، أقام فينا أربعين يوما. فلما دخل الفتى بالواحد منهم تكلم به قال أخرج فتعرف من هو فخرج إليه فسأل عنه بعض[30] أصحابه فقيل له محمد ابن جنادة الفقيه. فلما انصرف وأعلمه رحمه الله بذلك قال صدق[31]. ومن يأتي بمثل هذا إلا فقيه، ثم عزل ابن كوثر، وأغرمه غرماء[32].

وعن النزاع الذي كان قائما على قدم وساق بين عناصر من العرب والمولدين، يزودنا كتاب، أخبار الفقهاء بهذا النص عندما ترجم للفقيه قاسم بن محمد[33] : «فناظر المولدين لما أخرجوا العرب وسفكوا دماءهم، فلم تكن لهم حجة أكثر من أن قالوا كانوا يسعون بنا إلى العمال»[34].

وثمة ظاهرة اجتماعية يشير إليها الكتاب في رواية يبدو أنها لم ترد في المصادر الأخرى، عندما كان المؤلف يترجم لأسلم بن عبد العزيز[35] واصفا زهده حيث قال : «كنت ربما أمشي معه في أزقة قرطبة، فإذا نظر في

30) وردت في الأصل هكذا : بعـ

31) وردت في الأصل : دق

32) الخشني: م.س ورقة 53 الوجه 1 وقد أورد القاضي عياض هذه الرواية في ترتيب المدارك ولكن مع بعض الاختلاف مع هذه الرواية الأصلية انظر هذا المصدر ج 4 ص 467.

33) ترجم له ابن الفرضي فقال أنه كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد، وذكر أنه توفي سنة 278 هـ نقلا عن الرازي. انظر : تاريخ علماء الأندلس القسم الأول ص 357. وانظر عن ترجمته كذلك : مجهول : كتاب طبقات المالكية. مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928 D. ص 103.

34) الخشني : م.س ورقة 89 الوجه 1.

35) هو أخ هاشم بن عبد العزيز الحاجب المشهور وقائد الصوائف في عهد الأمير محمد ويرجع نسبه إلى أبان بن عمرو مولى عثمان بن عفان.

موضع خال، إلى ضعيف أو محتاج نزع أحد ثوبيه اللذين كان يلبسه ويكسوه إياه»[36].

ثالثا : الجانب الاقتصادي :

تضمن كتاب «أخبار الفقهاء والمحدثين ببعض النصوص التي تهم الجوانب الاقتصادية التي تعالج بعضها ملكية الأرض[37]، ومنها هذه الرواية التي وردت في ترجمة يحي بن إبراهيم ابن مزين[38] : «قال محمد ذكر بعض الرواة قال : لما ثار أهل طليطلة على الحشم وأمروا حارث بن بزيغ، وخرج عنها الولد سعيد بن عبد الرحمن مع الحشم، خرج يحي بن براهيم بن مزين معه بأهله وولده وقدم قرطبة ونزل عند يزيد بن العطاف جد ابن أبي العطاف، وتوسع له وأجرى القطائع الواسعة عليه. وأنهى خبره إلى الخليفة محمد رحمه الله، فأخرج إليه صلة جزلة، وابتنى له دارا سوية، وأقطعه القطائع والقرى الشريفة»[39].

ومن المعلوم أن النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شهد صراعات داخلية ضارية تركت أثرها السلبي على الزراعة. وفي هذا الصدد يأتي

---

36) الخشني : م.س ورقة 143 الوجه 2.

37) ثمة نصوص أخرى لم نوردها لأنها وردت في مصادر أخرى ولو بشكل متشابه.

38) ترجم له ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس القسم الثاني ص 181 ولكنه لم يذكر هذا النص الذي ورد عند الخشني حول إقطاعه الأرض. ويحي بن إبراهيم بن مزين هو مولى رملة بنت عثمان كان حافظا للموطأ، مشاورا مع العتبي وابن خالد ونظرائهم، له عدة مؤلفات منها كتاب في فضائل العلم توفي سنة 259 هـ.

39) الخشني : أخبار الفقهاء ورقة 174 الوجه 1 ويلاحظ بعض التشابه مع ما أورده السلمي في كتاب طبقات الصوفية عن هذا الأخير.

الخشني بنص جديد حول أثر هذه الحروب على الزراعات الشجرية يقول فيه متحدثا عن عمر بن حفصون[40] : «فحاربهم ثلاثة أيام، وقطع قطعا من شجرهم ثم انصرف في اليوم الرابع»[41].

وفي إطار سرده لترجمة أيوب بن سليمان المعافري[42]، يتحدث عن الحسبة في الأسواق فيشير إليها بطريقة عرضية بقوله : «ولاه الخليفة عبد الله السوق بقرطبة»[43].

رابعا : الجانب السياسي :

أما الجانب السياسي، فثمة روايات من الخطورة بمكان، كمثل هذه الرواية التي تنهض دليلا على السلطة التي استأثر بها زعماء الكيانات المنفصلة عن قرطبة، وتأسيسهم لحكومات محلية، بل استوزارهم لبعض الوزراء كما تشهد على ذلك هذه الرواية التي وردت عندما كان يترجم للفقيه عبد الله بن الحسن المعروف بابن السندي[44] من أهل وشقة. يقول

---

40) هو عمر بن حفصون سليل أسرة من المولدين، اعتنق جعفر جده الرابع الإسلام. وقد بدأ نجمه في الظهور منذ سنة 250 هـ، وقد اشتهر بثورته على الإمارة الأموية طوال نصف قرن إلى أن أخضعه عبد الرحمن الناصر، وتوفي سنة 305 هـ، جميع المصادر العربية تتحدث عن حركته خاصة ابن حيان في كتابه المقتبس القطعة الخاصة بالأمير عبد الله. وكذلك ابن عذاري في بيانه ج 2 انطلاقا من ص 106.

41) الخشني : م.س ورقة 5 الوجه 1.

42) عاش في أواخر عصر الإمارة.

43) الخشني : م.س ورقة 128 الوجه 1.

44) من تلامذة يحي بن عمر بإفريقية، قرأ عنه الموطأ ثم رجع إلى الأندلس وتولى القضاء للخليفة عبد الرحمن الناصر على مدينة وشقة وأحوازها. عرف بتعصبه الشديد للمولدين ضدا على العرب وقد توفي سنة 335 هـ حسب ما ذكره الرازي، وتجدر الإشارة إلى أن ابن الفرضي ترجم له في تاريخه، ولكنه لم يذكر عنه هذه الرواية التي أوردها الخشني.

المؤلف عنه «اكتسب أموالا عظيمة وأفاد نعما جليلة... وكان شديد العصبية للمولدين، وعظيم الكراهية للعرب... وكان عبد الملك بن محمد الطويل[45] وفرتون أخوه بعده قد علما ذلك منه فاستوزراه طول أيامه وما يصدر إلا عن رأيه»[46].

ولاشك أن بعض النصوص التي ذكرناها سلفا توضح هذه الظاهرة الخطيرة الشبيهة بالنظام الاقطاعي في أوروبا من ناحية ضعف السلطة المركزية، واستئثار أمراء الاقطاع بالسلطات الفعلية[47]. وهذا ما تشير إليه نصوص الخشني حين يستعمل بالنسبة لأمير بطليوس مثلا عبارة «صاحب البلد»[48].

خامسا : الجوانب الفكرية :

إن مصادر الترجمة التي ألفت بعد عصر الخشني، لم ينقل أصحابها عن هذا الأخير نقلا حرفيا، ومن ثم فرغم ورود تراجم بعض الأعلام ضمن

---

45) عبد الملك بن محمد الطويل هو أحد الأمراء المستقلين في الثغور، وبالضبط في إمارة وشقة، تغلب على حاكم هذه الإمارة وهو عروس بن عمر سنة 273، وخاطب إمارة قرطبة التي أقطعته الإمارة إقطاع تسجيل حسب التعبير الذي تردد في مصادر تلك الحقبة ويرجع الفضل إليه في رد الهجات النصرانية من الشمال، واكتساح بعضها كمملكة ناڤار سنة 299 هـ حتى استشهد مجاهدا سنة 301 هـ. راجع ابن عذاري : البيان ج 2 ص 164 و Histoire de l'Espagne musulmane. TOM II p 323 : Provençal Leiden 1950

46) الخشني : م.س ورقة 77.

47) بغية الإفادة من هذا الموضوع، يستحسن الرجوع لرسالتي التي هيأتها لنيل دبلوم الدراسات العليا «أثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي» الفصلان الأول والثاني من الباب الثاني. وتوجد نسخة من الرسالة في الخزانة العامة بالرباط.

48) الخشني : م.س ورقة 146 وجه 2.

مؤلفاتهم، فإنها بقيت خالية من بعض التفاصيل التي نجدها في مخطوطة «أخبار الفقهاء والمحدثين، ومن ثم تبدو أهميتها في إبراز بعض العناصر الجديدة. من ذلك مثلا الأوضاع الفكرية في الإمارات الأندلسية المستقلة في أواخر عصر الإمارة. فروايات الخشني تنير بعض الزوايا المظلمة من هذه الإمارات التي سكتت عنها المصادر الأخرى كإمارة بجانة[49] التي ازدهرت فيها العلوم الدينية، وتتلمذ أهلها على كثير من الفقهاء من أمثال وهب بن عمر[50]، وذلك ما تؤكده رواية الخشني حين يترجم لهذا الفقيه بقوله : «أخذ عنه جماعة من أهل بجانة»[51] كذا الحال بالنسبة لمحمد بن يزيد بن أبي خالد الأنصاري[52] الذي اتجهت إليه أنظار حكام هذه الإمارة المستقلة ليرتشفوا من حياض نبعه، وهو ما يؤكده الخشني بقوله : «كان الحكام ببجانة يقصدونه»[53].

---

49) كانت هذه المدينة في بداية الأمر مجموعة من الأراضي أقطعها الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني للعرب اليمنيين لحراسة شواطئ الأندلس. ومنذ ذلك الوقت عرفت باسم أرش اليمن إلا أنها تطورت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما قدم إليها بعض التجار، فاتصلوا بعرب اليمن وتباحثوا معهم في مشروع إقامة ما يشبه الجمهورية البحرية، فتم الاتفاق على ذلك ونصبوا على أنفسهم زعيما يدعى عبد الرزاق بن عيسى بن أسود. عن هذه الإمارة انظر : السيد سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص 23 وكذلك الحميري : الروض المعطار ص 38 وكذلك ابن حيان : المقتبس القسم الخاص بالأمير عبد الله ص 88.

50) عن ترجمته انظر ابن الفرضي : م. س ص 164 من القسم الثاني.

51) الخشني : م. س. ورقة 28 الوجه 2.

52) توفي سنة 317 هـ.

53) الخشني : م. س ورقة 45 الوجه 2

ونعرف لأول مرة كذلك أن إمارة بطليوس كانت تعج بالعلماء والمناظرات الفقهية. دليلنا على ذلك قول الخشني في ترجمة حزم بن الأحمر: «كان مفتيا في البلد، ومناظر لأهل العلم ومات ببطليوس»[54].

وتبرز أهمية روايات المخطوطة التي نحن بصدد دراستها في الكشف عما اتصف به الأمراء من عطف على العلماء، وتشجيعهم إلى حد الإغداق عليهم بالهبات والصلات والانعامات، وفي ترجمة محمد بن يوسف بن مطروح[55] ما يدل على ذلك:

«هو محمد بن يوسف بن مطروح بن عبد الملك... ممن عني بالعلم العناية الكاملة، وكان محمد بن يوسف هذا أحد الأربعة الشيوخ الذين كانوا يدخلون على الخليفة محمد رحمه الله للإشهاد وهم أصبغ بن خليل[56]، وبقي بن مخلد[57] ومحمد بن يوسف وسليمان بن أسود[58]... وكان الخليفة محمد يتفمده بصلاته ويعرف له حق علمه وفضله ويرعى له ذمائم ولائه وحرمة

---

54) نفسه ورقة 150.

55) وردت إشارة عن محمد بن يوسف بن مطروح عند ابن حيان في كتاب المقتبس القطعة الخاصة بمعظم عصر الأمير محمد والتي نشرها محمود مكي سنة 1973 انظر ص 190 ـ 191.

56) انظر عن ترجمته ابن الفرضي: م. س القسم الأول ص 77.

57) هو الفقيه الشهير بقي بن مخلد (201 ـ 276 هـ) الذي كان حامل لواء العلم في الأندلس. وقد أثنى عليه أصحاب التراجم، ألف عدة كتب منها «تفسير القرآن» وقد تعرض لهجوم عنيف من قبل فقهاء الأندلس، إلا أن الأمير محمد شمله بحمايته. انظر عن ترجمته ابن الفرضي: م.س القسم الأول ص 91 ـ 93 وكذلك عند المقري: نفح الطيب ج 2 ص 47 طبعة بيروت 1968.

58) هو سليمان بن أسود بن سليمان بن حشيب من أهل قرطبة ولاه الأمير محمد منصب القضاء ذكر ابن الفرضي أنه توفي وهو ابن خمس وتسعين سنة. انظر تاريخ علماء الأندلس ص 185 القسم الأول.

سلفه، وكان محمد بن يوسف متحاملا على قاسم بن محمد، وكان الخليفة محمد رضي الله عنه يعرف ذلك منه فأخرج يوما مائتي دينار صلة»[59].

وهناك نص آخر في نفس المعنى عن عبد الأعلى بن وهب[60] : «فأدرك عبد الأعلى بن وهب أيام الخليفة محمد رضي الله عنه، وكان كثيرا ما يوصله إلى نفسه»[61].

ومن أهم الروايات التي تضمنتها مخطوطة كتاب أخبار الفقهاء والمحدثين كذلك، تلك التي توضح تواجد مذاهب أخرى فقهية إلى جانب المذهب المالكي ـ المذهب الرسمي للدولة ـ وهذه الظاهرة تتواتر في مصادر التراجم المختلفة، إلا أن روايات الخشني في هذا الشأن ذات طابع فريد يتميز بأهميته من ذلك مثلا هذه الرواية التي جاءت في ترجمة قاسم بن محمد[62] :

«قال لي أحمد بن مخلد : كان قاسم بن محمد ربما اعتقد أن الصواب في بعض المذاهب التي تخالف مذهب مالك رحمه الله، فإذا أتى المستفتي وأفتاه بمذهب مالك، عاتبه في ذلك»[63].

وفي نفس السياق جاء في ترجمة هارون بن نصر[64] :

---

59) الخشني : م.س ورقة 42 الوجه 2.

60) انظر ترجمته عند ابن الفرضي : م.س القسم الأول ص 280.

61) الخشني : م.س ورقة 95 الوجه 2.

62) انظر ترجمته عند ابن الفرضي : م.س القسم الأول ص 356 ـ 357 وكذلك عند القاضي عياض : ترتيب المدارك ج 4 ص 446.

63) الخشني : م.س ورقة 88 الوجه 1.

64) انظر عن ترجمته : ابن الفرضي : م.س القسم الثاني ص 169.

«كان من أهل الخير والفضل، صليت إلى جانبه في مسجد صلاة، فجهر فيها الإمام بالقراءة. كنت أسمعه يقرأ بأم القرآن خلف الإمام سرا أسمع منه الحرف بعد الحرف يذهب في ذلك إلى مذهب الشافعي»[65].

ولإبراز «الجديد» في الروايتين الآنفتين، يمكن مقارنتها مع مصادر الترجمة الأخرى. ولنأخذ ابن الفرضي على سبيل المثال باعتباره أقرب زمنيا إلى الخشني، واعتماده الكبير عليه.

فبمطالعتنا لترجمة قاسم بن محمد في تاريخ علماء الأندلس، نجد ابن الفرضي يوضح فعلا أنه كان يأخذ بالمذهب الشافعي حيث يقول عنه : «وكان يذهب مذهب الحجة والنظر، وترك التقليد، ويميل إلى مذهب الشافعي»[66]. وهو ما يؤكده الخشني غير أن الرواية تختلف في إثبات ذلك، ورواية الخشني هنا هي بمثابة «نموذج تطبيقي» أخذه من الفتيا كما أوردنا أعلاه.

ونفس القول ينسحب على الترجمة الثانية الخاصة بهارون بن نصر فالمؤلفان معا يتفقان على شافعية هذا الأخير، ولكنهما يختلفان في الرواية التي تدل على ذلك فبينما يسرد الخشني طريقة الصلاة لدى هارون بن نصر للدلالة على أخذه بالمذهب الشافعي، وهو ما يؤكد مرة أخرى انتقاءه لروايات من «الممارسة» ذاتها، يقتصر ابن الفرضي على ذكر أنه «مال إلى كتب الشافعي فعني بها، وحفظها، وتفقه فيها، وكان من أهل النظر والحجة»[67].

---

65) الخشني : م.س ورقة 26 الوجه 2.

66) تاريخ علماء الأندلس. القسم الأول ص 356.

67) نفسه. القسم الثاني. ص 169.

وبعد، فهذه نماذج من النصوص التي يحويها كتاب أخبار الفقهاء والمحدثين بين دفتيه، وقد أوردناها على سبيل المثال ـ لا على سبيل الحصر ـ الشيء الذي ينم على أنه بإمكان الباحث رصد مادة هامة لتطعيم الدراسات التي تعالج تاريخ الأندلس الحضاري والفكري منه على وجه الخصوص، ولذلك لا نتردد في الجزم بأن هذه المخطوطة تعد من أمهات المصادر في التاريخ الأندلسي، وأن همة الباحثين والمحققين يجب أن تتجه إليها لنشرها وإخراجها لإغناء الخزانة العربية الأندلسية.

مكناس **إبراهيم القادري بوتشيش**

قالتْ لي المرآة...

حسن التوسي

قـــالت لي المرآة ســـاخرة   مني، ومـــا دار في ذهني...
لمـــا وقفت بهـــا أســـائلهـــا   عني، وكم ســـاءلتهـــا عني ؟
هـــذا الـــوقـــوف لـــدي يحرجني   أتظنـــه من واقـــع يغني ؟
الآن صرت تطيـــل مـــدتـــه   متملقـــا... وتـــود لـــو أني...

☆ ☆ ☆

أنسيت حين تمر بي مرحـــا   - مر الكرام - مجـــانبـــا ركني ؟
تختـــال في ثقـــة وغطرســـة   بقـــوامـــك الـــدفـــاف كالغصن
وبطلعـــة أضفى الشبـــاب على   قسماتهـــا منحـــا من الحسن
وتشيـــح عني غير مكترث   ببهـــاء إشراقي... ولا لـــوني...

☆ ☆ ☆

الآن قـــد جف الصبـــا وذوى   وبـــدت طلـــوع الشيب كالقطن
ومشى الشحـــوب يـــذر صفرتـــه   فـــإذا بـــوجهـــك حـــائـل اللـــون

في كل يـــوم منـــــك يظهر لي ... مـــالا أفيـــدك فيـــه أو أغني
كم ذا أعـــالــج فيـــك من هنــة ... رجحت على الحسنـــات في الــوزن ؟

☆ ☆ ☆

لا يـــا صـــديقي... لست قـــادرة ... أبـــــدا على مــــا ترتجي مني
إصــلاح مـــا الأيـــام تفســـده ... فيكم... ومنكم... ليس من شــــأني
النرجسيـــة قـــد كفرت بهـــا ... لا سيا في هـــــــذه السن
فـــاســـأل ســـواي فلست مخبرة ... إلا بمـــا شهـــدت بـــه عيني...

☆ ☆ ☆

أنـــا للحســـان خلقت صـــاحبـــة ... يـــزددن بي حسنـــا على حسن
أنـــــا للتي مرت برودهـــــا ... ـ مر النسيم ـ على شفـــــا الجفن
أنـــــا للتي ســـوت براحتهـــــا ... خصـــلا مـــلأن جـــوانب الحضن
أنـــا للتي مست (بـــاصبعهـــا) ... شفتين نــــاضحتين بــــالمن
أو للتي صبغت بغـــــاليـــــة ... خـــالا غـــا في الطيب والـــدهن

☆ ☆ ☆

أنـــا مـــا أزال لهن نـــاصحـــة ... حتـــى ـ وإن أمسيـــن كالشـــن
إني لمن خلقت مرشـــــــدة ... فلهن ـ من دون الـــورى ـ دعني...

بنغازي ... **حسن السومي**

صلة الصلة

لابن الزبير

الربط بين القسم المطبوع من كتاب صلة الصلة لابن الزبير وبين شذرات أخرى منه موجودة بخزانة القرويين

محمد بن عبد العزيز الدباغ

إن التراث الفكري الذي أنتجه المسلمون طوال حضارتهم كان من أهم العوامل التي ساعدت النهضة الحديثة على مسايرة البحث العلمي نظرا لما يحتوي عليه ذلك التراث من مختلف الاستنتاجات العقلية.

ونظرا لأهمية التراث العلمي والأدبي فإن عددا كبيرا من الخزانات العالمية عملت على احتوائه والاهتمام به، الشيء الذي دفع عددا كبيرا من العلماء في المشرق والمغرب إلى العمل على نشره ودراسته ومعرفة مضامينه زيادة على الاهتمام البيبلوغرافي الذي تولته جماعة من المختصين بالمكتبات في العالم.

ورغم كون النشر قد ساعد على إخراج كثير مما هو موجود في هاته الخزانات فإن مجال البحث مازال إلى الآن قائما من أجل الاطلاع على

الجديد من مخلفات هذا التراث خصوصا في البلاد المغربية التي تتوفر على القسط الوافر من هاته المخطوطات في خزاناتها الخاصة والعامة.

ولعل البحث الجاد سيؤدي حتما إلى الوصول إلى نتائج سارة سواء في الميدان العلمي أو في المجال الأدبي لأن وضعية المغرب الجغرافية ومكانته التاريخية جعلته يحتضن الكثير من المسلمين الذين حملوا معهم من الأندلس زادا كبيرا من الكتب زيادة على الازدهار العلمي الذي ساد عددا من مدنه والذي دعا إلى تأسيس خزانات علمية هامة وإلى تزويدها بأهم الكتب وإلى مساعدتها بكل الوسائل التي تضمن لها الاستمرارية.

ولقد عرف المغرب الأقصى في أوائل القرن العشرين حركة للنشر تولت إخراج بعض الكتب وإبرازها للوجود وكان معهد العلوم العليا المغربية قد تولى طبع عدد منها خصوصا ما كان يتعلق بتاريخ الأندلس وبأدبها ولقد عُني الأستاذ ليفي بروفنصال المدير الفخري لهذا المعهد - بمساعدة عدد كبير من علماء المغرب - بذلك عناية خاصة واستفاد بالخصوص من خزانة المرحوم الشيخ محمد عبد الحي الكتاني تلك الخزانة التي كانت زاخرة بالذخائر والنوادر والتي وجد فيها قسما من كتاب الصلة لصلة ابن بشكوال تأليف أبي جعفر أحمد بن الزبير المتوفى سنة ثمان وسبعمائة هجرية فعمل على نشره والتعليق عليه (1) وقال في تقديمه إنه لم يجد من هذا الكتاب إلا تأليفا عديم الرأس والعقب بالخزانة الكتانية وإنه تأمل فيه فبلغ به ظنه أنه صلة الصلة لابن الزبير، ومما دله على صحة هذا الظن أن بعض التراجم الكائنة فيه قد انتسخها باللفظ ابن الأبار في تكملة الصلة

---

1) طبع هذا القسم بالمطبعة الاقتصادية بالرباط عام 1937 ميلادية.

ولسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة في تاريخ غرناطة ونسبها كل منها إلى ابن الزبير.

لقد قدم هذه المخطوطة على أنها القسم الأخير من هذا الكتاب ووصفها وصفا دقيقا حيث قال عنها إنها مكتوبة بخط عتيق جيد مبسوط الحروف، أندلسي الشكل وقد طرأت على أكثر أوراقها لا سيا في الطرر خروق وحشرات وربما كان تاريخ نسخها بالإجمال في القرن الثامن الهجري.

ومن المعلوم أن ليفي بروفنصال لم يطلع إلا على الموجود من هذا الكتاب بحيث لم يتيسر له أن يقابله بنسخ أخرى أو أن يعرف أن له مصدرا آخر اللهم إلا ما كان من المقابلة بما وجد منه في بعض كتب التراجم والطبقات كتكلة ابن الأبار وإحاطة ابن الخطيب اللذين ذكرناهما من قبل.

إن ليفي بروفنصال لم يكن على علم تام بما يتصل بأصل هذه الأوراق التي كانت موجودة بخزانة الشيخ محمد عبد الحي الكتاني معدومة الرأس والعقب ولم يتوقع أنه سيوجد في يوم من الأيام بخزانة القرويين هذا الرأس وهذا العقب.

حقيقة إن الأقدار قد ساعدت على وجود شذرات من نفس النسخة التي نقل أوراقها ليفي بروفنصال فإذا أضيفت هذه الشذرات إلى القسم المطبوع كان ذلك ربحا أدبيا وتاريخيا يضاف إلى الخزانة الأندلسية.

كان هذه الشذرات موزعة على أربعة من الملفات التي تتضمنها خروم الخزانة وقد جمعناها الآن بصفة استثنائية ورقمناها ترقيا مؤقتاً (2) ريثما يتم الترقيم الكلي لهذه الخروم.

إن هاته الشذرات تصل لحد الآن إلى خمس وخمسين ورقة ولولا ما فيها من ضياع بعض كلماتها بسبب الأرضة لكانت فائدتها أعم وقيمتها أهم، ولقد دفعني التأمل فيها إلى المقارنة بينها وبين القسم المطبوع، وإلى إبداء ملاحظات عامة تتعلق بوصفها وتاريخ نسخها وتاريخ تحبيسها مع إبداء الروابط الموجودة بينها وبين النسخة الكتانية التي اعتمدها ليفي بروفنصال أثناء الطبع.

وسنجمل تلك الملاحظات فيما يأتي :

أولا : من بين هاته الشذرات توجد الورقة الأولى من هذا السفر وعليها عنوانه واضحا مما لا يترك مجالا للشك في ربط ما فيه بأصله ومن هناك يتبين لنا أن القسم المطبوع هو ورقات من السفر الثالث من كتاب الصلة لصلة أبي القاسم ابن بشكوال رحمه الله تأليف الشيخ الفقيه المحدث الأستاذ أبي جعفر أحمد بن الشيخ الفقيه المقدس المرحوم أبي اسحق إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن عاصم بن مسلم الثقفي العاصمي.

ثانيا : توجد أيضا من بين هذه الشذرات الورقة الأخيرة من هذا السفر الذي وقع الفراغ منه في شهر شعبان عام سبعة وتسعين وستمائة أي قبل وفاة المؤلف بنحو إحدى عشرة سنة وفيها محو ناتج عن رطوبة

2) الرقم المؤقت هو رقم 6 من الحزوم الجديدة.

الورقة الاولى من السفر الثالث من كتاب الصلة لصلة ابن بشكوال وبها توجد وثيقة التحبيس.

بالجانب الأيسر مع تمزق أضاع كلمات كثيرة من الأسطر الأربعة الأخيرة ومع ذلك فقد بقيت المعلومات المتعلقة بالكتاب وبتاريخ نسخه واضحة فقد جاءت هذه المعلومات بعد الخاتمة التي وضعها المؤلف لكتابه والتي أبان فيها عن خطته في التأليف وعن اعتماده على التحقق المباشر بالأخبار المنقولة أو المشاهدة وقد قال بعد ذكره لماته الخطة... وقد آن لنا أن نختم بالصلاة على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطاهرات أمهات المومنين وعلى سائر أنبيائه ورسله وكافة عباده الذين اصطفى ثم قال كمل السفر الثالث من كتاب الصلة لصلة الإمام أبي القاسم ابن بشكوال وبه تم جميع الكتاب والحمد لله حق حمده والصلاة على سيدنا محمد رسوله وعبده الخ.

ثالثا : قد اتضح لنا من هذه الشذرات أن الكتاب كان ينسخ في حياة المؤلف على أساس أنه مجزأ إلى ثلاثة أسفار، وقد نسخ في بعض الأحيان على أساس تقسيم ثنائي فقط، وعلى التجزئة الثنائية اعتمد السيوطي في كتابه بغية الوعاة ويوجد الآن النصف الثاني من النسخة الثنائية بدار الكتب المصرية يحمل الرقم 280 من جناح التاريخ من كتب تيمور رحمه الله ويبدأ بذكر المحمدين ويستمر إلى آخر الكتاب.

رابعا : إن السفر الثالث الذي يتكون من القسم الأخير المطبوع، ومن الشذرات الموجودة بخزانة القرويين يبدأ بترجمة من اسمه عبد الرحمن، ثم بمن اسمه عبد الرحيم، ثم بمن اسمه عبد الملك، ثم بمن اسمه عبد العزيز، وهنا تقع فجوة تدل على ضياع أوراق لم تكتشف بعد ثم نصل إلى القسم المطبوع المبدوء بمن اسمه عبد العزيز من الغرباء.

وقد يوجد تداخل بين الأوراق المطبوعة وبين الشذرات يكمل بعضها بعضا ويظهر ذلك واضحا في حرف العين وفي الغين والواو والياء وتنفرد الشذرات ببعض التراجم المتعلقة بالفاء والقاف والسين والشين والهاء كما تنفرد بذكر تراجم النساء التي ختم بها الكتاب.

خامسا : توجد على الورقة الأولى وثيقة التحبيس وقد محي منها اسم المحبس محواً متعمداً وتقول هذه الوثيقة: إن هذا الكتاب محبس على خزانة جامع القرويين من فاس حرسها الله تعالى التي بشرقي الصحن منه تحبيساً تاما دائماً، مؤبداً ينتفع به الطلبة هنالك وفرهم الله تعالى بالمطالعة والنسخ والمقابلة وغير ذلك من أوجه الانتفاع على العادة في الكتب هنالك وحضر الناظر في الخزانة المذكورة أعلاه وهو الشيخ الطالب الخير أبو العباس أحمد بن أبي جمعة الكتاني النجار وحاز السفر المذكور للخزانة المذكورة وصار في قبضه لها وعرف قدره وأشهد عليه بذلك في أواسط جمادى الأولى عام خمسة عشر وثمانمائة.

ومن هاته الوثيقة يتبين لنا أن هذا الكتاب قد حبس على خزانة القرويين منذ أوائل القرن التاسع الهجري وأن هذه النسخة العتيقة تعد من أوثق النسخ خصوصا بعد أن تقدمت الإشارة بأنها قد نسخت في عهد مؤلفها ولهذا يجب الاعتداد بها والعمل على البحث عما ضاع منها ليضاف الأصل إلى فرعه ولتطبع من جديد طبعة كاملة.

سادسا : منذ ابتداء الحديث عن هذه الشذرات ونحن نذكر أنها الأصل للنسخة الكتانية التي اعتمدها ليفي بروفنصال ولكن هذا القول لا يمكن أن يقبل بمجرد الدعوى إذ لابد من تأييده بوسائل الإثبات وإلا ظل كلاما عبثيا وادعاء هرائيا.

إن وسائل الإثبات تبدو، حسب ما أظن، مقنعة وهي متفاوته القيمة الإقناعية ويمكن إجمالها في الملاحظات التالية :

أولا : الوصف الشكلي الذي وصف به بروفنصال الأوراق التي كانت بالخزانة الكتانية ينطبق تمام الانطباق على الشذرات الموجودة بالقرويين فالخط عتيق، جيد، مبسوط الحروف، أندلسي الشكل والطرر قد اخترمتها الحشرات بخروق متعددة.

ثانيا : إن عدم التكرار فيما هو موجود وما هو مطبوع قرينة قوية دالة على أن هذه النسخة يكمل بعضها بعضا وكان يشككني في هذا الاستنتاج وجود ترجمة من اسمه وهب بن لب بن نذير الفهري المعروف بأبي العطاء (3) فهو موجود بالنسخة المطبوعة وبالشذرات في آن واحد، لكن تبين لي أن مطلع الترجمة مختلف فهو في القسم المطبوع مأخوذ من تكملة ابن الأبار وقد أشار المحقق ذاته إلى ذلك حيث قال أثناء ترجمته لوهب هذا بأنه قد نسخ من التكملة ما هو محذوف في الأصل وأما في الشذرات فهو موافق لما في نسخة دار الكتب المصرية (4) وهذا ما يبرز لنا وجود التداخل بين ما في التكملة وبين ما في صلة الصلة وذلك أن القسم الأخير من الترجمة يعتمد على الأوراق الكتانية أما القسم الأول فلم يكن للناشر بد من الاعتماد على ابن الأبار ولهذا أتمنى عند طبع الكتاب من

---

3) رقمت ترجمته بالعدد 329 في القسم المطبوع أنظر الصفحة 169.

4) أطلعني على صورة هذه النسخة كل من صديقنا الأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس وصديقنا الأستاذ السيد عبد المالك الشامي.

جديد إهمال صدر الترجمة المطبوعة وتعويضه بما في خزانة القرويين لأنه هو الموافق للأصل الذي كان مفقودا وهو الموافق لنسخة دار الكتب.

ثالثا : من المرجحات القطعية التي لا مناص من قبولها أن الناشر أشار حين ترجمته لعلي بن علي محمد بن موسى الأنصاري الشريشي المعروف بابن الغزال (5) أنه وقع بتر ورقة في الأصل المنقول عنه ونحن بعد الاطلاع على الشذرات الموجودة بالقرويين تبين لنا أن هذه الورقة المبتورة توجد ضمن هذه الشذرات ففيها تتمة ترجمة الغزال هذا مع إحكام التسلسل الكلامي ففي القسم المطبوع نجده يتحدث عن الذين روى عنهم الغزال فيقول وروى عن المقرئ المجيد أبي الحسن علي بن ناصر وعن الفقيه العارف، وينتهي الكلام لنجد في الورقة الموجودة بالقرويين اسم هذا الفقيه العارف الذي هو أبو محمد عبد الله بن حباسة الأزدي ثم يضاف إليه فيها ذكر بعض شيوخه ويقول عنهم إنهم كلهم من شريش.

وفي هذه الورقة يقول المؤلف : «توفي أبو بكر بن الغزال في حدود سنة تسع وستمائة أو نحوها».

وهناك قرينة أخرى تتصل بالوجه الثاني لهذه الورقة فهو يختم بالحديث عن ترجمة علي بن أبي الأصبغ وفيه ذكر لشيوخه قال المؤلف : «وقد اطلعت على خطوط كثير من الذين أخذ عنهم فوجدتها تحلته

---

5) رقمت ترجمته في القسم المطبوع بالعدد 246 أنظر الصفحة 123.

واحدة ، وكان رحمه الله حسن التعليم قاصد العبارة وطياً في المناظرة من علية نُحاة وقته ، توفي سنة ٦٠٩ ، ذكره كثير من شيوخنا ولازمه جماعة منهم كأبي الخطّاب بن خليل وأبي الحسن النافقي وأبي القاسم بن رحمون وأبي عبد الله الصّدَفي وأبي القاسم بن ربيع وغيرهما ، وذكره الشيخ في الذيل وقال إنّه توفي بإشبيلية وانّه شرح كتاب الايضاح ولم أسمع هذا من غيره .

٢٤٦ ـ علي بن محمد بن علي بن موسى الانصاري من أهل شريش يكنى أبا بكر ويعرف بابن الغَزّال ، روى عن المقرئ الجيد أبي الحسن علي بن ناصر وعن الفقيه العارف.................(١)

... والمعرفة والاقراء .

٢٤٧ ـ علي بن عبد العزيز بن مقاتل القَيْسي من أهل مدينة المنكّب يكنى أبا الحسن ويعرف بابن عَيْن الزُّجاج ، أخذ عن أبي محمد عبد الصمد الغسّاني المقرئ وأبي عبد الحقّ بن بونُه وأبي بكر بن أبي زَمنين وأبي القاسم بن سمجون وأخذ كتاب سيبويه عن أبي الحسن بن خروف وكان يكتب الوثائق ويعمل الفرائض ويتقن ذلك كلّه ، وله تأليف في الفرائض ، ذكره الملّاحي .

٢٤٨ ـ علي بن عبد الرحمن الانصاري من أهل إشبيلية يكنى أبا

---

(١) هنا وقع بتر ورقة في الاصل المنقول عنه .

ورقة من القسم المطبوع توضح البتر الموجود في ترجمة ابن الغزال رقم 246 وفي الصورة المخطوطة بعدها يتضح لنا تتمة البتر الموجود.

ابي محمد عبد الله بن حبانسة الازدي والقاضي الورع ابي الحسن بن ابي ال
وابي بكر بن مالك الاديب والمحدث ابي بكر بن عبد الملك
الامام الحافظ المشاور وابي بكر يحيى بن عيسى بن ابراهيم الخزرجي وهاو
كلهم من اهل شريش وروى ايضا عن الحافظ ابي بكر بن الجد
وكان فقيها مشاورا مفتيا ببلده اخذ الناس عنه قال ابو
... بن خليل لقيته بشريش وسمعت عليه قال وكان
ابن الهديل من اهل بلنسية يشرو وكان ابن الهديل فقيها ... وحلف
ابا حامد الغزالي واخذ عنه توفي ابو بكر بن الغزال في حدود سنة
... وستماية او نحوها محمد بن ابراهيم بن ابي زمنين المري من اهل
غرناطة وكان يسكن المنكب يكنى ابا الحسن كانت عنده رواية
... عن شيوخ ابن عمه القاضي ابي بكر ونه ... وغيرهم
وكان من اهل الخير والصلاح والدين منقبضا عن الناس مشتغلا
... توفي ... من سنه ... وستماية بالمنكب وسنه
اربع وثمانون سنة ويكنى الملاحي علي بن عبد الرحمن بن عبد العزيز
ابن القاسم العمراني من اهل مالقة يكنى ابا الحسن اخذ عن العد...
بمالقة ابو بكر يحيى بن عبد الجبار المعروف بابن اللبان وعن
الاديب ابي بكر الكتندي وغيرهما واجازه الحافظ ابو بكر بن
الجد والقاضي ابو عبد الله بن زرقون وابو القاسم بن حبيش وابو
الحسن نجبة بن يحيى وابو العباس بن مضا والحاج ابو ال...
... وابو محمد عبد المنعم ... عبد الرحمن وابو حاتم ...
العوفي وابو بكر ... وبكر بن ابي زهر ...

بالنباهة والمعرفة». وينتهي الكلام لنجد في القسم المطبوع تتمة الوصف لأن الجملة في صورتها الكاملة تقول : «وقد اطلعت على خطوط كثير من الذين أخذ عنهم فوجدتها تحلته بالنباهة والمعرفة والإقراء».

وما يؤيد هذا الاستنتاج الذي توصلنا إليه مقابلة ما هو موجود ومطبوع بنسخة دار الكتب المصرية فإن هاته المقابلة كافية في تأييد ما قلناه.

رابعا : توجد من حين لآخر في الشذرات بعض الإضافات المكتوبة بالطرر ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن النسخة كتبت في عهد المؤلف وأنه اطلع عليها فكان يضيف إليها بعض الزيادات. وفي القسم المطبوع إشارة إلى بعض هذه الزيادات تحدث عنها الناشر نفسه فهو مثلا حين ترجمة عبد المنعم بن سالم بن سماك العاملي أشار إلى أن ترجمته قد زيدت في طرة الأصل وأن بها بتراً كثيرا كما أشار عند حديثه عن يحيى بن محمد بن هانىء المعروف بابن الرمالية إلى زيادات قال عنها إنها منقولة من طرة الأصل المنقول عنه.

وعلى كل حال فإن التأمل في هاته القرائن والحجج لما يدعونا قطعا إلى صحة ربط القسم المطبوع بالشذرات الموجودة وإلى الاعتراف بأن النسخة الكتانية ليست إلا ورقات مقتطعة من النسخة الأم المحبسة على خزانة القرويين ولعلنا إن شاء الله بعد استمرار البحث سنصل إلى ما بقي

[illegible]

... وعلى آله واصحابه وازواجه الطاهرات امهات المومنين وعلى سائر انبيائه ورسله وكافة عباده الذين اصطفى.

كمل السفر الثالث من كتاب الصلة [illegible] الامام ابي القاسم
ابن بشكوال وبه تم جميع الكتاب والحمد لله حق حمده والصلاة
على سيدنا محمد رسوله وعبده وعلى آله الطيبين وازواجه الطاهرات
امهات المومنين وسلم كثيرا الى يوم الدين وغفر الله لكاتبه ولوالديه
ولكاسبه ولجميع المسلمين
والله [illegible] وكان الفراغ منه
عام سبعة وتسعين وخمسمائة

الورقة الأخيرة من المخطوطة وتاريخ نسخها يبين أنها نسخت في عهد المؤلف.

مفقودا من هذا الكتاب الذي نتمنى أن يجد من ينشره نشراً جديداً محققا وأن يستعين بما هو موجود في الخزانة وبما هو مطبوع وبالقسم الموجود بدار الكتب مع ما يمكن الاطلاع عليه في الخزانات العامة والخاصة وما ذلك على أصحاب الهمم العلمية ببعيد.

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

مع «المعجم الوسيط»[1]
في طبعته الثانية

ادريس بن الحسن العلمي

«عباد» جمع من جموع «عبد»

في مادة «عبد» عند ذكر «المعجم الوسيط» لمختلف الجموع الواردة في اللغة لكلمة «عبد» لم يثبت الجمع التالي : «عباد» الذي أورده الفيروزابادي صاحب «القاموس المحيط» مع كون أصحاب «المعجم الوسيط» نقلوا عنه شرح كلمة «عبد» بالحرف ونصه : «الإنسان حرّاً كان أو رقيقاً».

ونحن نأسف لإغفال مجمع اللغة العربية بالقاهرة جمع «عباد» الذي هو أكثر شيوعاً وأكثر تداولاً من غيره من الجموع لاسيما وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم سبعاً وتسعين مرة ضمن 97 آية بينما لم ترد كلمة «عبيد» في القرآن إلاّ خمس مرات.ومن الآيات التي نصت على كلمة «عباد» آيتان

---

1) انظر ملاحظاتنا على الطبعة الأولى في العدد الثاني، والعدد الثالث والعدد السادس والعدد الرابع عشر من مجلة «اللسان العربي» التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي.

اشتملتا على المفرد وجمعه أي على «عبده» و «عباده» في آن واحد وذلك ضمن الآية 65 في سورة الكهف وهو قوله تعالى : «فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا» وضمن الآية 10 في سورة التحريم وذلك قوله سبحانه : «كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما».

فالأمانة العلمية تقضي بالعمل على تدارك هذا الإغفال الخطير عند إخراج الطبعة الثالثة بدون أيما اعتبار.

ليست «المداهنة» هي «المداراة»

في مادة «دهن» جاء في شرح «المعجم الوسيط» لفعل «داهنه» ما يلي : داراه ولاينه».

وكل من له إلمام باللغة العربية وإطلاع ولو يسير على الأحاديث النبوية وعلى ما وصلنا من الآثار يعلم أن المداراة فضيلة يأمر بها الشرع وأن «المداهنة» رذيلة منهيٌّ عنها ويأباها الطبع الكريم. فالمداراة تصدر عن الحصافة والرزانة والتبصّر والمداهنة لون من ألوان النفاق والخداع فقد جاء في الأثر «رأس الحكمة بعد مخافة الله مداراة الناس» كما ورد في الأثر أيضا «داروا سفهاءكم».

وقد نصّ على الفرق بينهما شيخ الإسلام سيدي محمد العربي ابن السائح في كتابه «بغية المستفيد لشرح منية المريد» بقوله رضي الله عنه :

«وتشتبه المداراة بالمداهنة والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته رجاء إصلاحه واحتملت منه ما تكره». «والمداهنة ما قصدت

به شيئا من الهوى كطلب حظ وإقامة جاه فالأولى «من أخلاق الأخيار والثانية من سمات الأشرار».

وأورد ابن منظور في معجمه (لسان العرب) في مادة «دهن» ما يلي بنصه :

- «والمداهنة والادهان : المصانعة واللين. وقيل : المداهنة «إظهار خلاف ما يضمر والادهان : الغش ودهن الرجل إذا نافق. ودهن غلامه : «ضربه... الجوهري : والمداهنة والادهان كالمصانعة. وفي التنزيل العزيز ودّوا لو تدهن فيدهنون. وقال قوم : داهنت بمعنى واريت. وادهنت : بمعنى غششت. وقال الفراء : معنى قوله عز وجل : (ودّوا لو تدهن فيدهنون) : (ودّوا لو تكفر فيكفرون). وقال في قوله : (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) : أي مكذبون. ويقال : كافرون. وقوله : (ودّوا لو تدهن فيهدنون) أي ودّوا لو تصانعهم في الدّين فيصانعوك. الليث : (الادهان : اللين والمداهن : المصانع... وقال بعض أهل اللغة معنى (داهن وأدهن) : أي أظهر خلاف «ما أضمر فكأنّه بيّن الكذب على نفسه» (أهـ).

- وأورد ابن منظور كذلك في مادة «المدارة» ما يلي بنصه : «والمداراة : في حسن الخلق والمعاشرة مع الناس : المداجاة والملاينة «ومنه الحديث : (رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس، أي ملاينتهم وحسن صحبتهم واحتمالهم لئلا ينفروا عنك. (وداريت الرجل) : «لاينته ورفقت به». (أهـ).

وبإمعان النظر في شروح ابن منظور نجد أن لفظ «المداراة» لم يرد ولا مرة واحدة ضمن مختلف شروح «المداهنة» كما أن لفظ «المداهنة» لم يذكر قط ضمن شروح «المداراة».

وفي ذلك وفي غيره مما تضمنته الشروح من معاني ودلالات تأييد وتأكيد للتفرقة بين «المداهنة» و«المداراة» التي نص عليها جهبذ العلماء، ونابغة الشعراء والأدباء، المربي الناصح، والولي الصالح، سيدي محمد العربي ابن السائح، رضي الله عنه وأرضاه ورضي عنا به آمين.

فنرجو من مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن يتدارك هذا الخلط وألا يشرح في الطبعة الثالثة لـ «المعجم الوسيط» كلمة «داهنه» بـ «داراه» ولا «المداراة» بـ «المداهنة» فإن مثل هذا الشرح حتى ولو جاز صدوره عن معجم من المعاجم اللغوية القديمة التي كانت تأتي بالشروح على وجه التقريب لا بقصد التحديد والضبط فإنه لايسوغ وروده في أي معجم لغويّ حديث لاسيما إذا كان صاحب هذا المعجم هو «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة الذي أولى مهامه تحقيق وتدقيق دلالة المفردات والمصطلحات.

«المِدْلجة» (بكسر الميم) لا «المَدلجة» (بفتحها) هي العلبة التي ينقل فيها اللبن أو الماء

في مادة «دَلَجَ» كرّر «المعجم الوسيط» في طبعته الثانية خَطَأَهُ في شرح كلمة «مَدْلَجَة» (بفتح الميم) الوارد في طبعته الأولى ونصه : «المَدْلَجَةُ : المَدْلَجُ» «وكِنَاسُ الوحش. والعلبة الكبيرة ينقل فيها اللبن». وقد سبق لنا أن نبّهنا على هذا الخطإ في العدد الثاني من مجلة «اللسان العربي» بقولنا : أورد «المعجم ضمن شرحه لكلمة «مَدْلَجَة» (المفتوحة الميم) ما يلي : «العلبة الكبيرة ينقل فيها اللبن» والصحيح أن هذا المعنى هو مدلول كلمة «مِدْلَجة» (المكسورة الميم) كما ينص عليه «أقرب الموارد» و«تاج العروس» و«أساس البلاغة».

واليوم نضيف إلى استشهادنا بالمعاجم الثلاثة المذكورة نصّ ما أورده الفيروزابادي صاحب «القاموس المحيط» في مادة «دَلَجَ» من شرح لكلمتي «مَدْجَلة» المفتوحة الميم و «مِدْلجة» المكسورة الميم وذلك قوله : «...والدّالج» الذي يأخذ الدّلو ويمشي به من رأس البئر إلى الحوض ليُفرغها فيه وذلك الموضع «مَدْلَجٌ» وَ «مَدْلَجَةٌ» (بفتح الميم في كلتيهما)... وكَمِكْنَسَة (بكسر الميم) : العلبة الكبيرة ينقل فيها اللبن. وكَمَرْتَبَة (بفتح الميم) : «كِنَاسُ الوحش» اهـ.

وكما ناخذ على «المعجم الوسيط» عدم تفريقه بين المفردتين «المَدْلجة» (المفتوحة الميم) و «المِدلجة» (المكسورة الميم) نأخذ عليه إغفاله هذه الأخيرة بالمرة.
ولذلك نرجو من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عند إخراجه الطبعة الثالثة لـ «المعجم الوسيط».

1) أن يصحح شرحه لكلمة «مَدْلَجة» (المفتوحة الميم) كما يلي :

- المَدْلجة والمَدْلَجُ : ما بين الحوض والبئر الذي يمشي فيه الدالج بالماء.
- المَدْلَجَةُ والدَّوْلَجُ : كِنَاسُ الوَحْش»

2) أن يثبت المفردة «مِدْلَجة» المكسورة الميم على النحو التالي :
- المِدْلَجة : «العُلْبة الكبيرة ينقل فيها اللبن أو الماء».

المستوى : Niveau

أصرّ المعجم على اغفال كلمة «مستوى» (بفتح الواو) اسم مكان من «الاستواء» التي تقابل اللفظ الفرنسي «Niveau» رغم تنبيهنا على هذا

الإغفال في العدد الثاني من مجلة «اللسان العربي» بصدد ملاحظاتنا على الطبعة الأولى. ولذلك نلحّ على ضرورة إثباته في الطبعة الثالثة مع الشرح التالي الوارد قبالة اللفظ الفرنسي المذكور الذي ننقله مترجماً عن معجم «بول روبير» الصغير :

- «المُسْتَوَى : درجة ارتفاع خط أو سطح بالنسبة لسطح أفقي يوازيه. وبالمجاز : المستوى التعليمي، أو المستوى الثقافي : «درجة العرفان أو الثقافة».
- «مُسْتَوَى الحياة : مجموع الأمتعة والخدمات التي يساعد على تحصيلها أو اكتسابها الدخل الوطني المتوسط».

«كَفَّهُ عن الأمر = صَرَفَهُ ومنعه

في مادة «كفف» أغفل المعجم عند شرحه فعل «كَفَّ» معنى : «كَفَّهُ عن الأمر : صَرَفَهُ ومنعه» الذي نصت عليه أمهات كتب اللغة ونخص منها بالذكر «لسان العرب» لابن منظور و«أساس البلاغة» للزمخشري و«أقرب الموارد» الخ...

وقد تكرر هذا الإغفال في الطبعة الثانية مع أننا نبهنا عليه بصدد ملاحظاتنا على الطبعة الأولى المنشورة في العدد الثالث من مجلة «اللسان العربي» الصادر في غشت من سنة 1965.

مادّتا «ذوف» و«ذيف»

أصرَّ المعجم على إغفال مادتي «ذوف» و«ذيف» رغم تنبيهنا عليه في العدد الثالث من المجة المذكورة منذ عشرين سنة. ونعيد التذكير بمفرداتها التي ننقلها عن (لسان العرب) لابن منظور فيما يلي :

الذَّوْف : مشية في تقارب وتفحج. الفعل : **ذافَ، يَذُوفُ** قال :

رأيت رجالاً حين يمشون فحجوا
وذافوا كما كانوا يذوفون من قبل

الذوفان : السم المنقع وقيل هو القاتل وسنذكره في الياء لأن الذيفان لغة فيه.

الذواف الذوفان.

الذئفان بالهمزة و **الذيفان** بالياء و **الذيفان** بكسر الذال وفتحها و **الذواف** كله السم الناقع وقيل القاتل يهمز ولا يهمز... وأنشد ابن السكيت لأبي زَجزة :

وإذا قطمتهم قطمت علاقما
وقواضى الذيفان مِمَّن تقطم

«... ابن الأثير في حديث عبد الرحمن بن عوف :

«يفيدهم، وودوا لو سقوه
من الذيفان مترعة الملايا»

«... وحكى اللحياني سقاه الله كأس الذيفان : بفتح أوله «وهو الموت».

«المبزغ» و «المشرط» و «المبضع» و «المفصد» «المرهم» - «الحرج» - «الصنّ»

- أبقى المعجم على الغموض والفراغ في شرح كلمات «المبزغ» و «المشرط» و «المبضع» و «المفصد» التي فسر بعضها ببعض ويؤسفنا أنه لم

يأخذ بعين الاعتبار ملاحظاتنا والشروح التي اقترحناها لهذه المفردات في العدد الثالث من مجلة «اللسان العربي» الصادر منذ عشرين سنة.

- لم يتدارك المعجم إغفاله كلمة «المرهم» التي نبهنا عليها بصدد طبعته الثانية في العدد الثالث من المجلة المذكورة مع افتقار الاصطلاح الطبي إليها ومع ورودها في أمهات كتب اللغة مثل «لسان العرب» و«تاج العروس» بمعنى «طلاء يطلى به الجرح».

- عند شرحه كلمة «حرج» لم يتدارك كذلك إغفاله المعنى الوارد في «تاج العروس» بالنص التالي : «سرير يحمل عليه المريض أو الميت» وذلك رغم تنبيهنا عليه في العدد الثالث من هذه المجلة.

- في مادّة «صنّ» لم يتدارك المعجم إغفاله مفردة «الصّنّ» التي ورد شرحها في «تاج العروس» وفي «متن اللغة» وفي «أقرب الموارد» وفي «المنجد» بالمعنى التالي :

«شبه السلة المطبقة يجعل فيها الطعام أو الخبز» ويقابلها في اللغة الفرنسية لفظ «Porte-manger» وذلك رغم تنبيهنا عليها.

عسى الله أن يوفق مجمع اللغة العربية بالقاهرة لأن يتدارك في الطبعة الثالثة ما أغفله في الطبعة الثانية لمعجمه مثلما تدارك غيرها من المغفلات التي نبهنا عليها من قبل والله ولي التوفيق.

ادريس بن الحسن العلمي